التفسير الوعظي لسورة آل عمران

تأليف:

د. محمد محمود الطرايرة

راجع آياته ودققها:

فضيلة الشيخ عبدالكريم يونس

التفسير الوعظي لسورة آل عمران

التَّفسير الوَعْظي لسورة آل عمران

الدكتور محمد محمود الطرايرة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٧٥٩/ ٢ / ٢٠٢٢)

رقم التصنيف : ٢٢١،٥٣

الواصفات : / سور القرآن / / تفسير القرآن/ / العلوم القرآنية / / القرآن الكريم

الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للتواصل مع المؤلف

+962 79 617 69 69

m-Tarira@hotmail.com

د-محمد الطرايرة

عمان - الأردن

التفسير الوعظي لسورة آل عمران

تأليف:
د. محمد محمود الطرايرة

راجع آياته ودققها:
فضيلة الشيخ عبدالكريم يونس

الطبعة الأولى
١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحَمْدُ لله الذي أكْرمَنا بالإسلام، وشَرحَ صدورَنا لتلاوة القرآنِ وفهمه، وأَعَدَّ لمنْ صَدَقه في ذلك الدرجاتِ العُلا في الجِنان.

أَحْمدُه على نِعَمِه التي لا تنْقطع، وآلائه التي لا تنقضي.

سُبْحانه؛ ما يفتحُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسك لَها.

وَأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على الرَّحْمةِ المهداةِ، سيدِ الأوَّلينَ والآخرين، البشيرِ النذيرِ، الذي اصْطفاهُ رَبُّنا مِن بَيْن خَلْقه، وجَعلَه رسولًا للناس أجمعين، صَلواتُ رَبِّي علَيه وعلى آلِهِ الطَّيبين الطاهرين، وعلى أصْحَابِه حمَلةِ الشرع ومصابيحِ الهُدى، وقُدواتِ المؤمنين الصالحين، وبعدُ:

فَهذا تفسيرٌ لسورة آل عمران، قَصَدْتُ مِنْهُ تقْريب عباراتِ أهل العلم في معاني الآيات وأحكامها مِنْ عُموم النَّاسِ، لا سِيّما أنَّ عددًا من كُتب التّفسير فيها لغةٌ عاليةٌ وصعبةٌ على أهل الزمان، فكانت طريقة التصنيف قائمةً على انتقاءِ العباراتِ القريبةِ من الأفهامِ، والاهتمامِ ببيانِ المَعنى بأكثرَ من مُفردةٍ وعبارةٍ.

وَهذا التفسيرُ ينْتفعُ به كذلك صِنفٌ من طلبةِ العِلمِ والدُّعاةِ إلى الله تعالى، مِمَّن تصدّرَ لمجالسِ الوعْظِ والإرشادِ في مُختلفِ مُؤسَّساتِهِ.

وتقْتصرُ فكرتُه على تقديمِ آياتِ كتابِ الله تعالى على هَيْئةِ مواعظَ، تَنْفعُ قارئها وحافِظَها، عن طريق توضيحِ المقصودِ منها وبيانِ السياق الذي جاءت فيه، وذِكْرِ سببِ نُزولها إن وُجدَ، ثمَّ محاولةِ ربْطها بالواقعِ الذي نعيشهُ دونَ تكلُّفٍ أو إسْهابٍ.

وَهذا التَّفسيرُ أَسْمَيتهُ وَوَسَمْتُهُ بِـ «التَّفسيرُ الوَعْظِيُّ»، مُسْتمِدًّا ذلكَ من عددٍ من آياتِ القرآن العظيم الَّتِي بيَّنتْ أنَّ الله تعالى أنزلَ كتابَه، وذكَر فيه ما ذَكَرَ، ليكونَ موعظةً للنَّاس وتذكرةً لعلَّهُم يَهْتدون، وذلك كقولِ الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]، وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:١-٣]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١-١٦]، وَغيْرِ ذلكَ من الآياتِ الدّالةِ على أنَّ القرآنَ موْعظةٌ لمَنْ كانَ له قلبٌ، أوْ ألْقى السمْعَ وهوَ شهيدٌ.

وَمنْ تأمَّلَ حالَ كثيرٍ منْ أهلِ الشَّهواتِ والذُّنوبِ، مِمَّنْ غَفلتْ قلوبُهم، ولم تستقِمْ جوارحُهم، وَجدَ أنَّ وصولَ مواعظِ القرآنِ لهُم مِفتاحٌ من مفاتيحِ هدايتِهم ورجوعِهم إلىٰ طريقِ الاستقامةِ والهُدىٰ، ذلك أنَّ كثيرًا منهُم يُحبُّ الله تعالىٰ ويُحِبُّ سماعَ كلامِه، وعندَهُ شغَفٌ وشوقٌ عجيبٌ للعيشِ معَ معانِي الآياتِ وظلالِها، بأسلوبٍ يكونُ قريبًا منهُ ومنْ فُؤادِه، وقد كانَ هذا سببًا من أسبابِ الخوضِ في هذا العِلم، فإنِّي لا أعلمُ واعظًا للنَّفْس أجْودَ وأقربَ وأحْلىٰ منْ كلامِ الله جلَّ في عُلاه.

وقد حرَصْتُ علىٰ تَفْسيرِ القُرآن بالقرآن، وذِكْرِ الأحاديثِ الخادمةِ لفهْمِ الآيةِ، وأخْذِ المَوعظةِ منْها، والمرورِ علىٰ مُجملِ أقوالِ أهلِ التَّفسير والفقهِ إنْ لزمَ.

وكانَ منْ منْهجِي في ذِكْرِ الأحاديثِ ألّا أذْكرَ حديثًا إلَّا راجعتُ كلامَ أهلِ التَّخصُّصِ فيهِ تصحيحًا وتضْعيفًا، ثمَّ حَرَصْتُ علىٰ ذكرِ الصَّحيحِ منْها غالبًا، مُشيرًا إلىٰ الأحاديثِ الَّتي حصلَ فيها خلافٌ أو كانتْ ضعيفةً، حالَ ذِكْرِها.

وَجُلُّ هذا التَّفسيرِ قائمٌ علىٰ مراجعَ ثابتةٍ لا أخرجُ عنها إلَّا إذا احْتجْتُ، وهيَ: كتابُ "جامع البيان عن تأويل آي القرآن "للإمام أبي جعفر الطبري، وكتابُ "تفسيرِ القرآنِ العظيمِ" للإمام ابنِ كثيرٍ، وتفسيرُ "المَنَارِ" للشيخ محمد رشيد رضا، وتفسير "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وتفسيرُ "التَّحريرِ والتَّنويرِ" للشيخ محمد الطاهر ابنِ عاشورٍ، وتفسيرُ "أضواءِ البيانِ" للشيخ محمد الأمين الشَّنقيطيِّ، رحمهمُ الله جميعًا.

ولا يفوتني أن أشير إلىٰ أن فكرة التفسير الوَعْظي ليست بِدْعًا من القول، فإنَّ استنباطَ المواعظ وذِكرَها دأبُ غالب المفسرين في تفسيرهم، وهو جزءٌ من التفسير الموضوعي للمتخصصين في هذا الشأن.

بل إنَّ عددًا من أئمة التفسير قد خصُّوا مواعظ القرآن بتفسير مستقل، فكانت فكرة هذا الكتاب وهذا العنوان مسبوقة بجهد هؤلاء الأعلام.

ومن هذه التفاسير تفسير "تنبيه الأفهام إلىٰ تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم" لابن بَرّجَان، وهو الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي المتوفىٰ سنة ٥٣٦ للهجرة.

ومن هذه التفاسير كذلك تفسير "روح البيان" للشيخ إسماعيل البروسوي، واسمه إسماعيل حَقِّي بن الشيخ مصطفىٰ الاستانبولي الآيدوسي الحنفي أبو الفداء، وقد اختصره الشيخ الصابوني وسمَّىٰ المختصر: "تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للبروسوي".

وَلا يفوتُني قبلَ أنْ أترُكَكم ومواعظ آياتِ سورة آل عمران، أنْ أشْكرَ كُلَّ منْ أعانَ علىٰ إخراجِ هذا الكتابِ، سائلًا الله تعالىٰ أنْ يتقبَّلَ منهُم ويكرمَهم بمَا هوَ أهْلُه، حريصًا علىٰ عدمِ ذِكْرِ أسمائِهم؛ فإنَّ ذِكْرَ الله تعالىٰ لهُمْ في المَلأِ الأعْلىٰ يكفيهِم.

سورة آل عمران

سُورَة آلِ عِمْرَانَ من السور المدنية، أي: التي نَزَلت بعد هجرة النبي ﷺ من مكة إلىٰ المدينة، وقد سُمِّيت بذلك لأن فيها قصةَ آل عمران، وعمران هو والدُ سيدتنا مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، وجَدُّ نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

أخرج ابن جرير الطبري وغيره من أهل التفسير بأسانيدهم، أن وفدًا من نَجْران (موضع بين الحجاز واليمن)، يضمُّ ستين راكبًا فيهم أشرافهم، وفيه أهل الحَلِّ والعَقْد منهم، وفَدوا علىٰ رسول الله ﷺ يُحاجّونه في أمر المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقدموا يريدون أن يثبتوا إلاهيته بالادعاء الباطل، فأنزل الله تعالىٰ نيِّفًا وثمانين آية من أول سورة آل عمران، وذلك ردًّا لباطلهم، وإقامة للحجة عليهم، ولذلك تجدون في غالب هذه السورة آياتٍ تُثبت وحدانية الله وربوبيته التي لا تليق إلا به سبحانه، ولا يُقبل بحال من الأحوال أن يُشرك مع الله فيها.

أفاضت سورة آل عمران بمحاجَّة النصارىٰ وبيان ضلالهم عن الهدىٰ، واستطردت آياتها في ذِكر بيت عمران الطيب، وذِكْر ابنته مريم وابنها عيسىٰ عليهم جميعًا سلام ربي.

وأرشدت السورة إلىٰ عدد من أحكام قتال أعداء الله، وبينت ضرورة اعتصام الأمة بحبل الله، وضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلىٰ الله.

ومن جميل ما فيها، وكل ما فيها جميل، أنها فصَّلت في حقيقة دعوة الأنبياء جميعًا، وذكرت ما يجدونه هم وأصحابهم من أعداء الدين والتوحيد.

وتجدون في السورة أدعية بألفاظ مختلفة ومتنوعة يحيا بها القلب، وتسعد الروح.

وجاءت أحاديثُ متعددة في فضل سورة آل عمران وفضل عدد من آياتها، أختار منها ما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اقْرَؤوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ. اقْرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ (أي: سحابتان)، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ (أي: جماعتان) صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اقْرَؤوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ (أي: أصحاب البطالة والكسالة لطولها ولتعودهم الكسل)».

وما أخرجه أَحْمَدُ والحاكم في المستدرك بإسناد حسنه بعض أهل العلم، عَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «من أَخَذَ السَّبْعَ الأُوَل مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ حَبْر»، أي: من أخذ أول سبعِ سور في القرآن حِفْظًا وفَهْمًا فهو عالم.

وجاء في فضل آيات منها ما أخرجه ابن حبان، عن بلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه جاء نبينا ﷺ يُؤْذنه بالصلاة، فرآه يبكي، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا.

وكان ﷺ يقرأ هذه الآيات من السورة إذا أفاق من نومه لقيام الليل، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بِتُّ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ لَيْلَةً (وهي خالته)، وَالنَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا، لِأَنْظُرَ كَيْفَ صَلَاةُ رَسُولِ الله ﷺ بِاللَّيْلِ، فَتَحَدَّثَ رَسُولُ الله ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، أَوْ بَعْضُهُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَرَأَ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثُمَّ قَامَ فَتَوَضَّأَ وَاسْتَنَّ، ثُمَّ صَلَّى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، ثُمَّ أَذَّنَ بِلَالٌ بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى لِلنَّاسِ الصُّبْحَ».

وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما بإسناد حسَّنه بعض العلماء، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اسْمُ الله الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾

الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ الله معانيَها ودلالاتِها بِعِلْمِهِ، وهذا مرويٌّ عنِ الخلفاءِ الأربعةِ وغيرِهم.

والعُلماءُ على أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَها مَعْنىً، ولكنّا وَقَفْنا حَيْثُ وَقَفْنا، وَقُلْنا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٧]؛ لأنَّه لَمْ يَصِحَّ فيها عن النبيِّ ﷺ شيءٌ.

ومن أهل العلم من قال: إنما ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ بَيَانًا لِإِعْجازِ الْقُرْآنِ، ووجْهُ ذلك أن القرآن تركَّب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطب الناس بها، وقد أنزله الله تعالىٰ علىٰ أهل العربية والفصاحة والبلاغة، وتحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سُوَر أو بسورة واحدة، ولكنهم عجزوا عن ذلك ولا زالوا عاجزين، فكان في ذكر هذه الحروف في أوائل السورة إشارةً إلىٰ عظمةِ كلامِ الله وإعجازِهِ، وأنَّه ليس من كلامِ البَشَرِ، وكأنها تقول: هذه نفس حروفكم أيها العرب فلماذا تعجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة منه؟!

وَلِهَذَا نجدُ السُّور التي افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ المُقطَّعةِ قَدْ جَاءَ فيها الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ، وَهُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً.

ومن أمثلة مجيء الانتصار للقرآن بعد الحروف المقطعة قولُ الله تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ١-٢]، وقولُ الله هنا في السورة: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١-٣]، وقولُ الله: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١-٢]، وقولُ الله: ﴿الٓرٰ ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إِبْرَاهِيم: ١]، وقولُه سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١-٣]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ مِن حِكمتِها بيانُ وقوعِ التحدي بها.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ ﴾

يخبر الله تعالىٰ في الآية بأنه الفرد الأحد، وأنه الإله الحق، وأنه لا تصح العبادة ولا تقبل إلا إذا كانت له، وأن أهل الضلالة والكفر هم الذين عبدوا غيره من وثن أو صنم أو شمس أو قمر أو إنسي أو مَلَك، أو نسبوا له الولد أو جعلوه ثلاثة.

وهو حَيٌّ لا يَمُوتُ أَبَدًا، ولا ينقطع ولا يفنىٰ ولا يبيد، عليمٌ قديرٌ سميعٌ بصيرٌ، بخلاف غيره من المعبودات التي تفنىٰ أو تموت.

وهو سبحانه قيوم، أي: قائم بنفسه مستغن عن غيره، وقائم علىٰ ملكوته يَحْفظه ويُدبِّر أمره ويُصَرِّفُه ويُسيّره فيما تقتضيه حكمته، وهو قائم علىٰ كل الخلائق، فإنهم لا يقومون إلا به، والجميع مفتقر إليه.

والمقصود: أين تلك الآلهة التي تعلقت بها القلوب ولجأت إليها، أين هي من صفة الحياة والقيام علىٰ تدبير أمر الخلائق ؟! يعني: كيف يكونُ مدبرُ الأمور جمادًا كالأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تقدر ولا تعلم، وكيف يُعبد البشر والجن من دون الله، وقد علم القاصي والداني صفات النقص التي قامت فيهما، وكيف يُعبد شيءٌ من مخلوقاته وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ ﴾

يحمل هذا الخطاب الرباني تثبيتًا لقلب نبينا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولجميع أمته، تثبيتًا يقوم علىٰ أنّ القرآن حق وصدق، وأنه نزل من عند الحي القيوم لا من عند غيره كما زعم أهل الكفر من اليهود والنصارىٰ وغيرهم، وأن جميع ما فيه من عقائدَ وأحكامٍ وأخلاقٍ حقٌّ من عند الله أمر بها.

ومعلوم لديكم أن أهل الكفر وصفوا كلام ربنا بأنه من كلام الشياطين، ووصفوه مرة أخرىٰ بأنه من كلام الكهان، وقالوا: إنما يعلمه بشر، ولكن أهل الإيمان يوقنون بأنه نزل من عند الله يقينًا بلا شك ولا ريب. قال الله تعالىٰ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

تذكرُ الآية خبرَ كتابِ ربنا الذي اصطفاه لنا واصطفانا له، وتصفه بأوصاف لا يليق بمسلم أن يجهلها، القرآن العظيم كلام ربنا الذي أنزله علىٰ نبيه محمد ﷺ، أنزله بالحق، أي: لا ريب في أنه جاء من عند الله، ولا شك في أنه المنهاج الذي ارتضاه للسائرين إليه، وأنه لا سبيل إلىٰ تحريفه أو تضييعه، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم إن الآية وصفته بأنه مصدق للكتب السماوية من قبله، كالتوراة التي أُنزلت على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والإنجيل الذي أُنزل على عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وغيرهما من الكتب، فإنها جميعًا جاءت بعقيدة واحدة تدعو إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية، وجاءت تدعو للإيمان بالكتب والرسل جميعًا، وجاءت تدعو إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ.

والكتب السماوية السابقة جاءت بأصول الشرائع، فأمرت بالصلاة والصيام والصدقات وغيرها من الطاعات، ونهت عن الفحشاء والمنكرات وسوء الأخلاق، والقرآن جاء بمثل ما جاءت به في ذلك.

والكتب السماوية صَدَّقها القرآن بأنها من عند الله وليست افتراءً عليه، وهو ما أرادته الآية هنا في قول الله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

واعلموا أن القرآن لم يقتصر على تصديق الكتب السماوية السابقة التي اعتراها ما اعتراها من لعب البشر وتحريفهم، ولكنه جاء وصفه من عند ربنا بأنه مهيمن عليها، كما قال الله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

إن وصف القرآن بأنه مهيمن على الكتب السماوية من قبله يدل على أن القرآن أعظم كتاب سماوي أنزله الله تعالى، وكل الكتب السماوية عظيمة، وهذه الهيمنة تمثلت في معالم عدة إليكم شيئًا منها:

١. من مظاهر كونه مهيمنًا على الكتب السماوية السابقة أن القرآن كتاب تكفَّلَ الله بحفظه بنفسه، وجعله آخرَ كتبه، وارتضاه منهاجًا للعالمين جميعًا لا لأمة بعينها.

٢. ومن ذلك أنه أمينٌ على ما في الكتب السابقة له، وشاهد على أنها أنزلت من عند ربنا، وهو حاكم عليها؛ يُثبت الحق الذي جاءت به، ويُبطلُ التحريف الذي نالها من لعب الكهان والرهبان والنساخ، ويُبين ما فيها من تحريف وغلو في العقائد والأخبار.

٣. والقرآن هيمن على الكتب من قبله بما حواه من أنظمة جعلته مُصلحَ الزمان والمكان الأوحد، ففيه من الهداية إلى العقيدة الصحيحة الكثيرُ الكثيرُ، وفيه من أحكام سياسات الأمم ومن معالم نظام الأمة المالي ما فيه، بل فصَّل فيما نحتاجه من أمر معاملاتنا وأحكام بيوتنا تفصيلًا لم نجده في كتاب من قبله، ولن نجدَه.

﴿ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤ ﴾

أنزل الله تعالىٰ التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب السماوية قبل نزول القرآن، أنزلها ليهديَ الناس إلىٰ طريق فلاحهم في الدنيا والآخرة، ولتكون حكمًا بينهم فيما اختلفوا فيه، وذلك قبل بعثة النبي ﷺ.

وأنزل القرآن، الذي جاء وصفه هنا بالفرقان؛ وذلك لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل وأهلِهما، ويبين العقيدة الصحيحة في الخالق وفي نبي الله عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وفي جميع الأنبياء والرسل، وبه يُعرف أهل التقوىٰ من أهل الضلال.

ومن أهل العلم من قال: إن المقصود بالفرقان هنا ليس القرآن وحده، بل كل ما جاء به الوحي في الكتاب والسنة يعطي مفاتيح التفريق والفرقان بين الخير والشر، والحق والباطل، والعدل والظلم، والمعروف والمنكر.

وتأملوا كيف جاءت عبارة ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في حق جميع الكتب السماوية السابقة، وكأن الآية تشير إلىٰ عقيدتنا في القرآن العظيم، والتي تقوم علىٰ أنه كتاب الله الخالدُ الذي جاء به محمد ﷺ للناس جميعًا، وأنه لا كتاب بعده كما أنه لا نبي بعد رسول الله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأن الكتب السماوية السابقة كانت لمن كان من قبل، وكانت لأقوام بعينهم كبني إسرائيل وغيرهم، وقد بطل كونها مصادر للأحكام بنزول القرآن، ولا يكون مسلمًا من كفر بالقرآن وإن آمن بما في الكتب السابقة.

نحن في ديننا: نؤمن بالكتب السماوية جميعًا، ونؤمن أنها نزلت من عند الله، ونؤمن أن شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع التي نزلت قبلها.

ونؤمن كذلك أن أيدي البشر لعبت بالتوراة والإنجيل وغيرت وبدلت، وأن أسانيدها منقطعة وفيها غلط كبير. قال الله تعالىٰ عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال سبحانه في حق النصارىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤]. وإخبار القرآن عن ذلك لا يكون إلا حقًّا وصِدْقًا، فالتحريف والتضييع واقع لامحالة، وتحديده ومعرفته وإظهاره ميدانٌ واسع ما زال أهل العلم يأتون بكل جديد فيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ تتوعد الآية كل من كفر بالكتب السماوية أو بأحدها، وتحذر كل من كفر بآيات الله تعالىٰ في القرآن، وكفر ببراهين عظمته وقدرته وعلمه ووحدانيته، وكفر بعقيدة الإسلام في الإله والأنبياء واليوم الآخر، ثم آمن بالخرافات والأباطيل، وأسرف بأفعال الفسق والفجور، أقول: تخبره الآية أنه إن بقي علىٰ كفره حتىٰ مات كان من أهل النار الذين ينتظرهم عذاب شديد مؤلم.

وهذا الوعيد يشمل اليهود والنصارىٰ الذين كفروا بالقرآن ولم يؤمنوا به وبما جاء فيه، ولم يجعلوه حكمًا في اختلافهم في نبي الله عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ والله سبحانه ذو عزة، وسلطانُه ومُلكه عظيم، ولا يمنعه مانع ممن أراد تعذيبه منهم، ولا يحول بينه وبينهم حائل، وأمره حاصل فيهم، ومشيئته نافذه.

وهو المنتقم من كل من كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكِرَامَ بعد أن أقام حجته عليهم، وبعد أن جاءتهم الآيات واضحة وعرفوها وفقهوها ورأوها؛ هؤلاء سخط الله عليهم فاستحقوا عقوبته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾

أحاط علمه بجميع خلقه، وأحاطت قدرته بالسماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، فهو سبحانه حيٌّ قيوم لا يخفىٰ عليه شيء من ملكه.

صحيح أن الآية جاءت في معرض إثبات ألوهية ربنا جل وعلا وإبطال ألوهية غيره، وجاءت في سياق تحذير أهل الشرك من الكفر به، ولكنها تحمل معانيَ عظيمةً تعني الكثير لأهل الإيمان إذا استحضروا دلالتها وما يريده الله منهم فيها.

أقول: إذا كان العبد مستحضرًا لرقابة الله تعالىٰ، وأنه لا يخفىٰ عليه شيء، فكيف يخاف مكر أعداء الله به، وكيف يطيب له أن يتجرأ علىٰ المعصية ويبقىٰ مصرًّا عليها، وكيف لا يبادر إلىٰ التوبة منها إذا وقع فيها، وكيف يراقب الناس أكثر من رب الناس، وكيف تطيب نفسه وتأنس بمجالسة الفساق والفجار ولصوص الدين والأعراض؟! قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ

مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال سبحانه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال جل وعلا: ﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن: ٤].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦ ﴾

تشير الآية إلى دليل من أدلة عظمة الله تعالى وقدرته التي لا تخفى على أحد، وهو دليل يرى القاصي والداني أثره، ويعيش معه ما دامت الروح تجري في البدن.

تخبر الآية عن صفة من صفات الرب العظيم جل جلاله، وهي صفة التصوير، والتي يدور معناها حول هذا الخلق الذي أنشأه الله تعالى على صور مختلفة ، وأعطى كل شيء فيه صورة خاصة وهيئة يتميز بها، مع كثرة الأشياء وكثرة حاجاتها، فمن ذلك أنه خلق الإنسان في رحم الأم بعد أن لم يكن شيئًا، ثم كتب له وقدَّر تفاصيل خلقه وصورته، من ذكورة وأنوثة، وحُسن وقبح، وطول وقصر، وصحة ومرض، وشقاوة وسعادة، وغنى وفقر، وقيسوا على ذلك سائر مخلوقاته التي صورها، وهذا من تمام قيامه على خلقه لا إله إلا هو. قال الله تعالى: ﴿ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٦]، وقال الله: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [الحشر: ٢٣] وقال سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التغابن:٣].

ولقد كان نبي هذه الأمة عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتفيَّأُ ظلال هذا المعنى ويجعله في دعائه، كما دل على ذلك ما كان يقوله في سجوده فيما أخرجه مسلم عنه ﷺ أنه كان يقول: «اللهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ هل إله غير الله قادر على ذلك ؟! انظروا وتأملوا حال معبوداتكم من دون الله من البشر والحجر، هل تملك من تصوير الأرحام وتقدير مقادير الخلق شيئًا وإن كان صغيرًا؟! فكيف تجعلونها شركاء مع الخالق، وتعبدونها من دون الله وهو العزيز، أي: وهو القوي المنيع الذي ذلَّت له كل المخلوقات، وخضعت له كل الموجودات؟!

وكيف تعبدونها من دون الله وهو الحكيم؟! أي: الذي وضع كل شيء في هذا العالم في موضعه اللائق به، وَدَبَّر له أمره بما فيه صلاح الخليقة على أحسن وجه وأتَمِّ حال، وأقام عليكم الحجة ودعاكم إلى الصراط المستقيم لئلا تضلوا، فلا إله بحق إلا هو.

تتكرر عبارات التوحيد لله وبيان صفة العزة للرب العظيم في أوائل سورة آل عمران، ووجه ذلك أنها تريد تثبيت عقيدتنا القائمة على التوحيد في قلوبنا، وتريد أن تكذب ما قاله وفد نجران في حق نبي الله عيسى يوم زعموا أنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة، وتكذب جميع من ادَّعى مع الله معبودًا، ونَسَب صفات الربوبية أو الألوهية لغيره، تعالى الله عما يقولون عُلوًّا كبيرًا.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

جاءت آيات القرآن الكريم بمعان محكمة، أي: دلالتها على المطلوب بينة وواضحة ومُفصَّلة لا تلتبس على من يقرأها، ولا ينطلي التلاعب بها على من له نيَّةٌ صادقة وذوق سليم في فهم الكلام العربي، كما لا يمكن أن يُفهم منها معنى غيرُ مقبول عند من يعرف أصول التفسير وقواعدَ اللغة وأصولَها واللسانَ العربي.

وهذه الآيات أُحكمت عبارتها، وحُفظت من التأويل، فكانت هي أم الكتاب التي نرجع إليها عند اشتباه النصوص الشرعية غير المحكمة علينا في تفسيرها واستنباط الأحكام منها.

والمتتبع لهذه الآيات المحكمات يجد فيها أصول الاعتقاد والتشريع والآداب والمواعظ، ويجد فيها ما تقوم به حجة الله على عباده وخلقه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومَثَل، وعظة وعِبر، وما يعصم العباد من الزيغ في فهم الشريعة والقرآن والسنة، ويجد فيها ما يتسلح به أولو العلم والدعوة للرد على شبهات أهل الباطل في خصومتهم ومجادلتهم.

ومن أمثلة الآيات المحكمات قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقول الله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقول الله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقول الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وغيرِ ذلك.

أما الآيات الأخرىٰ فهي متشابهات، أي: اشتبه معناها، والتبست دلالتها علىٰ بعض من يقرؤها، لأنها تحتمل أكثر من وجه في التفسير والدلالة، وهذه الآيات يجتهد أهل العلم في رد المتشابه منها إلىٰ المحكم ليزيلوا أيَّ لُبس في الفهم عنها، وقد يتوقف فيها أهل العلم ويكلون أمرها إلىٰ الله كما فعل غير واحد من العلماء مع الحروف المقطعة التي في أوائل السور.

ومن أمثلة المتشابه الذي نرده للمحكم من آيات كتاب الله، ما يستدل به النصارىٰ علىٰ ألوهية المسيح، وعلىٰ اتحاده بالرب، من الآيات التي وصفت عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بِأَنَّهُ رُوحُ الله، وأنّه يحيي الْمَوْتَىٰ، وَأَنَّهُ كَلِمَةُ الله، وببعض صيغ القرآن التي جاءت في محل تعظيم الله، كقوله: خَلَقْنَا وَأَمَرْنَا وَقَضَيْنَا، ونخلق ونحيي ونميت، فظنوا أن المراد من الجمع هنا تعدد الآلهة، وهذا من المتشابه الذي يُرَدُّ إلىٰ المحكم في سورة الإخلاص، وإلىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٥٩]، وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزُّخْرُف: ٥٩].

ولعلكم لو تأملتم حالَ أهل الضلال من الكفار، وحالَ عدد من الفرق الإسلامية الضالة الزائغة عبر التاريخ كالخوارج والقَدَرِيّة والْمُعْتَزِلَة والجَهْمِيَّة، الذين لبّسوا علىٰ الناس دينهم، لوجدتم أنهم ساقوا أدلة من القرآن ليُثبتوا باطلهم وأغراضهم الخبيثة، واستعملوا المتشابه من القرآن لإثبات ما اعتقدوه، ويا ليتهم ردوه إلىٰ المحكم الذي يعطيهم القول الفصل، فإن ألفاظ القرآن وتراكيبه قد تحتمل أكثر من معنىٰ إلا أن مراد الله تعالىٰ لا يكون إلا حقًّا، وهدايته لهم لا تكون إلا إلىٰ الخير والفلاح، والواجب هو بذل الوسع والطاقة في فهم مراد الله علىٰ وجهه، لمن ملك أدوات الفهم والعلم والتخصص، ولمن تجرَّد في نيته، كما كان حال أصحاب النبي ﷺ والتابعون لهم بإحسان.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

اعلموا يرحمكم الله أن وجود الآيات المتشابهات في القرآن له حكم متعددة، منها:

١- أنْ يَميز الله الخبيث من الطيب، ويعلمَ أصحاب القلوب السليمة من السقيمة، فالقرآن لم تأت كل آياته محكمة، بل جاء فيه عدد من الآيات المتشابهة وإن كانت قليلة، فكان وجودها حاملًا للابتلاء القائم علىٰ وجوب ردها للمحكم دون ليٍّ لعنق النصوص، ودون اتباعٍ للهوىٰ في تأويلها، ودون الحرص علىٰ مرضاة الأسياد وعِلْية القوم في فهمها.

٢- إن وجود المتشابه في القرآن سبب عظيم من أسباب الثروة العلمية الطافحة في كتب التراث وكلام أهل العلم والاجتهاد فيها، فهذا النوع من العبارات يفتح أمام أهل العلم وطلبته طرائق إعمال العقول، واتِّقاد القرائح ، واستفراغ الوسع في فهم مراد الله علىٰ الوجه المرضي.

٣- ولا تنسوا أن وجود المتشابه مظهر من مظاهر اختبار إيمان العباد بأمور الغيب، فإن تمام العبودية لا يكون إلا بأن يسلم العبد الأمر إلى خالقه إذا عجز عن فهم المعنى والمقصود، كما حصل مع سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة تقبيل الحجر الأسود يوم جَاءَه فَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»، كما أخرج البخاري في صحيحه.

٤- ومن فوائد وجود المتشابه إدراك قصور فهم الإنسان مهما بلغ من العلم الدنيوي والدراية في شؤون الحياة، وهذا ما يدفعه إلى دوام الطلب والتحصيل، وصدق الاستعانة بذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، والانكسار بين يديه.

تبين الآية هنا أن وجود المتشابه في القرآن يفرح به من في قلبه زيغ، أي: ضلال عن الحق وانحراف عنه وميل بسبب شبهة أو شهوة أو فتنة، فأهل الزيغ يتّبعون مثل هذه الآيات ويحرصون عليها، قاصدين صرفها عن معناها لمقاصد أرادوها، ولأنهم كانوا حريصين على تحريفها لتخدم أغراضهم الخبيثة، وأهواءهم الفاسدة.

وهذا بخلاف الآيات المحكمات التي لا تخدم أغراضهم، ولا يتمكنون من بث سمومهم وخبث نفوسهم وأمراضهم عن طريقها، ولذلك وصفت الآيات الكريمات أنهم يتربصون بالمتشابه ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: لإضلال أتباعهم والتلبيس عليهم، وإيهامهم بالباطل وإيقاعهم في الشك، وترويج بدَعهم وضلالاتهم على الآخرين عن طريق الاستدلال عليها بالقرآن.

ويسعون فيما يسعون فيه ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أَيْ: تَحْرِيفِهِ وتفسيره بحسب أهوائهم وشهواتهم وكما يُرِيدُونَ، لا على مراد الله سبحانه من آياته.

أخرج البخاري ومسلم في التحذير من أهل تحريف آيات القرآن وصرفها عن مراد الله، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: تَلاَ رَسُولُ الله ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى الله فَاحْذَرُوهُمْ».

وأخرج أحمد عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ الله ﷺ

جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً (أي: ناحية)، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا (يعني: تجادلوا)، حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مُغْضَبًا، قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمِ، بِهَذَا أُهْلِكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ».

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ الله الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اقْرَؤُا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ فَقُومُوا».

ولقد رأينا في زماننا من يتصدر لتفسير الكتاب العظيم دون أن يضبط قواعده في التفسير، ودون أن يكون من أهل الاختصاص والعلم، ودون أن يرجع إلى أمهات الكتب والمراجع التي اتفقت عليها كلمة المسلمين، ونراه يرفع في ذلك شعارات يزعم فيها أنه يجدد للأمة دينها، وينقذها من ضلالات السلف والعلماء الربانيين، مُدَّعيًا أنه يطلق العنان للعقل ليفهم القرآن كما يشاء.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾

أكثر أهل العلم قديمًا وحديثًا على أن معنى التأويل هنا هو معرفة حقائق الأمور والأشياء وكنهها، وما تؤول إليه، مثلُ ما أخبر عنه القرآن من أهوال يوم القيامة وحقيقة أحوال الناس فيها، ومثلُ كيفية صفات الله تعالى التي أخبرنا عنها، وغير ذلك، وهذا المعنى هو المراد هنا، وذلك كقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: هل ينتظرون إلا مجيء يوم القيامة ليروا ما فيه من أهوال مما وُعدوا به، ومما كفروا به لمجرد أن الله تعالى حجبه عنهم في عالم الغيب وطالبهم بالإيمان به.

ومن الآيات التي جاءت في هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٠]، أي: هذا ما آلت إليه رؤياي وهذه حقيقتها.

وإذا كان معنى التأويل هو ما ذكره جمهور أهل العلم، فإن الوقف في قراءة الآية يكون على كلمة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فإن حقائق الأشياء وما تؤول إليه لا يعلمه إلا الله، والمتشابه لا يعلم المراد منه إلا الله.

أما الراسخون في العلم، وهم الذين أتقنوا علمهم ووعَوه وتمكنوا منه، وهم المدركون لمراد الوحي بمجمله ودقائقه، وهم الثابتون علىٰ فهمهم وعلمهم فلا تضرهم شُبهة ولا يدخل قلوبهم شكٌّ، أقول: فهؤلاء لا يعلمون تأويله، أي: لا يعلمون كيف استوىٰ الرحمن علىٰ العرش وإن كانوا يفقهون معنىٰ الاستواء وتفسيره، ولا يعلمون كيف تكور الشمس ويخسف القمر يوم القيامة وإن كان معنىٰ ذلك واضحًا لديهم، فهؤلاء الراسخون في العلم يردون المتشابه منه إلىٰ المحكم ويؤمنون بما جاء فيهما، ويقولون: كل من عند الله، أي: آمنا بكل ما أخبرنا به الله وإن لم نعلم حقيقته.

وبطريقة أخرىٰ: إذا وقفنا علىٰ لفظ الجلالة (الله) في الآية، كانت الواو التي بعدها واوًا استئنافية، يعني: جاءت بمعنىٰ جديد غير معطوف علىٰ ما قبله، وتكون لفظة (الراسخون) مبتدأ خبره الجملة الفعلية: «يقولون آمنا به»، وينبني علىٰ هذا أنّ الراسخين من العلماء لا يعلمون تأويل هذه الآيات كغيرهم من الناس، كما هو الحال في الحروف المقطعة في أوائل السور. قال ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: فَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ فِي فَهْمِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لُغَاتِهَا، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ».

وتأملوا وفقًا لهذا المعنىٰ كيف أن الراسخين من أهل العلم يؤمنون بالقرآن كله محكمه ومتشابهه، ويقولون هو مُنَزَّلٌ مِنْ وَحْيِ الله تَعَالَىٰ وَكَلَامِهِ وإن لم يفهموا تأويل المتشابه منه ويعلموه، ليحققوا معنىٰ العبودية الحقة علىٰ أتم وجوهها.

ومن أهل العلم من السلف والخلف من ذهب إلىٰ أن التأويل في الآية معناه التفسير والبيان، والتعبير عن الشيء، كقول الله تعالىٰ: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: ما هو تفسير الرؤيا ؟ وعلىٰ هذا المعنىٰ للتأويل يكون الراسخون من العلماء عالمين بتفسير آيات كتاب الله كلِّها وفاهمين لها، ولا يخفىٰ عليهم شيء من معناها ومدلولها، ويفقهون كل ما في القرآن مؤمنين به وبِرَدِّ متشابهه إلىٰ محكمه.

وعلىٰ هذا المعنىٰ: لا نقف علىٰ لفظ الجلالة (الله)، ولكن نكمل الآية، ونعطف كلمة (الراسخون) علىٰ لفظ الجلالة (الله)، وتكون الجملة الفعلية (يقولون آمنا به) حالًا منهم، ويكون المعنىٰ مختلفًا عن القول الأول، أي: يعلم تفسير آيات الله جميعًا الراسخون في العلم كما علمهم الله، يعلمونها وحالهم أنهم يؤمنون بأنها من عند الله الملك العظيم.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ القرآن كله من عند الله، لا تضاد فيه ولا اختلاف، ولا يتدبر معاني آياته، ويفهمها على وجهها الصحيح الذي أراده الله منها إلا أهل العقول الصحيحة السليمة من الآفات والعيوب. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النِّساء: ٨٢].

ولقائل أن يقول: كيف نوفق بين هذه الآية التي تثبت أن آيات القرآن منها المحكم ومنها المتشابه، وبين الآيات التي دلت على أن جميع آيات القرآن محكمة، وهناك آيات دلت على أنه متشابه، فكيف نوفق بين هذه الآيات؟

والجواب أن معنى لفظة الإحكام والتشابه مختلفة بين الآيات، ويُفهم ذلك من سياقها؛ فالآيات التي دلت على أن القرآن كلَّه محكم، كقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وقول الله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يُونُس: ١]، مقصودها أن القرآن أُحكم في بلاغته، وضُبطت عباراته وأُتقنت، ونُظمت نظمًا مُحكمًا رصينًا فلا تجد فيها خللًا.

وأما أنه متشابه، كما في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣]، فالمقصود أنه متشابه فِي الْحُسْنِ وَالْبَلَاغَةِ، فاختلفت معاني الألفاظ بحسب سياقها وموضعها.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾

يقبل الراسخون في العلم على خالقهم، ويدعون ربهم أن يلطف بهم ويوفقَهم ويهديَهم، ويسألونه ثبات قلوبهم على الهدى وطريق الاستقامة والدين القويم، وألا يُزيغَها كما أزاغ غيرها، وألا يصرفَها عما أكرمها به من العلم والهداية والتقوى.

يقولون: يا رب، لا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، يتبعون متشابه القرآن لما تحمله قلوبهم من أمراض لا تخفى.

ولا يطيب لنا مع هذا الدعاء إلا أن نعيش مع جمال كلماته وما تحمله من معانٍ، ولا يسعنا إلا أن نحفظه ونلزمه، ونتشبه بورثة الأنبياء من العلماء وطلبة العلم فيه، وتأملوا كيف يحمل هذا الدعاء استحضارًا لنعمة الهداية التي لا مِنَّة لأحد منا فيها، بل المنة فيها لله أولًا وآخرًا.

ثم استحضروا ضعفنا وقلة حيلتنا وسرعة تقلبنا إذا هجمت البلايا، وكيف أن الثبات على الهداية لا يكون إلا بفضل الله وكرمه وعونه، بعد صدق الاستعانة به، وبعد الأخذ بأسباب الهداية من صدق الدعاء، والمسابقة في العلم، واليقين الذي ملأ القلب والجوارح.

إن الثبات على طاعة الله من أعظم النعم التي يظفر بها العبد في الدنيا، فإن أسباب السقوط كثيرة وقريبة ومتلونة ومتجددة، ولا حافظ في فتن الشهوات والشبهات إلا الله، وهذا ما يفسر لنا إلحاح النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الله بسؤال الثبات، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ».

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ ومن الدعاء الذي يطير القلب معه أنسًا كما طارت به قلوب الراسخين من أهل العلم، أن نسأل الله تعالى أن يشملنا برحمته، وأن يهبها لنا فضْلًا منه وكرمًا لا استحقاقًا وإلزامًا، مستحضرين عظمته بأنه وهاب للعطايا التي إذا أعطاها سبحانه للعبد لم يمنعها أحد.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَمَّا قَضَى الله الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»، وأخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ الله تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ما أحوجنا في سيرنا إلى الله إلى رحمته، وما أحوجنا إلى التعلق بها كلما غلبتنا أنفسنا وعصينا، وما أحوجنا إلى استحضار فضل الله علينا أن شرح صدورنا لكلمة التوحيد وجعلنا من أهلها وحملتها، وما أعظمها من نعمة أكرم الله بها من مات على التوحيد بأنه لن يخلد في النار كما أنه من مات على الكفر لن يدخل الجنة.

وإتمامًا للفائدة في هذا التوجيه، أقول: نفزع إلى رحمة الله إذا اشتبه علينا أمر، ونفر إليها إذا أذنبنا.

وكذلك: لا نتجرأ على الذنوب، ونحرص على أن نجعل بيننا وبين الشهوات والمعاصي سدًّا وحاجزًا، ولا نطمئن إلى ما يُسخط الرب علينا، فإذا ضعفنا أمام لذةٍ بالحرام أقبلنا على أرحم الراحمين لعله يتوب علينا ويسترنا. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ الله مِنَ الْعُقُوبَةِ، مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ الله مِنَ الرَّحْمَةِ، مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ».

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾

ويقولون في دعائهم ما يدلل على رسوخ الإيمان في قلوبهم، وتعظيمهم لخالقهم ورازقهم، وتصديقهم بجميع ما جاء من عنده، ودوام تَذَكرهم لأعظم يوم يحتاجون فيه رحمة الله لهم ومغفرته لذنوبهم، يَقُولُونَ: إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وستَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ، وستكرمنا بالثواب الحسن والجنة كما وعدتنا، إنك لا تخلف وعدك سبحانك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾

يتقلب كثير من أهل الكفر والشرك في نعيم الدنيا، ويستدرجهم ربهم من حيث لا يعلمون، فيعطيهم من نعمةِ المال والولد والصحة والقوة ما يعطيهم، حتى يُخيَّلَ إليهم أنّ وجود هذه النعم يغنيهم عن الله وعبادته وعونه، وأنها لن تكون لهم في الدنيا فقط، ولكنها ستبقى نافعة لهم في آخرتهم فتنجيهم من سخط الله وعذابه وعقابه، وهذا عند من يُصَدِّقُ منهم بالآخرة، أو قد يزعم ذلك استهزاءً. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾ [مريم: ٧٧]، يعني: في الآخرة كما أوتيتُه في الدنيا.

جاءت الآية هنا تنفي انتفاعهم بأموالهم وأولادهم عند الله تعالى، وتخبرُ أنه لا يلزم من إعطائهم هذه النّعم في الدنيا أنّ الله تعالى راضٍ عنهم، وأنه سيجعلها شافعةً ونافعةً لهم يوم الحساب. قال الله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال ربنا: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧].

بل إن هذه النعم التي آتاها الله كثيرًا منهم لا تعدو أن تكون طيبات عُجّلت لهم في الدنيا، ثم يكونون هم وقودَ النار وحطبَها الذي تُوقد به كما في ختام الآية؛ فإنهم كفروا بالله وآياته وكذّبوا رسله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

واعلموا أن بأس الله إذا جاء في الدنيا فلن ينفع المرء ماله ولا ولده، مع أنه قد يتقي المكروه عن نفسه بماله، أو بقوته وقوة أبنائه وعشيرته، ولكن أمر الله أقوى وأعظم وأشد.

ومثل هذه الآيات تنفعُنا نحن أهلَ التوحيد، وترشدُنا بألا نغترَّ بظاهر ما أنعم الله به على أهل الكفر، خاصة أنّها نِعمٌ لا تتجاوز الحياة الدنيا. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التَّوْبَة: ٨٥]، وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٦-١٩٧].

وتنفعنا الآيات كذلك في السعي لأن تكون نعم الله علينا من المال والولد والصحة مصروفةً فيما يرضي الله تعالى، وألا يتقوى المرء منا بغير دينه وطاعته، وأن يستحضر على الدوام أن هذه النعم قد تنقلب على صاحبها إذا أصابه الغرور، أو أضاع أمانة الله فيها.

﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١ ﴾

يعلمنا ربنا جل وعلا أن سُنَّته في الأمم التي كفرت بالله وأنعمه لا تتبدل ولا تتغير، فآلُ فرعون طغوا في البلاد وأفسدوا، وكذبوا بآيات الله وأرادوا قتل أنبيائه، وكانوا أولي قوة وعدد، فأغرقهم الله في اليَمِّ بما كسبت أيديهم من معصية الكفر والعناد فلم تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، وتشابَهَ حالُهم مع حال عاد وثمود وقوم لوط وشعيب وقوم نوح من قبلهم، وهم الذين أخذهم الله بالطوفان والريح والصيحة وعذاب يوم الظلة، ونصر رسله والمؤمنين عليهم نصرًا عظيمًا.

ويعلم المخاطَبون ما حَلَّ بفرعون وقومه من عذاب الله في الدنيا، ولعلهم علموه من يهود المدينة، ومنهم من يعلم ما حل بقوم عاد وثمود وقُرَاهم، وهم يعلمون أنهم يشتركون معهم بالتكذيب بالله ورسله وكتبه، ولذلك جاءهم هذا الوعيد في الدنيا ليحذروا ويرجعوا عن طريق الغَيِّ والضلال.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ هؤلاء الذين نصبوا العداء لدين محمد ﷺ، وآذَوه وآذوا أولياء الله، وظنوا أن ما عندهم من مال وولد وعقائد باطلة ينفعهم عند خالقهم، لهم عذاب شديد في الآخرة ما داموا مقيمين على ذلك.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر الله تعالى أهل الكفر بأن الإسلام قادم، وبأن كلمته ستعلو، وأن علوّ الكفر صائر إلى زوال، وأن الأمر ليس بالكثرة ولا بالثروة، وقد حصل كل ذلك لمن كفروا من أهل مكة، ولمن كفروا من أهل المدينة من أهل الكتاب وغيرهم، فزالت سطوتهم، وسقطت كلمتهم.

أخرج أبو داود والبيهقي وغير واحد من أهل التفسير بسند ضعيف، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْشًا يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ جَمَعَ الْيَهُودَ فِي سُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا»، قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَارًا، لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ ﴾.

يَقُولُ الله تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ: سَتُغْلَبُونَ فِي الدُّنْيَا، وستنهزمون أمامنا في القتال وستموتون، وستُبعثون وتُساقون إلى جهنم التي مهدتم الطريق إليها بكفركم وعنادكم وجحودكم بالحق بعد معرفته، وستكون هي مهادكم، وهو الفراش والمضجع والمقام.

تعطينا الآية ثقة عجيبة بالطريق، وتطمئن قلوبنا بأن نصر الله لنا قادم على أعدائنا الذين صالوا وجالوا في بلادنا، وتدفعنا بعد صدق الاستعانة بالله إلى العمل وإعداد ما استطعنا من قوة، والله غالب على أمره.

وهذا يفسر لنا ما جاء عن النبي ﷺ من قراءة هذه الآية في الركعة الثانية من صلاة الوتر، كما أخرج أبو داود عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوتِرُ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَ ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٢]، وَاللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ (أي: سورة الإخلاص)».

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

يضرب الله تعالى مثلًا في كتابه ليعتبر منه أهل الكفر، وهو مَثَلٌ عايشوه وعلموه ورأوه بأم أعينهم، وهو مَثَلٌ يدل دلالة عظيمة على أن العزة لله ولرسوله ولدينه ولأوليائه، وأن الله تعالى مُظهرٌ كلمته، ومُعْلٍ أمره.

التقت فئتان في غزوة بدر، إحداهما كانت تحمل الحق وتفديه بأرواحها وأموالها وأولادها، وهي فئة المسلمين بقيادة سيد الخلق ﷺ، والفئة الأخرى هي فئة المشركين التي هاجمت المدينة لتقضي على الدعوة، وتطفئ نور الهداية الذي كان يُشعُّ إلى البشرية منها، وجاءت بأعداد مضاعفة يقودها الملأ من أهل مكة من أهل الشرك يومئذ، فنصر الله تعالى الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وكانت كلمة الله هي العليا، فهلّا اعتبرتم يا أهل الكفر ؟ وهلّا أسلمتم قبل أن يَحِلَّ بكم بأس الله مرات ومرات ؟

ولا يفوتكم جمال عبارة ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهي عبارة تختصر لنا غاية الجهاد وثمرته، وتدلنا على ما ينبغي أن يُعمِّر قلوبنا في دعوتنا ومدافعتنا لأعداء الله، وكذلك تعطينا مفتاح نصر الله لنا وثباتنا، فهذه سنة من سنن الله التي لا تتغير ولا تتبدل، وهي أنه ينصر من قاتل ودعا وأرشد وصبر لتكون كلمة الله هي العليا. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ أكرم الله المسلمين يوم بدر بعد أن بدأ القتال، وأنزل ملائكة تقاتل معهم، حتى رأى المشركون أن المسلمين أكثرُ منهم في العدد، وأنهم مثليهم، فزادهم ذلك خَوَرًا وخوفًا وضعفًا ورُعبًا، ورجعوا إلى أرضهم أذلاء مقهورين مهزومين.

كان المشركون يعرفون عدد المسلمين قبل بدء القتال، ولكنهم حملوا الباطل ونصروه، فقضى الله فيهم أمره ونصر جنده وحزبه.

ولا يخالف هذا قولَ الله تعالى عن يوم بدر: ﴿وَإِذۡ يُرِيكَهُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾ [الأنفال: ٤٤]؛ فإن الآية التي في سورة الأنفال تتكلم عن تدبير الله تعالى الذي كان قبل بَدْء المعركة، فإن الله تعالى قلَّلَ هَؤُلَاءِ فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ فِي أَعْيُنِ هَؤُلَاءِ، لِيُقْدِمَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ، ويحصلَ القتال، بخلاف ما قدَّره سبحانه بعد بَدء القتال من مضاعفة عدد المسلمين في أعين المشركين كما في الآية هنا.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن المؤمنين هم الذين رأوا جيش المشركين، فوجدوه أكثر منهم عددًا، وأنهم مثليهم، ولكن نصر الله وقع للثلة المؤمنة الصابرة وإن كانت قليلة، وهذا قول كثير منهم.

وعلى هذا القول، فإن أسباب النصر المادية كانت أوفر في حق المشركين، وهذا ما جعل الخوف يتسلل إلى قلب عدد من المسلمين بحكم طبيعتهم البشرية، ولكن الله تعالى هو الذي يُنزل السكينة بعد ذلك، ويمنح الثبات والتأييد والنصر.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ قدّر الله تعالىٰ من أسباب النصر ما قدّر، وهو سبحانه ينصر من يشاء، وله في ذلك الحكمة البالغة والقضاء الحسن.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يعتبر أهل البصيرة والفهم والعقل بما جرىٰ، ويأخذون العِبر النافعة لهم، ولا يملكون أمام هذا الفضل إذا كانوا صادقين إلا أن يقبلوا علىٰ توحيد الله، والعمل لدينه، والبراءة من الشرك وأهله.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾

تذكر الآية أنواعًا من مُتَع الحياة وملاذِّها مما تشتهيه الأنفس وتُحبُّه، وتتكلم عن رغبة الناس فيها وتعلقهم بها واستحسانهم لها، حتىٰ إن كثيرًا منهم يؤثرونها علىٰ آخرتهم، ويسلكون من أجلها طرائق الحرام، ويغفلون عن سبُل الخيرات، بل إن عددًا من أهل الكفر منعتهم الدنيا وحبُّ الرياسة فيها عن الإيمان، فتراهم يخشون علىٰ مناصبهم وأموالهم وجاههم إن هم آمنوا.

جعل الله ما ذكرته الآية من أنواع الزينة مُحبَّبًا إلىٰ نفوس الخلق، وفطرهم علىٰ التفكير فيها والسعي لها ليبتليَهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ثم إن الشرع حذَّرهم من أن تكون هذه المذكورات سببًا لسخط الله إذا لم يراعِ العبد فيها نداء الشرع وتوجيهاته، وأخبرهم أنها قد تكون سببًا للنجاة لمن تتبَّع فيها نداء الشريعة، وجعلها علىٰ النحو الذي يحبه الخالق، واستمتع بها فيما أحله الله.

احذروا يا أهل الإيمان أن تقترفوا الآثام لتحصيل هذه الزينة، واحذروا أن تجعلوها فيما يسخط الرب جل وعلا، ثم احذروا أن تكون سببًا في الغفلة عن الطاعة وطريق الجنة. أخرج البخاري تعليقًا بصيغة الجزم أثرًا عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه كان يقول إذا سمع هذه الآية: «اللَّهُمَّ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ إِلَّا أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَهُ لَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ».

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قدَّمت الآية فتنة النساء لأنها من أشد الفتن وأصعبها، ولا يكاد ينجو منها إلا من رحم الله، كما دلَّ على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»، ولذلك أوجب الإسلام عليهما غض البصر إذا كانت ممن يحل له أن يتزوجها، وأوجب اللباس الشرعي، وحرم الخلوة، وغير ذلك من الأحكام التي تغلق أبواب الرذيلة.

ومعلوم لديكم أن الله تعالى جعل الميل إلى المرأة فطرة في الرجل، وكذلك جعل ميلها إليه فطرة، كما أشار إلى ذلك الحديث الذي أخرجه أحمد بسند حسن، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

ثم إن الله تعالى شرع طريق الزواج لتحقيق تمام الانتفاع بين الرجل والمرأة ورغَّب فيه، وأعطى عقد الزواج والعلاقة بين الزوجين أحكامًا تكفل حياة السكن وحصول المودة والرحمة، ولكم أن تتأملوا في كرامة المرأة الصالحة في حياة المسلمين، والتي عناها ما أخرجه مسلم عَنْ عَبْدِالله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ».

فإن قال قائل: ولماذا زُيِّنَ حبُّ النساء ولم يُزَين حبُّ الرجال ؟ قلنا: لأن الله تعالى جعل المرأة من زينة الدنيا وجمالها، وحبَّب إليها الزينة وجعل نشأتها فيها، كما قال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨]، ثم إن الرجل هو الذي يطلب المرأة ويبذل من أجلها وقته وماله، وهذا على غالب حال الناس.

﴿وَٱلْبَنِينَ ﴾ فطر الله قلوب الأبوين على محبة أولادهم، وأوجب تربيتهم على حب الله والمسارعة في طاعته، وجعلَ الولد الصالح خيرَ ما ينتفع به المرء بعد وفاته.

أرشد الشرع إلى تكثير النسل ليكون الأولاد عونًا لآبائهم، وسببًا من أسباب قوة دين الإسلام والدعوة. أخرج أبو داود وابن حبان بسند حسن، عن مَعْقِلِ بنِ يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «تزوجوا الوَدُودَ الوَلُودَ؛ فإني مكاثِرٌ بِكُمُ الأمم».

ولقائل أن يقول: هل يمكن أن يكون الأولاد حسرة على آبائهم، وسببًا من أسباب شقائهم في الدَّارين؟ والجواب: نعم، قد يكونون حسرة كما يكونون ذُخْرًا وعُدَّة للخير والصلاح، وقد جاء هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤].

وهذه الحسرة تكون بتقصير الآباء في غرس حب العقيدة والطاعة في قلوب الأبناء، وتكون بعدم التفاتهم إلى الغاية من وجود الأبناء وقَصْرها على التفاخر بهم بين الناس، ولذلك ترى كثيرًا منهم يُعدون أبناءهم لدنياهم دون آخرتهم، وتراهم يتركونهم في بحر الشهوات والشبهات دون توجيه أو تعليم أو تذكير.

ثم إن الزوجة والولد قد يكونان سببًا من أسباب الانشغال عن واجبات الشريعة وأوامر منزلها، فقد يترك الجهاد في سبيل الله نزولًا عند رغبتهم، وقد يترك صلة رحمه بسببهم، أو يترك الإنفاق الواجب والمندوب لدوام تثبيطهم عن البذل والعطاء، ويترك الصلاة زعمًا منه أنه يسعى على كفايتهم ولا يجد وقتًا، وهذا من السقوط في الفكر وفي السلوك. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ القناطير هي المال الكثير.

والمقنطرة، أي: المضاعفة والمتكاثرة والمدَّخرة بإحكام وإتقان حرصًا عليها.

تبين الآية أن حبَّ المال الكثير من زينة الدنيا التي جعلها الله تعالى في الخليقة، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ»، فالناس لا تنتهي رغباتهم، ويعلمون تمام العلم أن المال هو السبيل لتحقيق هذه الرغبات، فيغفلون في أوقات ويصبح المال عندهم غاية لا وسيلة، ولقد ذمَّ الله صنفًا من الناس صدهم شدة تعلقهم بالمال عن الخيرات والهدى، كما في قصة أصحاب الجنة في سورة الكهف وفي سورة القلم، وكما في قول الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

تحمل الآية تحذيرًا لأهل الكفر لئلا يغتروا بأموالهم، وتحمل نداء لأهل الإيمان ليجمعوا هذ المال عن طريق ما أباحه الشرع، ثم ينفقوه في وجوه الخير وما لا غنى لهم عنه، وترشدهم إذا كثرت أموالهم ألا تتعلق قلوبهم بها، وألا ينشغلوا بها صباحهم ومساءهم مع إهمال حاجات أنفسهم وأهليهم، وضعف نصرة دينهم.

يا أهل الإيمان، إذا أكرمكم ربكم بالمال الوفير والكثير فلا تستعملوه في الفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والفقراء وأكل حقوقهم، واعلموا أن من علامة طيب شكركم على هذه النعمة أن تبذلوه في خاصة أهليكم، وفي أرحامكم، وفي مشاريع قيام أمتكم ورفعتها، وفي جميع ما أوجبه الله عليكم أو ندبكم إليه.

يا أهل الإيمان، إذا كنتم من الفقراء فاسعوا في مناكب الأرض، وارضوا بما قسمه الله لكم، واجعلوا القناعة شعارًا فإنها الكنز الذي يسعد صاحبه ولا يشقى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥].

﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾ الخيل المسومة هي الخيل السائمة الراعية المُعلّمة التي تمتاز بالحسن.

والأنعام هي الإبل والبقر والغنم. والحرث هو الأرض التي تكون للزراعة.

بقيت نفاسة الخيل والأنعام والحرث في الناس مع أن معالم المَدَنيَّة طغت على حياتهم، ولعل ما استقر في فطر الناس من الميل إليها للهو واللعب، أو للأكل والانتفاع هو الذي أبقاها زينة في فكرهم ومجالسهم. أخرج أحمد والنسائي والحاكم وغيرهم عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤْذَنُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ سَحَرٍ بِدَعْوَتَيْنِ: اللَّهُمَّ خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ وَجَعَلْتَنِي لَهُ، فَاجْعَلْنِي أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ».

انظروا في حال من انتفع منها عن بصيرة، فاتخذها للدر أو النسل أو الإنتاج يبتغي العفاف بذلك، وكذا في حال من ربطها في سبيل الله أو جعلها في أبواب الصدقات، وقارنوه بحال من أَلْهَتْه عن آخرته، ولم يتعدى نفعها بالنسبة إليه إلا في الفخر بها والتكبر على العالمين.

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ كل ما ذكرت الآية هنا هو من متاع الدنيا وزهرتها، ولا ينتفع منها أصحابها إلا في دنياهم، فالعاقل من استحضر أن الدنيا فانية، واغتنم هذه الزينة واستمتع بها على الوجه المَرْضيِّ.

قال الله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾. [الحديد: ٢٠].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ ختام الآية هو لغة الثابتين أمام الفتن والشهوات، فهذا الخطاب يكفي لأن ينتبه الواحد لنفسه، ويسأل الله العون في طريقة تفكيره وعمله، فهو موقن بأن المرجع الحسن، والمقام الكريم، والعاقبة الطيبة تنتظره في جنة عرضها السماوات والأرض ما استقام وكان من المُسدَّدين.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

ينقل النص القرآني قارئه من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ويفتح له آفاقًا في الفهم والعلم ليسعد في الدنيا قبل سعادة الآخرة، ويذكره بمستقبله الحقيقي الذي يبدأ بعد مفارقة الدنيا لا فيها.

قل يا محمد ﷺ للناس وبلِّغهم: اعلموا أن ما عند الله خير وأبقى، وأن نعيمَ الدنيا وزهرتَها وزينتَها إلى زوال، ولا ينتفع العبد منها لآخرته إلا بقَدْر تَقْواه، فالمدار كلُّه على تقوى الله تعالى التي تجعل العبد يسخر نعم الله عليه في طاعته، وتجعله يجتنب الحرام ويواظب على الطاعات، فإنه إن فعل ذلك أكرمه الله تعالى بجنات تجري أنهرٌ مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ وَالْخَمْرِ وَالْمَاءِ من تحت أشجارها ومن جوانبها وأرجائها، وهذه الجنات يخلد فيها أهلها ولا يبغون عنها تحولًا.

ولأهلها كذلك أزواج مطهرة مما تشمئز منه النفوس، ويتقذر منه بنو آدم من الدنس والخبث والأذى وسوء الأخلاق.

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ هذه كرامة من الله لأهل الجنة في الجنة، وهي من أعظم ما يُعطيه لهم، كما قال ربنا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التَّوْبَة: ٧٢]، والمقصود أن الله تعالى يُحلُّ على من أكرمهم بدار الخلد رضوانَه فلا يسخط عليهم بعد ذلك أبدًا.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ والله محيط بأحوال منْ خَلَق وعالم بهم، وهو عَلِيمٌ بِالَّذِينَ اتَّقَوْا واستعملوا نعم الله فيما يرضيه، وعليمٌ بالذين اعتدوا على جناب التوحيد والعبودية، ويُعْطِي كُلًّا بِحَسْبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ والجزاء.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾

تصف الآية جميل دعاء أهل التقوىٰ الذين آتاهم الله سُؤْلهم، وتشير إلىٰ أعظم ما كانوا يتمنونه في دنياهم، وهل ثمة أعظمُ من أن يغفر الله لهم تقصيرهم، ويتجاوزَ عن سيئاتهم بعد أن يسترها، ثم ينجيَهم من عذابه، ويُحرمَ وجوههم علىٰ النار؟!

سألوا ربهم أن يستر الذنوب ويغفرها، وألا يحاسبهم عليها، وأن يزحزحهم عن نار جهنم ويكرمهم بالجنة، ليكونوا من أهل الفوز الذي لا يعقبه خسران أبدًا.

ثم تأملوا كيف أنهم قدّموا بين يدي دعائهم ذكرَ إيمانهم بالله وكتبه ورسله، وكأنّ إقرارَ العبد بعبوديته الخالصة للرب في دعائه، وتعظيمَه علىٰ الوجه اللائق، مظنة استجابة هذا الدعاء.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

يستطرد السياق القرآني في بيان صفات أهل التقوىٰ، وينير للحائرين طريقهم ليهتدوا إلىٰ الجنات، ويبين الأوصاف التي ميّزتهم عن كثير من المسلمين، وجعلت لهم حظًّا وقَدْرًا لا يكون إلا لهم.

ومن تأمل الصفاتِ المذكورةَ في الآية، وجد أنها أصلُ كل الخصال الطيبة، ومردُّ كل الصفات الحميدة، ومفتاح السعادة والطمأنينة، وسبب الفلاح في الدَّارين، فتأملوا:

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ حبسوا أنفسهم عن المعاصي والمحرمات، وانصرفوا عنها وإن كانت مُحبَّبة إليهم، وجاهدوا أنفسهم في طاعة الله حتىٰ اطمأنت بها قلوبهم، وقاموا إلىٰ صلاتهم وجهادهم ودعوتهم باذلين من أجلها الغالي والنفيس.

الصابرون أحسنوا شكر الله علىٰ نعمه، وصرفوها فيما يرضيه عنهم، وراقبوه في أقوالهم وأفعالهم، ولم يتسخطوا علىٰ القدر لمَّا ابتلاهم، ورضوا بالله ربًّا ورازقًا، ومعبودًا وحاكمًا، ومُكْرمًا ومُنْعمًا. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ صدقوا الله تعالىٰ فيما عاهدوه ولم يخلفوا، واستوىٰ ظاهرهم وباطنهم في طاعاتهم، وكانوا مع الله في خلواتهم وجلواتهم، واستقامت قلوبهم وألسنتهم، وامتلأت

قلوبهم بالإيمان الحق بالرب العظيم، واستحضروا على الدوام مشهد الوقوف بين يديه، فكانوا من المخلصين له اعتقادًا وقولًا وعملًا. قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ملك أهل الصدق بصدقهم سِرَّ الثبات في وجه الفتن، ونالوا رضا الله، وفازوا بجنته. قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ القانتون لله العظيم هم الطائعون الخاضعون لأوامره ونواهيه وعظمته وجبروته، المقيمون على عبادته على أحسن حال كما أمرهم.

﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ أي: الباذلين لأموالهم فيما أُمروا به، والواصلين لأرحامهم بالصدقات، والمتفقدين لأهل الحاجات، والقائمين على مواساتهم بعطائهم الدائم.

أهل الإنفاق يمتثلون نداء الله لهم فيما أمرهم به من أداء الزكاة، والنفقة الواجبة، والكفارات والنذور، بدون تراخ أو تقصير، ويسارعون في أبواب الخيرات من الوقف والوصية والهبة، ومن كفالة الأيتام وبناء المساجد ودور العلم والقرآن، مستحضرين ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا».

أطعموا أنفسهم ومن يعولون بالحلال، ثم أقبلوا على بذل أطيب أموالهم، وأنفقوا منها سِرًّا وجهرًا، ولم يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى. أخرج أحمد وأبو يعلى عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ».

﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ قاموا بين يدي خالقهم في وقت ينام فيه أكثر الناس، قاموا مستحضرين الدار الآخرة وما ينتظرهم فيها من أهوال عظام، ومستحضرين ذنوبًا اقترفوها في لحظات ضعف، أنستهم مقام إلههم الذي آمنوا به وأحبوه، فانطلقت ألسنتهم تطلب من الله ألا يفضحهم على رؤوس الخلائق غدًا، وانطلقت تلهج بالاستغفار والتسبيح لعل الله يتوب عليهم.

أقْبَلوا في آخر ليلهم على خالقهم، وكانوا حريصين على وقت تصفو فيه النفوس وتتجرد عن الشواغل، وتتخلص من كدرها وأمراضها، وينزل فيه الرب جل وعلا إلى السماء الدنيا ليعطي أهل الخلوة به مسألتهم، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ له».

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

جاءت شهادة أهل العلم مقرونة بشهادة رب العالمين، وكذا بشهادة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وهم الملائكة، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على تكريم أهل العلم وتعظيم مكانتهم، وبيان قدرهم ومنزلتهم في الدَّارَيْن.

إن شهادة الله تعالى على وحدانيته لا تحتاج إلى غيرها، ولكن الله تعالى ذكر معها شهادة الملائكة وأولي العلم تكريمًا لهم وبيانًا لقدرهم، ولتكون الحجة على من جحد أقوى وأثْبتْ. قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٦٦].

ولعل تخصيص أهل العلم بالشهادة هنا دون غيرهم من الناس، إنما هو لاطلاعهم على أحوال الخلق، ومعرفة عجيب صنع الله تعالى فيه، ولأنهم تعرفوا على خالقهم بأسمائه وصفاته، فضلًا عن رسوخهم في هذه الشريعة التي لا يستطيع من عاش مع نصوصها إلا أن يدرك عظمةَ الرب وعلمَه وقدرتَه وحكمتَه، ويدرك حجم الأمانة التي يحمل.

شهد الله سبحانه وتعالى أنه واحد لا شريك له، والله جل وعلا هو الخالق الرازق العظيم، العالمُ بجميع خلقه، وهو الذي يحكم بين أهل الحق وأهل الباطل، وهو الذي لا يُتصور في شهادته السهو والخطأ، وهو الذي يعلم المُحِقَّ من المُبْطل، والصادق من الكاذب، والرشيد من السفيه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]

وشهد ملائكته وأهل العلم عن علم وخبر لا شك فيه، أنه إلهُ جميع الخلائق، والمتفرد باستحقاق العبودية، وأنه قائم بالقسط، أي: أقام الخلق على العدل، ودبّر أمر هذا الكون، وجعل كل شيء فيه في موضعه اللائق به، فلم يظلم خَلْقَه شيئًا، ولكن أنفسهم يظلمون.

ما أعظمها من شهادة، بدأت من الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي أوجد الخلق وجعل كل صغيرة وكبيرة فيه تدل عليه.

وما أعظم شهادة الملائكة الذين عرفوا ربهم وأطاعوه فيما أمر، ونطقوا بأنواع المحامد والتسابيح تنزيها للرب وتعظيمًا، ونزلوا بالوحي على الرسل، وكانوا أهلًا للأمانة والتبليغ.

وما أعظم شهادة أولي العلم الذين هم ورثة الأنبياء والرسالات، وحملتها للعالم كله، وهم الذين ما زالوا يبلغون عن الله ويدلون الناس عليه، ويستفرغون وسعهم في ذكر الحجج والأدلة على أنه سبحانه هو الحق المبين.

والآية فيها تعريض بكل من أشرك مع الله إلهًا آخر، ونسب إليه الولد والبنت، وكأنَّ جهلهم أحاط بهم، فحال بينهم وبين إخلاص التوحيد.

والآية فيها إثبات لصحة ما جاء به الصادق المصدوق عن رب العالمين، وفيها تقوية له وللدعاة من بعده في دعوتهم، وفيما اصطفاهم ربهم له، وكأنها تقول لهم: ارفعوا رؤوسكم بتوحيدكم للرب العظيم، وامضوا في طريقكم، واعلموا أن الله تعالى حافظكم وناصركم.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تأكيد على شهادة التوحيد التي لا ينفع غيرُها عند الله، وعلى الغاية التي أُرسلت الرسل من أجلها، وعلى الكلمة التي يحبها الصالحون، ويدخرونها ليوم لقاء الله.

وفي هذا التأكيد بيان بأن الخلقَ كلهم، لا يسعهم ولا ينفعهم إلا أن يشهدوا بما شهد به رب العزة والملائكة والعلماء.

هم شهدوا على وحدانية مقترنة بالعزة والحكمة، عِزة قائمة على إنفاذ قَدَره كما يشاء، فلا غالب لأمره ولا راد لقضائه، وحِكْمةٍ لا تخفى على أحد في أقواله وأفعاله سبحانه، وكذا في شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، فلا إله إلا هو العزيز الحكيم.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

يا أيها الناس: لا تطعنوا في الإسلام فهذا دين جميع الأنبياء والرسل من قبل، ولا تحاربوا التوحيد في الأرض فإنه غاية خلق الخلق، وهو طريق الخلاص والنجاة، وهو الدين الذي شهد الله، وشهد ملائكته، وشهد أولو العلم الربانيين على أنه دين الحق والهدى. قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وكان من دعاء سيدنا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

أرسل الله سيدنا موسىٰ وسيدنا عيسىٰ، ومن قبلهم نوح وإبراهيم وغيرُهم عليهم صلوات ربي وسلامه، أرسلهم برسالة الإسلام والتوحيد، فكان دين الأنبياء والرسل جميعًا دينًا واحدًا، وعقيدة واحدة، وإن اختلفت شرائعهم. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ (أي: لضرائر)، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». ومعنىٰ الحديث أنه كما أن أولاد الضرائر أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة، فكذلك دين الأنبياء واحد، وشرائعهم فيها اختلاف.

ويقوم دين الإسلام علىٰ إفراد الله تعالىٰ بالربوبية والعبودية، وعلىٰ الإيمان بجميع الملائكة والكتب والرسل دون تفريق بين ملَك وملَك، أو بين كتاب وكتاب، أو بين رسول ورسول، ثم الإيمان باليوم الآخر وبالقدر، وكل من أنكر شيئًا مما جاء به جميع الأنبياء لم يكن من المسلمين، ولا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

آمن اليهود بموسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبالتوراة ولم يؤمنوا بعيسىٰ ولا بمحمد عليهما الصلاة والسلام، ولا بالإنجيل والقرآن، وآمن النصارىٰ بموسىٰ وعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا بنبينا ﷺ ولا بالقرآن، وأُمَّتُنا آمنت بموسىٰ وعيسىٰ ومحمد وجميع أنبياء الله تعالىٰ ورسله دون تفريق بين أحد منهم، وآمنت بالكتب السماوية التي نزلت من عند الله جميعًا. قال الله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

ولا يفوتني أن أشير إلىٰ دلالة لفظ الإسلام في حياة العبد المقبل علىٰ الله، فالإسلام في حياته يحمل معانيَ الطاعة لله، والإقرارِ بوحدانيته، والانقيادِ له بالطاعة، والمسارعةِ في الاستجابة لأمره ونهيه، وصاحبه لا يتكبر علىٰ شرع الله، ولا يجد في نفسه أيَّ حرج مما قضىٰ الله وشرع، وهو دومًا يرفع رأسه بهذا الإسلام، ويعلم أنه لا عِزَّ له إلا به.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ إخبار من الله تعالى بأن أهل التوراة والإنجيل اختلفوا في أصول دينهم، وبدلوا وغيروا، وكتموا آيات بعثة محمد ﷺ، وحملوا ما بقي منها على غير ما دلت عليه، بل أجمعوا على عداء هذه الأمة المصطفاة.

واختلافهم لم يقتصر على أصول دينهم فيما بينهم، ولا على مخالفة ما عند المسلمين، بل كفرت كل طائفة من أهل الكتاب بما عند الأخرى، كما قال ربنا: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ [البقرة: ١١٣].

ومن عجائب اختلافهم أنه حصل من بعد ما نزل عليهم الوحي بعلم التوراة والإنجيل، وأقيمت عليهم الحجة الظاهرة بإنزال الكتب وإرسال الرسل، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤]، فعلموا الحق ثم خالفوه واختلفوا فيه وحرفوه، وأعطاهم الله تعالى الكتاب ليرفعوا به الخلاف فاختلفوا فيه.

ومع أنهم أهل دين واحد، إلا أنهم اعتدَوْا وتجاوزوا، وتحاسدوا وتباغضوا، وطلبوا الرئاسة والسيادة ظلمًا وعدوانًا، وكل فرقة منهم تريد السلطة الدينية والدنيوية دون غيرها، وهذا هو عين البغي المذكور في الآية، وقد حملهم بغيهم هذا على كثرة الخلاف بينهم، وعدم تقبل الحق من قائله أيًّا كان.

انظروا إلى النصارى كيف تشعبت طوائفهم في عدد من أصول دينهم، وكيف اختلفوا في حقيقة المسيح اختلافًا كبيرًا، واختلفوا فيما هو معتمد من أناجيلهم وفيما هو مردود، واختلفوا في غير ذلك مع أن العلم جاءهم من قبلُ على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاءهم على لسان عدد من تلامذته الذين أنكروا ألوهيته وصلبه، ولكنهم اختاروا طريق الفرقة والاختلاف، والحرص على الرياسة والقيادة، وتناولوا بعضهم بالقتل والتكفير، وقامت حروب عظمى بينهم.

وكأن الآية تنادينا وتوجهنا: احذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم، واحذروا أن تختلفوا في أصول شريعتكم، وفيما جاءكم من علم في الكتاب والسنة، ولا تنافسوا الدنيا فتهلكَكم وتُذْهبَ ريحَكم، بل اثبتوا على الحق، واقبلوه وارضَوْا به، واصبروا على ما تلقون حتى يأذن الله بالفرج. أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أنبيائهم».

ولقائل أن يقول: خالفت أمتنا أمر ربها، وغرِقت في خلافات بينها، وشابهت اليهود والنصارىٰ وغيرهم، فهل عرَّضوا أنفسهم للكفر والخروج من الملة بذلك؟

والجواب أن الاختلاف في هذه الأمة لم يذهب إلىٰ أصولها وأصول عقيدتها علىٰ الغالب، وأن الحالات التي وُجدت من هذا النوع كان أئمة الإسلام يردونها علىٰ صاحبها، ويطلبون من إمام المسلمين إقامة حد الله فيه وعليه، بخلاف خلاف الأمة في فرعيات هذه الشريعة فإنه موجود وموفور، وهو خلاف له وجهه العلمي علىٰ الغالب، وله مساحة من القبول ما دام أصحابه يجيدون إدارته والتعامل معه.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يدل ختام الآية علىٰ أنهم كفروا ببغيهم هذا، وأن العلم لم يشفع لهم لما خالفوه بعد أن علموه.

وهذا يحمل تهديدًا ووعيدًا لمن كفر بمحمد ﷺ وما أنزل عليه، وهو يعلم تمام العلم أنه نبي من عند الله.

يتوعدهم الخطاب الرباني ليؤمنوا، وليرجعوا عن غيِّهم وضلالهم، ويُذكرهم بأنهم سيقفون بين يدي سريع الحساب، أي: من لا يُعجزه إحصاءُ أعمالهم عليهم ولا عدُّها، ولا يشغله شيء عن شيء، سبحانه.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

جاء أهل الكتاب إلىٰ نبينا ﷺ يخاصمونه مخاصمة كِبْرٍ وعناد، ويجادلونه في التوحيد وينكرون عليه، ويسعون إلىٰ غلبة حجتهم وظهورها، وذلك بعد أن أساؤوا الفهم والتلقي، ولم يتجردوا للحق والهدىٰ ولم يحرصوا عليه.

يا محمد ﷺ: إذا جاءك أهل الشرك والكفر يجادلونك وحالهم كذلك، فاثبت علىٰ ما أنت عليه، واصدع بدعوتك، وأخبرهم أنك مستسلم لأمر الله ووحيه، وأنك مخلص في توحيدك وعبادتك، أنت ومن اتبعك من المؤمنين، كما قال ربنا: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يُوسُفَ: ١٠٨]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

تأملوا كيف تعطينا الآية قوة في الدعوة إلى الله تعالى كما أعطتنا الآيات من قبلها، وكيف تعطينا ثقة بالطريق، ووضوحًا في المنهج، وعزْمًا ويقينًا، وهو ما نحتاجه على الدوام مع صعوبة المرحلة وكثرة المعوقات والتحديات.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ وقل لليهود والنصارى، وللأميين العرب الذين لا يقرؤون ولا يكتبون من عباد الأصنام وغيرها ممن لم ينزل عليهم كتاب من السماء، قل لهم: ادخلوا في الإسلام، واتبعوا هذا الدين ولا تبقوا على كفركم.

﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ فإن أسلموا واتبعوك كانوا ممن اهتدى إلى الصراط المستقيم، وممن أصاب طريق الحق، وسلك سبيل الرُّشد، وأفلح فلاحًا ليس بعده خسران.

﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ وإن عادَوك، وصدوا عن دين الله، وتولَّوا عنه فإن مرجعهم إلى الله، وحسابهم عليه.

أمّا أنت، فقد أدّيت ما كُلفت به من الدعوة والبيان، ولم يكن ضلالهم لتقصير منك، وليس عليك من إعراضهم شيء.

وهذه الآية صريحة في عموم رسالة محمد ﷺ لكل الناس، وصريحة في وجوب أن يقوم الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان بتبليغ الدين للأمم، وبالسعي لهدايتهم إلى طريق الرشاد، وبإنقاذهم من مهالك الشرك والكفر والضلال. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: -وذكر منها-: وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى الناس عامة».

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ الله سبحانه له الحكمة البالغة في هداية من شاء، وهو عليم بمن يستحق الضلال، وهو سبحانه مُطّلع عليك وعليهم، ويعلم من أطاعك منهم بالإسلام ومن تولى وأعرض، ويعلم أنك بلغت رسالته على الوجه المرضي.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ ﴾

تصف الآية حالَ أهل الكتاب من اليهود مع أنبيائهم، وحالَ غيرهم من الأقوام الذين قتلوا أنبياءهم، وتشير كذلك إلىٰ حال الصادِّين عن دين التوحيد في كل زمان ومكان، مِمَّن يمكر بالدين وحملته، ويحول بينهم وبين الناس بما أوتي من قوة.

هؤلاء يكفرون بآيات الله تعالىٰ ودلائل ألوهيته، ويجحدون معجزات أنبيائهم وما جاؤوا به من عند خالقهم، وينكرون الغاية العظمىٰ التي أرسل الله من أجلها الرسل، وأنزل الكتب، وقامت السماوات والأرض.

ومما يدل علىٰ أن تكذيبهم هذا تكذيبُ جحود واستكبار، أنهم لم يكتفوا به، بل عمد أسلافهم وأجدادهم إلىٰ قتل أنبياء الله تعالىٰ حين قاموا بدعوتهم وإرشادهم، فقتلوا أنبياء الله زكريا ويحيىٰ عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ وغيرَهما، وهمُّوا بقتل نوح وإبراهيم وموسىٰ عليهم الصلاة والسلام، وهمُّوا بقتل عيسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وزعموا أنهم فعلوا، وكذلك قتلوا كثيرًا من الدعاة إلىٰ الخير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

لم يكن قتلهم عن جُرْم منهم أو اعتداء، ولكنهم دعاة يقُضُّون مضاجع أهل الكفر والظلم في دعوتهم إلىٰ دين الحق، وفيما يسعون إليه من تحكيم شريعة العدل والنور والهدىٰ، والتي تخالف أهواء عدوهم ومصالحَهم.

ثم جاء مَن بَعْدهم في عصر النبوة من اليهود وغيرهم، وهمّوا بقتل نبينا ﷺ أكثر من مرة، وتآمروا علىٰ قتل أصحابه وقتلوا بعضهم، وما زالت قلوبهم وأفعالهم تتشابه إلىٰ أيامنا التي نعيش.

طريق الجنة ليس مفروشًا بالورود، ولكنه طريق تكثر فيه المنغصات والمعوقات وتصْعُب، وتحتال الدنيا عليك فيه كما تحتال النفس، ويحتال الشيطان والهوىٰ، وكما يقف لك بالمرصاد دعاة الشَّرِّ وحملته، والسعيد من جمع بين العلم والعمل، واستعان برفقة الخير ومضىٰ.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استكبروا علىٰ الخلق والخالق، وصالوا وجالوا في إفسادهم، فجازاهم ربهم بعذاب مؤلم موجع فيه الذِّلة والصَّغَار.

يا أهل الدعوة: بشّروا كل من فعل ذلك من الطغاة في كل زمان، بشروهم بالعذاب الأليم المهين.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

كفروا بالله العظيم وآذوا أولياءه وماتوا على ذلك، فأحبط الله أعمالهم ولم ينتفعوا منها بشيء، ولم يرفع الله لهم ذِكْرًا، ولم ينالوا محمدةً ولا ثناء من الناس لأنهم أهل باطل وضلال، وكانوا من أهل النار الذين لا ناصر لهم ولا مُنقذَ ولا شافعَ ولا معين.

أما أعمال الخير التي قدموها في الدنيا، وأرادوا ثمرتها، وظنوها نافعة لهم، فلا ينتفعون منها في الآخرة، بل يجعلها الله هباءً منثورًا، ويُبْطلها ويَحْكم عليها بالفساد. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٠]، وقال سبحانه: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يستطرد السياق القرآني في بيان فضائح اليهود والنصارى وشدة ضلالهم، وذمِّهم والإنكار عليهم، وذِكرِ مخالفتهم وعنادهم، والآية هنا في خصوص اليهود كما ذكر ذلك جمع من أهل العلم والتفسير.

زعم اليهود أنهم متمسكون بما أَنزل الله عليهم في التوراة، وأنهم يقفون مع أوامر الله ونواهيه ولا يعتدون أو يخالفون، ولكن زعمهم هذا غير صحيح، فقد بينت الآيات السابقة كيف أنهم كفروا بآيات الله، وكيف قتلت طوائف منهم الأنبياء والدعاة.

جاءت الآية هنا تذكر أنهم إذا دُعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله، أي: إلى ما جاء في كتبهم التي يؤمنون بها من البُشرى بمبعث محمد ﷺ، وما جاء فيها من دعوتهم إلى طاعته والدخول في دينه والإيمان بالقرآن، إذا هم يُعرضون عن ذلك، ويتولون عن السمع والطاعة، والمقصود: كيف يؤمنون بالقرآن ويدخلون في الدين وهم يُعرضون عما في كتبهم وإن زعموا ما زعموا ؟!

أخرج البخاري عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْيَهُودَ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَيَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟» فَقَالُوا: نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ، قَالَ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ: كَذَبْتُمْ إِنَّ فِيهَا الرَّجْمَ، فَأَتَوْا بِالتَّوْرَاةِ فَنَشَرُوهَا، فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ سَلَامٍ: ارْفَعْ يَدَكَ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، قَالُوا: صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ الله ﷺ فَرُجِمَا، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يَحْنِي عَلَى الْمَرْأَةِ، يَقِيهَا الحجارة.

هؤلاء: ينتقون من العبودية ما يحبون ويشتهون، ويتركون ما تتثاقل عنه نفوسهم، وتأباه أهواؤهم وأمزجتهم.

والفريق الذي يتولى منهم هم سادتهم ورهبانهم وأحبارهم، الذين منعهم كبرياؤهم وحرصُهم على مكانتهم من الإيمان والاتباع، مع تمام علمهم بأن محمدًا ﷺ وما جاء به حقٌّ من عند ربهم، فكانوا ضالين مُضلين لأقوامهم الذين يقلدونهم ولا يُعملون عقولهم على الغالب.

تعالوا نستحضر واجبنا تُجاه كتاب ربنا وهدي نبينا ﷺ ونحن نعيش مع الآية هنا، فالمسلمون يحبون كتاب ربهم ويعتنون به كتابة ونشرًا، ويتسابقون في خدمة تعليم تلاوته وعلومه، ويبقى دوام تذكيرهم بواجب إقامة حدوده وتحكيمه في العالمين، وواجب فهم مراد الله منه، وواجب نشر السنة ونشر علومها وأوامرها ونواهيها، فالامتثال هو ثمرة الإيمان، وهو الفرقان بين أهل الحق وأهل الباطل، فتأملوا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

تأملوا معي عقيدة أهل الكتاب وطريقة تفكيرهم، وتأملوا اغترارهم بما هم عليه من الباطل، واستخفافهم بعقوبة الله ووعيده.

هؤلاء ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، فقد زعموا بُهتانًا وزورًا وكذبًا أنهم غير مخلدين في النار، وأنهم في مأمن من ذلك، وأنهم إن دخلوها فلن يمكثوا فيها إلا قليلًا. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

والأيام المعدودات التي سيمكثون فيها في النار بحسب زعمهم الباطل هي الأيام التي عبدوا فيها العجل كما ذكر ذلك غير واحد من أهل التفسير، وكانت أربعين يومًا.

ظن اليهود والنصارىٰ أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه فضلهم علىٰ العالمين، وما علموا أنه من كسب سيئة، وأحاطت به خطيئة الشرك والكفر، لن يفلح أبدًا، وأن النار دارُ قرارِه خالدًا فيها أبدًا. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ: اغتروا بما قالوا وزعموا وافتروا، وظنوه حقًّا، وهذا ما جعلهم يكفرون برسالة الإسلام، وجرّأهم علىٰ الافتراء علىٰ الله تعالىٰ، وهوّن عليهم ارتكاب الجرائم العظام، وأبقاهم علىٰ دينهم الفاسد وعقيدتهم الباطلة.

أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَبُوكُمْ قَالُوا: فُلَانٌ، فَقَالَ: كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا، ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ».

وهذا الغرور نراه عند عدد من أبناء الإسلام اليوم، من الذين يتفننون في المعاصي ويصرون عليها معتمدين علىٰ رحمة الله دون الخوف منه، ويستحضرون الجنة دون النار، ويتكلون علىٰ أنهم غير مخلدين في النار ويظنون أن أمر النار هيِّنٌ، وأن عذابها يسير، ولذلك لا تراهم يبادرون للتوبة، ويسهل عليهم استعمال جوارحهم في الإثم والعدوان، ومثلهم يجدر بنا تذكيرهم والسعيُ في رجوعهم إلىٰ العبادة التي تجمع بين الرجاء والخوف، والرغبة والرهبة، واستحضار شدة عذاب الله مع سعة رحمة الله، لتكون استقامتهم كما أمر الله.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

تهديد ووعيد من الله تعالىٰ لهم، وتذكير لهم بمشهد بعثهم ووقوفهم للحساب بين يدي الرب العظيم، في يوم لا شك في وقوعه وحصوله.

سيعلمون في ذلك اليوم أنهم كانوا علىٰ الباطل، وأن غرورهم بدينهم قام علىٰ الكذب والأماني، وسيُجازون علىٰ كل ما فعلوه مع أنبياء الله تعالىٰ والمُصلحين من أُممهم، وسيسألهم ربهم عن ذلك ويحاسبهم عليه، في يوم تُوضع الموازين فيه بالعدل والقسط، ولا تُظلم فيه نفس شيئًا.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

تعطي هذه الآية قارئها الثقة بالله وحسنَ التوكل عليه، ولا يكاد قلبٌ يعيها ويفهمُها، إلا امتلأ بتعظيم الرب، وحُسن التفويض إليه، والاعتماد عليه.

قل يا محمد ﷺ، وناجِ من تعبده وتدعو إلىٰ توحيده مستحضرًا ملكوته وكبرياءه:

﴿ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ أَيْ: يا مَن خلق الخلق جميعًا، وبيده مقادير السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، ويا ملك الملوك الذي لا راد لأمره، ولا مُمانع لقَدَره.

﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ إنك أنت يا الله الْمُعْطِي والْمَانِعُ، والقابض والباسط، والمتصرِّف في الخلق كما تشاء، والفعّال لما يريد، ولك في ذلك الحكمة التامة، والحجة البالغة، والقدرة العظيمة.

هنا عقيدة لا يستغني عنها من يريد سعادة الدَّارَيْن: إذا قدّر سبحانه أن يهب المُلك لأحد فلا راد لفضله، وإذا أراد أن ينزعه من أحد فلا معطيَ لما منع، سبحانه يرفع قدرَ من يشاء من الناس، ويُذل آخرين. قال الله تعالىٰ: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

تأملوا كيف كان بنو إسرائيل يكفرون بنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لأنه ليس منهم، وقد كانوا يرجون أن تكون النبوة فيهم، وتأملوا كيف كان مشركو قريش ينكرون أن يأتيهم نبي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وتأملوا كيف جاءت الآية هنا تحمل تسلية عظيمة لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وصحبه الكرام بأن علوَّ ملة الكفر في مكة والمدينة إلى زوال، وأن الملك والتمكين في الأرض لله وحده.

لقد انتقلت النبوّة من بني إسرائيل إلى العرب، وأكرم الله نبيَّنا بالمُلك والعزة، ورفع له ذِكْره، ويَسَّر له أمره، وفَضّله على جميع خلقه، وكتب لدينه أن يعلو ولا يُعلى عليه. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

واعلموا أن عزة المؤمن تجعله قويًّا قادرًا على حماية الحق الذي يحمله، وتجعل التفاف الناس حوله وإعانته أسرعَ وأيسرَ، وتجعل تأثيره على القريب والبعيد مختلفًا تمامًا، بخلاف ما لو عاش ذليلًا معتصمًا بغير الله، فإن نفسه ستهون عليه، وسيهون على غيره ويصبح سلعة في أيدي اللاعبين. قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

واعلموا أن عزة المؤمن دون سعي في أسبابها ضَرْب من الغرور وتخديرٌ للمشاعر، فالعزة لا تكون بدون ثقة بالقرآن وبشريعة النبي ﷺ، ولا تكون بدون عمل دؤوب في إعداد ما استطعنا من قوة، متوكلين في كل ذلك على الله وحده، ومستعينين به.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ وكأن المُلك الذي آتاه الله لنبيه ﷺ وأمته، كان خيرًا ورحمة للعالمين، وهذا ما نعيشه في صباحنا ومسائنا مع عقيدتنا وشريعتنا وأخلاقنا، والحمد لله أولًا وآخرًا.

ولعلك تعجب بعد العيش مع روائع القرآن هنا كيف يفزع أناس إلى غير الله سائلين الخير منهم، وباذلين ما حرَّمَ الله من فنون الاحتيال والكذب، ولسان حالهم: الخير بأيديكم لا من عند الله.

تحمل العبارة القرآنية هنا توجيهًا لا نظير له لمن أراد أن يحقق مراد الله في أرضه، ويصل إلى الاستخلاف الصحيح في هذه الخليقة، ويظفر بهيمنة الشريعة والدين على المعمورة، أقول: يا من أراد ذلك، اعلم أن الخير كله من عند الله، فتتبع سننه وأوامره، واعلم أن الملك بيده، وهو قادر على جعله في المسلمين الصادقين.

ولا يقولن قائل: ولماذا صارت العزة في أيامنا لأهل الكفر وتسلطوا علينا ؟ لأن التمكين في الأرض يكون لمن أخذ بأسباب ذلك، ولا يكون لمن حارب العلم وضيَّق على أهله، ولا يكون لمن نخرت الخلافات فيه وتفرق وذهبت ريحه، ولا تكون لمن ترك الجهاد وسارع في أهل الكفر يطيعهم في كل ما يأمرون، ولا لمن فرَّط في أوامر الله ونواهيه، فمن أين تأتي العزة؟ ومن أين يأتي التمكين ؟

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فلا يُعجزه شيء في خلْقه جلَّت قدرته وعظمته، ولا يقدر على إعطاء السلطان والقوة ونزعهما إلا الله سبحانه.

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

الله سبحانه وتعالى سخَّر الليل والنهار يجريان ويتعاقبان ولا يتوقفان أو يَقَرَّان، كلٌّ منهما يطلب الآخر طلبا حثيثًا، كقوله سبحانه: ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ومع تعاقبهما وإدخال كل منهما على الآخر، تتعاقب الظلمة والضياء، ويختلف حالهما بذلك طولًا وقصرًا بحسب فصول السنة، فإذا قصر الليل زاد النهار، وإذا زاد الليل نقص النهار.

انظروا إلى واحد من معالم قدرة الله التي امتلأ بها الكون والإنسان والحياة، ولكم أن تتأملوا في تدبير الخالق لكل هذا الخلق، وتسيير شؤونه وفق نظام محكم دقيق، لا يحمل إلا دلالة واحدة، وهي أن الله واحد لا شريك له في علمه وحكمته وقدرته، وأن من أفحش أنواع الظلم أن يجعل الناس معه إلهًا آخر.

﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ومن تمام قدرة الله وكمالها أنه يخلق الْأَشْيَاءَ وَأَضْدَادَهَا فيُخرج الحي من الميت، كالإنسان خلقه من تراب أو من نطفة، والنبات أخرجه من الحَب، والفراخ من البيضة.

وهو سبحانه يخرج الميت من الحي، فيُخرج البيضة من الدجاجة، ويخرج نطفة المَنِيّ من الإنسان، وغير ذلك.

سبحانه، كيف يحيي قلب الكافر بالإيمان فيجعله حيًّا بعد أن كان ميتًا، وكيف يضل قومًا بعد إذ هداهم.

سبحانه، كيف يخرج من أصلاب أهل الكفر من يعبد الله وحده، ويقوم بقائمة هذا الدين، وكيف يبتلي أكرم خلقه عليه من الأنبياء والرسل بكفر أبنائهم وضلالهم.

سبحانه، كيف يخرج العالم من الجاهل، ويُنسي العالم علمه ويجعله يتيه.

﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ يبسط الله عز وجل من رزقه وملكه وعطائه لمن شاء من عباده، بدون حساب عليه أو عدٍّ أو إحصاء، لحكمة أرادها في ذلك.

ومثل هذا السياق القرآني الذي يدل على قدرة الله تعالى في تغيير الأحوال، يجعلنا على يقين عظيم بأن المستقبل لهذا الدين، وأن ملك الأمة المحمدية سيبلغ الآفاق من جديد، متى ما أخذ أبناء هذا الدين بسنن الله الكونية والشرعية التي لا تتبدل ولا تتغير.

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾

يحمل هذا الخبر القرآني نداء لأهل الإيمان بألا يتولوا أهل الكفر من الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وغيرهم، الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وألا يطلبوا العزة منهم، وألا ينصروهم.

ومثل هذا النداء الرباني لا يعقله ولا يسارع إلى الامتثال له إلا من آمن، ولذلك جاء الخبر يذكرهم، وكأنه لا يُتصور منهم خلاف ذلك. قال الله تعالى في هذا المعنى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

وقد جاء في وجوب البراءة من الكفرة ووجوب موالاة المؤمنين نصوص كثيرة في الكتاب والسنة، منها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقولُه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]، وغير ذلك مما سيأتي معنا.

يا أهل الإيمان الحق، ويا من صدقوا الله تعالىٰ في توحيدهم وعبوديتهم: اليهود والنصارىٰ أعداءٌ للإسلام وأهله فلا تتخذوهم أَنْصَارًا وَخُلَفَاءَ عَلَىٰ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالله وَرَسُولِهِ. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

وعداوة اليهود والنصارىٰ للمسلمين لها عِلَّةٌ معلومة ومعهودة، فإنَّهم يكفرون بالقرآن، ويكفرون بمحمد ﷺ، وهم الذين نصبوا له ولمن تبِعه العداء قديمًا ولا زالوا، وهم الذين نسبوا لله تعالىٰ ما لا ينبغي واتخذوا معه شركاء، ولا يكاد مطلع علىٰ عقائدهم يشك في عظم كفرهم وشدة مخالفتهم لما في دين الإسلام الذي ارتضاه الله تعالىٰ لأوليائه، بل ارتضاه للناس جميعًا. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولكم أن تستحضروا ما فعلته طوائف اليهود في المدينة من أعمال قصدوا بها القضاء علىٰ الدعوة في مهدها، ولكم أن تستحضروا ما فعلته الحملات الصليبية عبر التاريخ في أبناء أُمَّتنا، ولكم أن تتأملوا أحوالنا في هذه الأيام.

ولا تلتفتوا إلىٰ تصرفات أفراد من النصارىٰ أو بعض المؤسسات المحدودة الذين لا يجاهرون بإساءاتهم والذين يذكروننا بخير إنصافًا منهم، فإن العبرةَ بحال غالبهم وبما تمليه عليه أنظمتهم وقياداتهم، وبما تفعله طائراتهم ودباباتهم وأقمارهم الصناعية.

وقبل استطرادي في بيان مفهوم اتخاذهم أولياء، أُبيِّن لكم أنواع اليهود والنصارىٰ لنكون علىٰ بصيرة في تعاملنا معهم، فأقول مستعينًا بالله: اليهود والنصارىٰ جميعًا كفارٌ غير مسلمين بإجماع أهل الملة عبر جميع العصور والأزمان، ولكنهم ليسوا علىٰ درجة واحدة في تعاملهم معنا وفيما يلزمنا اتجاههم:

١- فمنهم الكافر الحربي الذي يعتدي علىٰ أرضنا ومقدساتنا، ويغتصب حقوقنا، وينتقص قدر ديننا، فهذا حقه أن نقاتله، وأن نعُدَّ عدتنا له لندفعه عن ديارنا وأنفسنا وأعراضنا وأموالنا.

٢- ومنهم الكافر المعاهد الذي عقد إمامُ المسلمين مع إمامِه عهدًا، هؤلاء الأصل فيهم أنهم محارِبون ولكنهم جنحوا للمصالحة أو جنحنا نحن لضعفنا، فحقُّهم أنْ نُوفِّيَ لهم عهدهم ولا نغدرَ بهم ولا نقتلَهم، وكذلك لا نقاتلهم حتىٰ ننبذَ عهدهم وننهيَه معهم، وذلك إذا علمنا سعيهم في الغدر والخيانة، والكفار المعاهدون هم غالب حال أهل الكفر في أيامِ الضعف التي نعيشها في زماننا.

٣- ومنهم الكافر المستأمن الذي دخل إلىٰ أرضنا بعد أن أعطيناه الأمان، وربما يكون دخوله ليسمع كلام الله ويتعرفَ علىٰ دين الإسلام، فهذا آمن لا يحل لأي فرد أن يعتدي عليه أو علىٰ ماله، وهذا كحال التاجر والسَّفيرِ وطالبِ العلم الذين يدخلون أرضنا منهم، وغيرِهم.

٤- ومنهم الكافر الذمي الذي يقيم في أرضنا ويعيش بيننا، وهو الذي رضيَ أن يكون تحت هَيْمنة حكم الإسلام، فهذا لا يجوز قتله ولا قتاله بما يدفعه لنا من الجزية، بل هو آمن في بلادنا علىٰ نفسه وماله وعياله، ولا يجوز الاعتداء علىٰ شيء من ذلك، وفي مثله جاء قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

أما عن مفهوم اتخاذ اليهود والنصارىٰ أولياء، وصورِ ذلك في واقعنا، فأقول منتفعًا بما نص عليه أهل العلم الذين تتبعوا نصوص الشريعة في ذلك: الْوَلَايَةُ أصلها المحبة والقرب والنُّصرة، وهي تدور علىٰ ثلاثة معان أو ثلاثة أصول في الشرع لا بد أن نَحْذر منها في حقهم:

١- **المودة**: والمقصود بها المحبة، فمحبة الكافر ومحبة ما هو عليه من الكفر لا تليق بأهل الإيمان لأنها من موالاتهم، وفيها جاء قول الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [الْمُجَادَلَة: ٢٢]، وجاء قول ربِّنا جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وفيها جاء كذلك قول ربنا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

والمقصود بالمحبة هنا هي تلك المحبة المكتسبة التي تكون بمقدور صاحبها، والتي حرص الإسلام علىٰ أن تكون لله وفي الله، لا أن تكون مبنية علىٰ أساس البلد أو القبيلة أو الحزب أو الجماعة، أو اللون أو اللغة أو الجمال أو غير ذلك.

وهذا بخلاف المحبة الطبيعية التي قد تكون لولد أو والد أو قرابة ليسوا مسلمين، أو قد تكون لزوجة كتابية، فهذه محبة غريزية طبيعية كمحبة الطعام والشراب والملبس، وهذا لا يتعارض مع بغض كفرهم وبغضهم لكفرهم، فقد يحبهم الواحد منا من وجه ويبغضهم من وجه، ولا يمتنع أن تجتمعَ المحبة الطبيعية مع العداوة الدينية تُجاه شخص أعرفه؛ لأن الأمرين مختلفان، كما هو الحال مع الدواء الذي نحبه ونبغضه.

وعليه، فإنه قد يجتمع في الشخص الواحد حب وبغض، فأحبه لأنه والدي وأبغض فيه عبادته للأصنام مثلًا، أو أبغض فيه قوله: إن الله ثالث ثلاثة، بل قد تجتمع المحبة هذه مع البغضاء في الشخص المسلم الذي أحب فيه صلاته وصومه وأبغض فيه تعامله بالربا وكذبه على الناس وقربه من الزنا، وهكذا.

ومعلوم لدينا أن النبي ﷺ كان في قلبه حب لعمه أبي طالب الذي مات على الكفر، وهذه محبة طبيعية وَقَرَت في قلبه لقرابته ومواقفه، وهي التي عناها القرآن بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

ولكن لاحظوا: لم يترحم عليه بعد موته، ولا تصدق عنه أو أشار حتى لشيء من ذلك، فإن أبا طالب اختار دين آبائه وهو على فراش الموت وأبَى أن يقول كلمة التوحيد.

وكذلك: مسألة البراء منهم لا تتعارض مع معاملتهم بالرفق واللين رجاء إسلامهم، بل هذا من الدعوة إلى الله تعالى التي نريدها، والتي أرشدتنا إليها نصوص الكتاب والسنة.

والمحبة في الله ولله لها تبِعاتها، ولها أحكامها التي لا بُدَّ للمؤمن أن يعتصم بها، ولها فقهها الذي يحميها ويحفظها، وهي المقصودة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهي المقصودة في حديث النبي ﷺ الذي أراد أن يغرسها في قلوب المؤمنين، وذلك فيما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وتأملوا الحديث الذي أخرجه أحمد بسند حسَّنه غير واحد من العلماء، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي الله، وَتُبْغِضَ فِي الله».

٢- **النصرة:** المعنى الثاني من معاني اتخاذ أعداء الله تعالى أولياء، نصرتُهم وإعانتهم على بلاد المسلمين، والتجَسُّسُ لمصلحتهم، وكشْفُ العورات وإفشاء الأخبار والأسرار لهم، وكذلك تمنِّي هزيمة المسلمين أمامهم، والسعي لذلك بالقلَم والمال والنفْس.

ومن مظاهر نصرتهم كذلك الحزن إذا انتصر أهل الإيمان، والفرَحُ والشماتةُ إذا غلب أهل الكفر والخذلان.

ومنها تَوْلِية الكُفَّار ما فيه سلطان على المسلمين، وتنصيبهم أمراء وقادة ومستشارين وبطانة من دون المؤمنين.

قال الله تعالى في صفات المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقال الله تعالى عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، وجاء كذلك في حقهم قول الله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٣- **الاتباع**: والمقصود به تقليد اليهود والنصارى في نمط معيشتهم، ومفاهيمهم عن الحياة والوجود، وثقافتهم المتعلقة بالقيم والأخلاق، وعاداتهم القائمة على حب الدنيا والتعلق بها دون نظر لما ينتظرنا بعد الموت.

ومن أوجه اتباعهم كذلك تقليدهم في علاقاتهم الأسرية القائمة على الاختلاط والتعري واستباحة الأجساد والخيانة، وتقليدهم في أزيائهم التي تخصهم، وهيئاتهم التي يتميزون بها عن غيرهم، فضلًا عن تقليدهم في عباداتهم وأعيادهم التي يتسابق إليها فريق من أبناء المسلمين ويقلدونهم فيها.

ومن مظاهر اتباعهم وأخطرها في زماننا تحكيم غير شرع الله في بلاد المسلمين في عدد من المجالات، ولعلكم لو أعملتم النظر في الآية لأدركتم أن تبديلَ جزء من الشريعة بقوانين من صنع البشر يُعدُّ جريمة عظيمة في حق الدين، وأن تركَ ما أنزله ربُّ البشر وخالقُهم، فيه انتقاص من الشريعة ومن قَدْر منزلها جل ربي وعلا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن أخطر ما يدعو إليه بعض أبناء جلدتنا ما يُسمى بوحدة الأديان، مع أن الدين واحد، وليتَ شِعري كيف يلتقي دين التوحيد مع دين الشرك والكفر بالقرآن وبمحمد ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ».

وأخرج أبو داود والترمذي عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ».

وأخرج أحمد والنسائي بإسناد حَسَّنه غير واحد من أهل العلم، عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصُومُ يَوْمَ السَّبْتِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ أَكْثَرَ مِمَّا يَصُومُ مِنَ الْأَيَّامِ، وَيَقُولُ: «إِنَّهُمَا يَوْمَا عِيدِ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أُخَالِفَهُمْ».

وأخرج أبو داود والبيهقي في السنن الكبرى عن ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ (اسم مكان أسفل مكة)، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» ، قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ».

وأخرج البيهقي في السنن الكبرى بسند حَسَنٍ، أن أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان قد اتخذ كاتبًا نصرانيًّا، يقرأ له ويكتب له مراسلاتِه مع غير العرب، فلما رآه الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُعْجب بفطنته وذكائه ولم يكن يعلم أنه غير مسلم، فطلبه ليدخلَ المسجد ويقرأ كتابًا جاء من الشام، فأخبره أبو موسى أنه لا يستطيع دخول المسجد لكفره، فقال أبو موسى: فَانْتَهَرَنِي وَضَرَبَ فَخِذِي وَقَالَ: أَخْرِجْهُ، وَقَرَأَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، فَقُلْتُ: وَالله مَا تَوَلَّيْتُهُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْتُبُ، قَالَ: أَمَا وَجَدْتَ فِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ مَنْ يَكْتُبُ لَكَ؟، لَا تُكْرِمُوهُمْ إِذْ أَهَانَهُمُ الله، وَلَا تُدْنُوهُمْ إِذْ أَقْصَاهُمُ الله، وَلَا تَأْتَمِنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ الله عز وجل».

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ كل من والى أعداء الله تعالى فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، وليس له عند الله حظ أو نصيب أو ولاية. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الْمَائِدَةِ: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٧٣]، وقال جل وعلا عن اتخاذهم أولياء: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الْمُمْتَحِنَةِ: ١].

وقد بين أهل العلم وفصّلوا في الحالات التي تكون فيها موالاتهم كفرًا، وفي الحالات التي تكون كبيرة وفسقًا.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ استثنى الشرع من التحريم ما لو تولاهم المسلم تَقيَّة شَرِّهم وبأسهم في زمن محدود ومكان محدود، مع سلامة عقيدته وباطنه، بقدر الحاجة لا يتجاوزها؛ فهذا جائز وصاحبها معذور بنص الآية الكريمة.

والتُّقْية إنما تُباح باللسان لا بالأفعال، كما نص غير واحد من الصحابة والتابعين على ذلك، وهي موجهة إلى الكفار لا في تعاملنا مع المسلمين، والمؤمن يفعلها استثناءً إذا وُجد سببُها لا أصالة، فالمؤمن إذا كان قائمًا بين الكفار وموجودًا في سلطانهم، أو كان أهل الكفر ظاهرين على المسلمين، فللمسلم أن يداريهم ويُظهرَ الولاء لهم باللسان إذا كان خائفًا على نفسه، وقلبه مطمئن بالإيمان، على ألا يعينهم على المسلمين بحال. قال أهل العلم: والتُّقية لا تحل إلا مع خوف القتل، أو قطع عضو، أو الإيذاء العظيم.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ لا تخالفوا أمره، ولا ترتكبوا المعاصي، ولا تستهينوا بحكم موالاة أعدائه، ولا تتباطؤوا في الاستجابة، لئلا ينالكم غضبه وسخطه، ويحل بكم ما لا تحبون في الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: ١٤٤].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ سيجازي سبحانه كل عامل بعمله، فإن مرجع الناس ومآبهم إليه.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾

أحاط عِلم الله تعالى بالسرائر والظواهر، وأحاط بجميع عباده في جميع الأزمان والأماكن، ولا يخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض.

واعلموا أن مجيء هذه الآية بعد آية النهي عن موالاة أهل الكفر تحمل دلالة على أنَّ أمر الموالاة عظيم عند الله، سواء أضمر المسلم ذلك في نفسه وأحبهم وأحب دينهم، أو ظهر ذلك على فلتات لسانه، أو جاهر به قولًا وعملًا، فإن الله عليم به وسيحاسب من فعل ذلك حسابًا شديدًا.

ولعلكم تجدون صنفًا من أبناء أمتنا ممن ضعف إيمانه، أو تلوثت نفسه بآفة النفاق، يحرصون على البراءة من الكفار بألسنتهم، مع أن غالب فِعالهم تشهد عليهم بأنهم أقرب إلى أهل الكفر من أهل الإسلام، فليعلم كلُّ من أضمر في قلبه بغضًا للإسلام وحملته، أن سريرته ستُبتلى يوم القيامة، وأن داخله مفضوح أمام علم خالقه، فليحذر عقابه.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وأمره وقدره نافذ ومتحقق في جميع خلقه، وقد يعاجلكم بالعقوبة إذا هان عليكم أمره ونهيه.

والمقصود: احرصوا على الخوف منه وخشيته، وراقبوه في سركم وعلانيتكم، وتقربوا إليه بما يحب، تنالوا سعادة الدنيا والآخرة.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

تحمل الآية مزيد تذكير للخلق ليراقبوا ربهم في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم، وليحرصوا على التقرب إليه بما شرع وأمَر، وليستحضروا على الدوام وقوفهم بين يدي الله في يومٍ سيحاسبهم فيه على ما قدموا، وسيجدون كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

يُبَيِّنُ الخبر القرآني أن كل واحد منّا سيجد كل خيرٍ أو شرٍّ عَمِله مكتوبًا وحاضرًا في الصحف غدًا في أرض المحشر، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الْقِيَامَةِ: ١٣]، فكلُّ خير قدّمه سيفرح به ويجد ثوابه وأجْره، وكلُّ سوء وذنب قدّمه سيَندم عليه غاية الندم.

ما أجملها يوم يجد الواحد منا ثواب الخير حاضرًا في جميع مراحل الآخرة! عند موته، وفي البرزخ، وفي أرض المحشر، الصلاة والصيام والصدقات، والقرآن وبر الوالدين وصلة الرحم، والدعوة إلى الله والجهاد والصبر والصدق.

وما أصعبها يوم يرى ظلمه للناس حاضرًا بين يدي الرب جل وعلا! كلٌّ منهم يطلب حقه ويريد القصاص، وما أصعبها يوم يرى الربا والزنا وشرب الخمر تُوردِي به إلى المهالك، ويوم يرى الكذب والخيانة ومناصرة الباطل وأهله تقف له بالمرصاد، ويوم يرى جوارحه تشهد عليه؛ أيُّ بؤس وغمٍّ هذا !

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ﴾ أي: يبلغ الندم مبلغه من هذه النفس على ذنوب الخلوات والجَلَوات، وتود لو أنها تبرَّأت من ذنوبها، وابتعد هذا الذنب عنها زمنًا بعيدًا ومتأخرًا، لئلا تُحاسَب عليه وتنالَ عقوبتَه.

ومن أهل العلم من قال: إنها تود لو كان يوم القيامة بعيدًا ومتأخرًا، لئلا يُحاسب على سوء ما قدم.

ومعلوم لديكم أن الندم لا ينفع صاحبه في تلك اللحظات، ولن يغني عنه شيئًا، فليس للعبد إلا أن يبادر في التوبة، ويسارع في الأوبة قبل حلول الأجل.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ خطاب قرآني يخلع القلب، ويعني الكثير لمن أسرفوا على أنفسهم بالذنوب، وزُيِّن لهم سوء أعمالهم، ولمن تساهلوا في أداء الحقوق، ولمن أصروا على معاداة دين الله تعالى وحملته؛ فليحذر هؤلاء عقابَ الله وسَخَطَه.

يا أيها الناس، لا تغتروا بستر الله وحِلْمه، فإنه لا راد لبأسه إذا جاء، ولا مانع لأمره إذا نزل.

يا من ترىٰ نعم الله عليك تأتيك تترًا وأنت مقيم علىٰ المعاصي ولا تتوب منها، ولا تستحضر عظمة من عصيت، احذر أن تكون هذه النعم استدراجًا لك، حتىٰ إذا نزلت عقوبة الله بك لم ينفعك شيء.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ومن رأفته أنه حذّرهم نفسه، وأرشدهم إلىٰ الصراط المستقيم، وبين لهم ما يحب ويرضىٰ، وأمهلهم وستر عليهم مع إقامتهم علىٰ المعاصي ودوام فعلهم لها.

ومن رأفته أنْ جعل فطرة العباد سليمة، وفتح لهم أبواب التوبة والرحمة إذا أفسدوها، ما لم تبلغ الروح التراقي.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾

تظن كثير من الطوائف التي ضلت طريقها كاليهود والنصارىٰ، أن حبَّهم لله سينفعهم غدًا بين يديه، وإن لم يؤمنوا بخاتم رسله محمدٍ ﷺ، وبما جاء به من التوحيد.

يا أيها النصارىٰ: لا تظنوا أن تعظيمكم لعيسىٰ وتأليهه، وأن تقديسكم لأُمِّه علامةٌ علىٰ حبكم لربكم، فقد أخطأتم الطريق وضللتم عن سواء السبيل، وكذلك كل من ضل من طوائف الكفر في الأرض.

ولعلكم ترون في زماننا كيف يزعم قوم أنهم عبيد لله تعالىٰ ومُحبون له ولشرعه، ولكنهم يقتصرون علىٰ الإيمان بالقرآن دون سنة نبيه ﷺ، ويرون أن أحاديث النبي ﷺ لم تصلنا، مُتذرِّعين بحجج واهية، ومتغافلين عن علم قائم من زمن النبوة إلىٰ أيامنا، علمٍ له أهله وله صنعته العجيبة الفريدة التي تثبت أن السنة محفوظة، وأن حفظها من حفظ كتاب الله تعالىٰ، لا ينفكان عن بعضهما.

وترون كذلك في زماننا أقوامًا يزعمون أنهم لا مشكلة لهم مع السنة، ولكنهم يريدونها في المساجد فقط ولا يريدونها دستورًا للحياة، أو يغمزون بها ويلمزون لإسقاط عدد من أحكامها التي لا توافق أهواءهم، والتي تتعارض مع ثقافة الغرب التي أبهرتهم وسرقت عقولهم وحاصرتها، فضلت ضلالًا بعيدًا.

ومثل هذه الآية التي معنا تَدل دلالة واضحة وظاهرة على أن من ادّعى محبة الله تعالى وأنه عبد له، فإن دعواه لا تُقبل منه ولا يكون صادقًا حتى يؤمن بالنبي ﷺ وبما جاء به.

وتدل كذلك على أن الدين الحق الذي ينفع صاحبه، لا يكون إلا على طريقة محمد ﷺ وسنته وهديه في العبودية والعلم والعمل، وكل ما سوى ذلك كذب وزور وبهتان وافتراء، ومردود على صاحبه جملة وتفصيلًا. أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ».

كل من أحب الله حقًّا طلب قربه ورضاه، واجتنب ما يبغضه ويُسخطه، فليست محبة الله دعاوى نكتفي بها، بل لا بد من الاستسلام له ولدينه، ولا بد من الاستجابة لنبيه محمد ﷺ الذي دلّ الخلق على ربهم، ودعا الناس إلى ما يأمر به إلههم وخالقهم.

وتأملوا يرحمكم الله كرمَ الله وفضلَه على من اتبع نبينا ﷺ في كل ما جاء به، كيف أن الله تعالى يحبه، ويتجاوز عن سيئاته من الشرك والذنوب، ويكرمه برضوانه، فإنه الغفور لعباده عن زلاتهم، الرحيم بهم وبضعفهم وبجهلهم.

ما أجملها من آية تربط على قلوب الموحدين، وتُفرحهم بما أخبرَتْهم به من حب الله لهم، ما داموا على شرع محمد ﷺ وهديه.

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

أمرٌ من الله تعالى لكل من بلغه هذا النداء، بوجوب طاعة الله تعالى، وطاعة نبيه ﷺ، وهذا يدل على أن طاعة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هي عين طاعة الله سبحانه وتعالى. قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠]، وَقَالَ سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ كل من أعرض عن أوامر الله وأوامر نبيه ﷺ، وأبى أن يكون عبدًا لله على منهجه الذي أمر به، أقول: كل من فعل ذلك لا يكون مسلمًا وإن زعم أن الله في قلبه، وإن أبدى من معسول الكلام ما أبدى، فهذا الدين ليس بالأماني ولا بالأهواء، وإنما هو كتابٌ وسنةٌ وأمْرٌ ونهيٌ، وجزاءٌ من الله وعقابٌ.

لا يحب الله أهل الكفر، ولا يرضى عنهم، ولا يقبل منهم عملًا، ويعطيهم بما عملوه من خير في الحياة الدنيا رزقًا وجمالًا ومالًا وصحة، ويعطيهم أنفاسًا يصبحون بها ويمسون وهم مقيمون على الكفر به. أخرج البخاري ومسلم واللفظ له، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

تنتقل الآيات بنا في معرض محاجة النصارى إلى الحديث عن عدد من أنبياء الله تعالى، وكيف أن دينهم واحد، وأنهم أخذوا من مشكاة واحدة، وأن الله تعالى اختارهم وأرسلهم لدعوة الخلق إلى التوحيد الذي شهد به سبحانه لنفسه، وأن الله تعالى أحَبَّهم وأحبوه.

يظهر السياق سُنَّة الله تعالى في خلقه، كيف فضل بعضهم على بعض، كما فضّل بين الشهور والأماكن، فالله جل وعلا اصطفى أنبياء ورسلًا، واختارهم لكرامته بعلمه وحكمته، وجعلهم مبلغين بينه وبين الناس، وجعلهم صفوة العالمين.

والله جل وعلا جعل التفاضل بين أنبيائه، فإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فُضِّل بالخُلَّة، وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتكليم، وداود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالزبور الحافل بالتسابيح والمحامد والعِبر والمواعظ، وسليمان بالمُلْك من تسخير الجن والريح وغير ذلك ، ومحمد ﷺ بمغفرته له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأنه سيد ولد آدم، وغير ذلك.

تخبرنا الآية عن عدد من الأنبياء الذين اصطفاهم وفضلهم على خلقه بما فضلهم، فآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم وسوس له الشيطان فأكل من الشجرة فأهبطه الله منها، ليتم مراد الله في خلقه.

واصطفى الله نوحًا وأكرمه بالهداية والتوفيق والإعانة، ووهب له ذرية طيبة جعل فيها النبوة والدعوة كما جعلها في ذرية إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

ونبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو أول رسل الله سبحانه وتعالى، أرسله الله ليدعوَ قومه إلى التوحيد بعد أن أشربت قلوبهم حُبَّ الأصنام وعبادتَها، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وفيه جاءت سورة كاملة في كتاب الله تعالى تذكر عطاءه الذي لم ينقطع في إرجاع قومه إلى عبودية الرب جل وعلا، وتذكر استفراغه لوسعه في بذل أسبابِ الدعوة وأساليبها فيهم لعلهم يهتدون.

كَفَرَ قوم سيدنا نوح بالله العظيم، ولم يستجبْ لدعوة نبيهم إلا قليلٌ منهم، ولمَّا أيِسَ من دعوتهم بعد أن هدَّدوه بالقتل دعا عليهم، فأغرقهم الله تعالىٰ بالطوفان، وأغرق معهم زوجته وولده اللَّذَيْن سارعا في الكفر وماتا عليه، وما أعظمه من بلاء.

أخرجَ ابنُ حبّان عن أَبي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله أنبيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ مكلَّمٌ». قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وبين نوح؟ قال: «عَشَرَةُ قُرُونٍ».

وأخرجَ الحاكمُ في مستدرَكِه عن ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «كان بينَ نوحٍ وآدَم عشرةُ قرونٍ، كلُّهُم علىٰ شريعةٍ من الحقِّ، فاختَلَفُوا؛ فبَعَثَ الله النّبيِّينَ مبَشّرينَ ومُنْذِرينَ».

وَاصْطَفَىٰ سبحانه آلَ إِبْرَاهِيمَ، وآله هم أبناؤه وأحفاده ومن جاء من ذرياتهم، حتىٰ أرسل منهم خاتم رسله وسيدَ البشر مُحَمَّدًا ﷺ.

ومعلوم لديكم أن الله تعالىٰ جعل النبوة في ذرية نبيِّه إبراهيم كما جعلها في ذرية سيدنا نوح من قبله، فكما أن جميع الأنبياء قبل سيدنا إبراهيم كانوا من ذرية نوح، فكذا كان جميع الأنبياء بعد سيدنا إبراهيم من ذريته عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وقد أجمع علىٰ فضله وإمامته جميع أهل الكتب السماوية بعده.

وصفه الله تعالىٰ في كتابه بأنه أُمَّةٌ بأكملها، وأنه قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ، ووفَّىٰ كُلَّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَشْغَلُهُ أَمْرٌ عن التعبد لله تعالىٰ في نيته وجميع أحواله، حتىٰ وصل الحال به من قوته في الدين أن تبرَّأ من أبيه بعد أن تبين له أنه عدوٌّ لله.

هو الذي فارَقَ قَوْمَه حينَ أُمِرَ بذلك بعد أن دعاهم إلىٰ ترك خرافة عبادة الأصنام وتعظيمها، وهو الذي حَاجَّ النّمرودَ في وجود الله وقدرته، وصَبرَ علىٰ إلْقائِه في النّارِ، وهو الذي علَّمَ النّاسَ مناسكَ الحَجِّ، وتَرَكَ زوجَه وولدَه في الصحراءِ استجابةً لأَمْرِ الله يقينًا منه بأن الله هو حافظهم كما وعده، وأَضْجَعَ ولدَه الوحيدَ إسماعيلَ ليَذْبَحَهُ لمّا أُوْحِيَ إليه في رُؤْيَاهُ، فجعله الله تعالىٰ إمامًا من أئمة الهدىٰ والخير في الأرض.

ويكفيه أن الله تعالىٰ اتخذه خليلًا ورفعه إلىٰ أعلىٰ درجات المحبة كما اتخذ نبيَّنَا محمدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خليلًا.

واصطفىٰ آلَ عِمْرَانَ علىٰ أهل زمانهم، وجعل بيتهم بيتَ صلاح وعلم وتقوىٰ، وجعل لهم فضائل سيأتي ذكر شيء منها في قادم الآيات، وعمران رجل صالح من صلحاء بني إسرائيل، وهُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ، وهي أمُّ عيسىٰ عَلَيْهِم جميعًا سلام الله.

﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ ﴾

فآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أبو البشر، ومن ذريته كل من اصطفاهم، ونوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كذلك، وكل الأنبياء بعد زمن إبراهيم كانوا من ذريته، عليهم جميعا صلوات ربي وسلامه.

وأنبياء الله ورسله جميعًا بعضهم من بعض في الموالاة في الدين، والمؤازرة على الإسلام والحق، وحمل الهم الأكبر وهو إقامة العبودية في الأرض لله وحده لا شريك له.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله سميع لأقوالهم وأقوال ذرياتهم، عليم بمن يصلح لاصطفائه وتكليفه، وهو سبحانه سميع لما يفتريه أهل الكفر في حق أنبيائه أو بعضهم، عليم بذلك.

ويمكن حمل هذه الفاصلة القرآنية على ما بعدها؛ فالله سميع لنداء امرأة عمران الذي ذكرته الآية الآتية، عليم بحالها وصدقها في نيتها.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ ﴾

امرأة عمران هي والدة مريم عليهم سلام ربي، وكانت قد نذرت لمّا أكرمها الله بالحمل، أن يكون ما في بطنها مُحرَّرًا، أي: خالصًا ومفرغًا لخدمة بيت المَقْدس، وحبيسًا لشؤونه وحاجاته، ولا يُنتفع به في أمور الدنيا، ولا ينشغل بها ويتوسع، ثم دعت الله تعالى أن يتقبل منها نذرها، فإنه السميع لدعائها، العليم بما في بطنها، وبما هو خير لها.

تأملوا كيف نذرت ما في بطنها ليكون في خدمة دين الله، وتأملوا قدر صلاحها وعمق تفكيرها فيما سيكون بعد سنوات كثيرة، وهذا الأمر نراه في كثير من الآباء والأمهات في زماننا، كيف يستحضر الواحد منهم عند اختياره لزوجه أن يكون من الصالحين مستشرفين مستقبل أبنائهم في ذلك ليكونوا من الصالحين، لا بل من المصلحين.

أقول: هذه فكرة تربوية إيمانية تحتاج إلى وقفة تليق بها، وتتطلب ممن يتدبرها أن يجعلها في نفسه وفي غيره، فأولادنا نحبهم ونُعدهم لدنياهم ليكونوا أقوياء فيها، ولكن أهل البصيرة يجمعون إلى ذلك إعدادًا خاصًّا بهم ليكونوا حملةً للدين وخُدَّامًا له ولشعائره.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ ﴾

كان مثل هذا النَّذر الذي نذرته زوجة عمران معتادًا عندهم إذا كان المولود ذكرًا، فلما أكرمها الله بمولود أنثىٰ، هي مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ، جعلت تناجي ربها وهو أعلم بحالها، وأعلم بما وضعت.

خاطبت نفسها بأن ما وضعته كان أنثىٰ، وجاء علىٰ خلاف ما ترقبه وتنتظره، فكيف يكون مُحرَّرًا لخدمة البيت المقدس، ولذلك أكّدت ذلك وقالت:

﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ ليست قوة الذكر في خدمة مكان العبادة وفي العبادة والصبر عليها كقوة الأنثىٰ، فضلًا عما يعتري الأنثىٰ من عوارض تمنع تمام إقامتها في بيت العبادة.

والآية بعمومها تدل علىٰ وجود ما يتمايز به الذكر والأنثىٰ فيما بينهما، سواء كان هذا من قول الله تعالىٰ، أو من قول أمِّ مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ الذي ذكره القرآن وأقرَّه، ولذلك فرّق الإسلام في عدد من الأحكام المتعلقة بالحقوق والواجبات فيما بينهما، ليحصل التكامل المرجوّ نحو حياة طيبة.

الذكر ليس كالأنثىٰ فيما يصلح له كل منهما، وهذا التفريق في عددٍ من أحكام الدنيا لا جميعِها، بخلاف الجزاء في الدار الآخرة الذي لا يتعلق بالذكورة ولا بالأنوثة، وإنما يتعلق بالتقوىٰ والإيمان والعمل الصالح. قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال سبحانه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾ قد يكون لاسم مريم في زمنهم قدرٌ ومقامٌ، ولعله يشير إلىٰ معاني الطُّهر والعبودية كما اجتهد في ذلك بعض أهل العلم.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وكأنّها اطمأنت ورضيت بما رزقها الله، فدعت وسألت أن يجيرها ويصرف عنها وعن ذريتها شرَّ الشيطان وهمْزَه ومسَّه وإغواءه؛ دعاء يدل علىٰ محبة عجيبة قذفها الله في قلبها لمريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ.

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧ ﴾

تقبّل الله تعالىٰ من امرأة عمران دعاءها واستجاب، وصرف عن ابنتها وعن ذريتها حظ الشيطان منهما حين الولادة، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: "مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا «ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾»".

وفي لفظ آخر عند البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُولَدُ، غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ». أَيْ: فِي الْمَشِيمَةِ الَّتِي فِيهَا الْوَلَدُ.

ومما أكرمها الله به أنه تقبل منها نذرها، وجعل مريم محررة لخدمة البيت المقدس. قال أهل العلم: وقد عرفت مريم وأمها عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ قبولَ ذلك بوحيٍ من الله إلىٰ نبيه زكريا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فإنها ليست نبية ولا ينزل عليها الوحي.

ومما أكرم الله به مريم وأمها كذلك، أن أنبتها نباتًا حسنًا، فجمّلها وأكرمها بحُسْن الخُلق، ويسّر لها أسباب القبول، وَقَرَنَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ تَتَعَلَّمُ مِنْهُمُ الْخَيْرَ وَالْعِلْمَ وَالدِّينَ، كما دل على ذلك قول الله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾، أي: كان هو القائم عليها رعاية وتعليمًا وإنفاقًا.

وسيدنا زكريا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ هو والد نبي الله يحيىٰ، وهو الذي كفل أمنا مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ بتقدير من الله، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلىٰ أنه زوج أختها، ولذلك كان سيدنا يحيىٰ وسيدنا عيسىٰ ابنَي خالة، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم في حديث المعراج، واللفظ لمسلم، أنه ﷺ قال: «فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ».

وسبب كفالة زكريا لها، أن أمها نذرتها لله، وأبوها عمران مات قبل ولادتها كما ذكر أهل التفسير، فدفعتها أمها لصالحي بني إسرائيل ليكفلها أحدهم في بيته ويشرف علىٰ تربيتها.

وقد كانت كفالته لها، بعد أن تنازعها وتخاصم فيها وتسابق عليها عدد من أحبار بني إسرائيل، فكانت القرعة لسيدنا زكريا، كما سيأتي في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾

كانت مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ من أهل النُّسك والعبادة والتَّبَتُّل لمَّا كبرت، وعكفت علىٰ خدمة الكنيسة أو بيت العبادة كما أرادت أمها ودَعَت ونذرت.

ومن كرامة الله لها، أن نبي الله زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كلما جاءها في محرابها، وهو المكان الذي تخلو فيه بعبادتها، وَجَد عندها رزقًا وطعامًا زائدًا عما كان يُحْضره، فيسألها عن مصدره، فتخبره بأن هذا الخير من عنده سبحانه، كرامة من الله لها كما هو حال إكرامه للصالحات من نساء العالمين.

ومن أهل العلم من حمل سؤاله هنا واستغرابه، علىٰ أنه كان يجد عندها فاكهة في غير وقتها، كما روي عن بعض الصحابة والتابعين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أتْبعت عليها من الله السلام كلامها لنبي الله زكريا، بما يدل علىٰ عظم اليقين الذي ملأ قلبها، ويدل علىٰ أن الله تعالىٰ رزقها ما رزقها بلا عدٍّ عليها أو حساب، وهو سبحانه يكرم بفضله من يشاء من عباده.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

سيدنا زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لما دعا دعاءه هذا، كان كبيرًا وضعيفًا لا يُنجِب مثله غالبًا، وكان يشتهي أن تكون له ذرية وولد، ولكن امرأته كانت عاقرًا لا تُنجب العيال.

رأىٰ سيدنا زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أن الله تعالىٰ أكرم مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ برزق وفضل يأتيها من غير تسبُّب أحد من الآدميين، وأنه يأتيها بأحوال تخالف العادة، ورأىٰ أن الله تقبلها محررة لخدمة البيت المقدس، مع أن هذا كان للذكور فقط، أقول: لما رأىٰ ذلك؛ طمع بأن يناله فضل الله ويعطيَه ولدًا، فدعا ربه وناداه نداءً خفيًّا في تلك اللحظة التي رأىٰ فيها كرامةَ الله لمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، دعاه بأن يرزقه أولادًا صالحين طاهرين، وختم دعوته بالتوسل إلىٰ الله بصفاته

العليا بأنه يسمع دعوة المضطرين ويستجيب. قال الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٤-٥].

انظروا في حال من حضر قلبه في دعائه، وعاش اليقين بالله العظيم في كل كلمة يقولها، وانظروا في حال كثير من أهل الإيمان الذين أصابهم كرب ما، فما فتر لسانهم عن الذكر، ولا هدأ روعهم إلا بتلك الدعوات التي أطلقوها في أوقات استجابة الدعوات، ويوم خَلَوْا بالرحمن، إنها جنة الدنيا قبل جنة الآخرة. أخرج أحمد وغيره عنْ عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوْعيةٌ، وبعضها أوْعى من بعض، فإذا سألتم الله عز وجل أيها الناس، فاسألُوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهرِ قلبٍ غافل».

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أرجو من كل مغلوب على أمره أن يتأمل النص القرآني هنا، وأن يتدبر في استجابة الله لدعوة نبي الله زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكيف أرسل إليه ملائكته تخاطبه بالبُشرى، وهو يصلي في مكان عبادته ومناجاته الخاص به.

بَشَّرته الملائكة بغلام اسمه يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، سمّاه الله تعالى بنفسه باسم لم يُعرف من قبلُ، وجعله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أَيْ: سيكون مؤمنًا ومتابعًا لسيدنا عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا يأتي بدعوته، ونبي الله عيسى هو المقصود بقول الله هنا ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فقد خلقه الله بأمر منه بدون أب، وبكلمة «كن»، وليس كما يتوالد البشر من أب وأم.

جاء الثناء على نبي الله يحيى لتصديقه بابن خالته نبي الله عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد ذكر عدد من أهل العلم أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما صلوات ربي وسلامه، وهذا فيه دلالة على سرعة استجابته لِما جاء من عند الله، وانقياده التام لأوامر الله، وهو الأمر الذي عاشه سيدنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إيمانه بدعوة محمد ﷺ لمّا جاء بها، ومن قبله عاشته أمّنا خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أقول: وهو الأمر الذي يحتاجه المسلم في تعامله مع نصوص هذه الشريعة الغراء، وقبوله بأمر الله ونهيه لعلمه أن الخير العظيم في الدَّارَيْن لا يكون إلا بذلك.

ما أجملها من بشرىٰ لنبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ! فهي لم تقتصر علىٰ إنجاب الولد بعد الحرمان، ولكنها حملت خبرًا لعله من أكثر ما يسعد قلب الأب ويجعله مطمئنًا، إنه خبر صلاح هذا الولد، واصطفائه ليكون نبيًّا، وليكون علىٰ العقيدة الصافية، وليكون سيِّدًا، أي: قُدوة في الرأي والعلم، وفي العبادة والخُلق والوَرَع والصلاح، وهذا يدل علىٰ أنه سيفوق قومه في الخصال الطيبة والصفات الحميدة، حتىٰ يقدموه علىٰ أنفسهم، وهذا ما حصل معه في صباه وشبابه، كما أخبرنا الله بذلك في قوله: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴾ [مَرْيَمَ: ١٢-١٤].

ثم وصفه القرآن وأثنىٰ عليه بأنه كان ﴿وَحَصُورًا﴾، أي: لا يقدر علىٰ إتيان النساء وجِماعهن، بل حُصِر عن ذلك، فلا يأتيه أولاد.

وقد أورد أهل العلم سؤالًا هنا وأجابوا عنه، فقالوا: أين المنّة والإنعام في كونه حصورًا لا يأتي النساء، مع أن عدم القدرة علىٰ النكاح تُعدُّ نقصًا في الرجال ؟ وأجابوا عن ذلك بأنَّ وجه الفضل والإنعام يكمن في عصمة نبي الله يحيىٰ عن إتيان الذنوب المتعلقة بذلك، ثم في حفظ الله تعالىٰ له من ذلك، ثم في تفريغ قلبه للعبودية وقطع أكثر ما يشغله عنها.

ومن أهل العلم من لم يرتض هذا المعنىٰ، بل ردّه وبيّن أن سيدنا يحيىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يُحْرم الأبناء والقدرة علىٰ الجماع والإنجاب، وإنما حَصَر الله تعالىٰ نبيَّه عن الفواحش وعن الرغبة في النساء والفتنة بهن، وحفظه من ذلك فكان من أهل العفة وحسن المراقبة والإحسان، واستأنسوا لتفسيرهم هذا بسؤال زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ربه بأن يعطيه ويهبه ذرية طيبة، والذرية تشمل الأبناء وأبناءهم، وهذا قول كثير من المفسرين.

﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بشارة عظيمة أكرم الله تعالىٰ بها نبيه، فقد أعْلمه بأنه اصطفاه للتبليغ عنه، والدعوة إليه كما اصطفىٰ والده، وأنه سيكون حلقة من حلقات التأثير في الأمر والنهي والبلاغ عن الله جل في علاه.

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ ﴾

يتعجب نبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ولادة امرأته بعد كِبَره وضعفه، كِبَره الذي لا يولد لمثله فيه، وضعفِه الذي كان شديدًا ومتناهيًا، كما بيَّن ذلك قول الله: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴾ [مريم: ٨].

ثم إن زوجته كانت عقيمًا لا تلد، وهذا أمر لازمها من شبابها، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: ٨]، فكيف يحصل ذلك لها وقد كبرت في سنِّها، ولا يُولد لمثلها ؟!

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ هذا أمر الله وقد قدّره وأراده وهيّأ أسبابه، فلا مانع له، ولا رادّ لفضله، فكما خلقك يا زكريا من قبل ولم تكُ شيئًا، فكذلك يخلق منك ولدك ويجعل لك ذرية.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾

طلب سيدنا زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الله تعالى علامةً على أن هذا النداء الذي جاءه كان من الملائكة، وأن ما سمعه كان صِدقًا وحقًّا، وأنه سيكون قريبًا عنده ابنٌ اسمه يحيى، وكأنّه أراد من ذلك أن يطمئن قلبه وتهدأ نفسه، وكأن مشاعر الفرح اختلطت بمشاعر التعجب فطلب ذلك لتقرَّ عينُه، كما فعل سيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قول الله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٠].

جعل الله تعالى له آية ليعلم بها صدق الخبر، وقد كانت آيته أن أمسك الله عليه لسانه، وحبسه عن النُّطق والكلام لمدة ثلاثة أيام، فكان لا يكلم الناس إلا بالإشارة باليد أو الرأس. قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مَرۡيَم: ١٠]. وسويًّا، أي: إن لسانه سويٌّ صحيح ليس به مرض أو علة أو خرس، ومع ذلك لا يستطيع الكلام لأن الله تعالى أوقفه ومنعه.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أمره الله تعالى بالإكثار من ذكره والإكثار من التسبيح خصوصًا، وهذا يدل على أن إمساك لسانه كان عن جميع أنواع الكلام ما عدا التسبيح والذِّكر، ويدل على أن العبد يُكْثر من اشتغاله بذكر الله وإن أصابه البلاء، ولا ينبغي أن يفتر لسانه عن التسبيح صباحَ مساء، فإن كثرة ذكر الله علامة من علامات صلاح العبد وتوفيقه من الله. قال الله تعالى في صفة أولي العقول والألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١].

ثم انظروا في جمال هذا الذكر لو عاش القلب معه وتلذذ، وانظروا في أثره في حياة الذاكر لو فقه معاني ما يقوله، وانظروا في سعادة قلبه يوم يتفيأ ظلال أجمل الكلام وأحلاه. قال الله

تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

وهنا توجيه نفيس لمن أراد شكر الله تعالى على نعمائه وآلائه التي لا تنقضي ولا تنقطع، فمن أراد ذلك عَظّم ربه بكثرة ذكره والتسبيح بحمده بالعشي، أي: بعد الظهر حتى المغرب، وكذا بالإبكار، أي: بعد الفجر حتى شروق الشمس.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾

تنادي الملائكة أُمَّنا مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ، بعد أن تقبلها ربُّها مُحرَّرةً لخدمة البيت المُقَدَّس، مريم من بيت عمران وآله وذريته، وهو بيت طيِّبٌ مبارك اختاره الله واختصه بمكرمات عِدة.

جاءت الآيات لتخبرنا عن مريم بعد أن أخبرتنا عن أمها عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، كيف أن الملائكة نادتها، وبشّرتْها باصطفاء الله لها وتزكيتها، وما خصَّها به من كرامته والتوفيق لطاعته.

لم تكن مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ نبيَّةً من الأنبياء، ولكنها كانت من أولياء الله وأصحاب الكرامة العظيمة، ومعلوم لديكم أن النبوة خاصة بالرجال لعدد من الأدلة في ذلك، ولأن مهام النبوة تصعب على الأنثى بحكم طبيعتها، ومعلوم لديكم أن تكليم الملائكة ليس خاصًّا بالأنبياء والرسل، ولكن الله قد يخص به من يشاء من البشر.

ثم إن الملائكة بشَّرتها بأن الله طهَّرها، وهذه تزكية لها من فوق سبع سماوات تكفيها وربي، وتطهيرها كان من كل سوء ونقيصة، ومن الضلال والزيغ، ومن ارتكاب ما يسخط الله.

ثم إن الله اختارها وفضلها على نساء زمانها لكثرة عبادتها وزهدها، ولعظيم شرفها وطُهرها، بل هي خير نساء الجنة كما جاء في الحديث.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ». أي: خير نساء زمانها مريم عليها من الله السلام، وخير نساء زمانها خديجة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

ومنها: ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

وأخرج أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَّ أَرْبَعَةَ خُطُوطٍ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ لِمَ خَطَطْتُ هَذِهِ الْخُطُوطَ؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ الْجَنَّةِ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ ابْنَةُ مُزَاحِمٍ».

ولا يفوتكم حال قراءة هذه الآية، أن تعلموا أن فضل الله العظيم بالاصطفاء والتكرمة لم ينقطع عن نساء العالمين، وقد وجدنا زماننا من النساء الصالحات القانتات العابدات، ما تطيب له الخواطر، وتفرح به النفوس المؤمنة، ولسان حال الواحدة منهن: على خُطى أمّنا مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ.

﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

أرشدتها الملائكة إلى كثرة العبادة والإخلاص فيها، وإلى الصبر عليها والخشوع فيها، وهذا له منافعه التي لا تخفى على من أراد جنة الله ورضوانه، فمن منافعه أنه علامة عبوديتها الحقّة التي اصطفاها الله من أجلها، وفيه إعانة لها على ما سيأتيها من بلاء ولادة نبي الله عيسى بدون أب، وفيه إيناس لما تخشاه من كلام الناس الذي قد يجلب لها الحزن، فإن كثرة العبادة في البلاء والمحن سبب لراحة النفس، وسداد القول والعمل، وحفظِ الله للعبد، وفيه فرار من الفتن، وهو علامة على قوة الإيمان بالرب العظيم.

يا مريم اقنتي، أي: أطيعي الله والزمي عبادته متخشعة له ومتذللة، وكذلك أوصتها الملائكة بأن تسجد وتكون ممن يركع لله العظيم، كما هو حال الصالحين من الراكعين. ويُحتمل أن يكون الأمر محمولًا على الوصية بصلاة الجماعة مع المصلين في مكان العبادة.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

نشأ نبينا ﷺ في مكة، وأمضى حياته قبل النبوة فيها، وقد غلبت على أهلها الأمية والجهل، ولم يكن عندهم علم كما كان عند أهل الكتاب، ولا حصل لنبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن تلقى علمًا من علوم الأولين قبل أن يُوحى إليه، بل كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ومثل هذه الآيات تدل دلالة قاطعة على أن القرآن أُنزل من عند حكيم خبير، وأن محمدًا ﷺ نبي من عند الله نزلت عليه الرسالة فبلغها.

يخبر ربنا جل وعلا عن وحيه الذي قصَّ علينا قصة آل عمران، وهي قصة لم يعلمها نبينا ﷺ من قبل، ولا علمها قومه بكل هذه التفاصيل، ولم يكن يعلمها إلا قليل من أحبار أهل الكتاب ورهبانهم، ولم يكن علمهم بها منقولًا بين الناس ومعروفًا.

وكأن الآية تربط على قلب حبيبنا وقرة أعيننا ﷺ، وكأنها تقيم الحجة على من كفروا به، وتقول لهم: من أين جاءه هذا العلم إن لم يكن من عند العليم الخبير؟! وكيف تكفرون به وبالقرآن وكل آية فيه تنبئكم عن صدق الرسالة وصدق من جاء بها ؟! وكيف يقع الشك في قلوب أهل الكفر وأنت تخبرهم بأخبار أقوام لم تكن بينهم ولا عشت معهم ؟!

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

إخبار من الله تعالى بما حصل مع زوجة عمران لما ولدت مريم، والتي مات أبوها قبل ولادتها، وكيف تنافس صالحو بني إسرائيل على كفالة أمّنا مريم التي تقبلها الله خادمة لبيت المقدس كما نذرت أمُّها.

وإلقاء أقلامهم هنا بمعنى أن القرعة حصلت بينهم لينالوا شرف ذلك، وأن كل واحد منهم رمى قلمه الذي كان يكتب به مكتوبًا عليه اسمه، ثم لما حصل الاقتراع، كانت الكفالة لنبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ زوجِ خالتها كما أخبرت الآيات السابقة.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يمتد السياق القرآني في بيان فضائل عمران وآله وذريته، وكيف أن الله اصطفاهم بما اصطفاهم به.

تأتي الآية لتُخبر عما حصل مع مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، في قصة ولادتها نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدون أب، هذه التفاصيل التي كفرت بها طوائفُ من غير المسلمين، وكانت سببًا لغلوِّ طوائف أخرى في نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

تُبشرُ الملائكة سيدتنا مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ بأن الله تعالى سيُوجِدُ منها ولدًا عظيمًا، له شأن كبير.

ومعنى ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: إليك خبر من الله لك سيكون سببًا لسرورك وسعادتك: سيَخلق الله ولدًا لك بكلمة «كن»، وبدون السبب المعتاد وهو وجود الزوج. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ يكون نسبه إلىٰ أمه، ويشتهر بين العالمين بهذا الاسم، ولا يعرفه المؤمنون إلا به، وليس كما افترىٰ اليهود عليه وعلىٰ أمه بأنه ابن زنا، ولا كما زعم النصارىٰ بأنه ابن الله، تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وسُمي بالمسيح لأنه مُسح بالبركة، أو لأنه مُسح فكان مطهرًا من الذنوب.

﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ ستكون له مكانة عظيمة بين الناس، خواصهم وعوامهم، وسيعطيه الله النبوة التي لا يعطيها إلا لمن عظم شأنه عنده، وسيؤتيه الإنجيل كتابًا من عنده، وسيجري علىٰ يديه المعجزات، ويرىٰ الناس له من الفضائل ما يرون.

أمّا في الآخرة، فيقربه الله في أعلىٰ الجنان، وستكون له المنزلة الرفيعة في الجنات مع إخوانه من النبيين والرسل، وسيكون ممن يُسكنه الله في جِواره ويُدنيه منه.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾

هذا من تمام البشرىٰ لأمنا مريم بولدها عيسىٰ عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ، وفيه كذلك بيان لمقام سيدنا عيسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ عند الله، وبيان معجزاته وخصاله الطيبة.

جاءت الآية لتخبرها بتتمة البشرىٰ لها ليطمئن قلبها، ولتكون علامةً علىٰ حفظ الله لها ولولدها.

أخبرتها الملائكة أن ولدها عيسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، سيتكلم في مهده، وهو مضجعه وفراشه، سيتكلم كلامًا مفهومًا وهو رضيع، وكلامه في هذا العمر معجزة عظيمة تدل علىٰ شأن هذا الغلام عند الله، وتدل علىٰ أنه محفوظ بحفظ الكريم، ولا أدلَّ علىٰ ذلك من كلامه الذي تكلم به بعد أن وُلد، فقد أعلن أمام قومه علىٰ مسمع منهم أنه عبد لله وحده ولن يشرك به شيئًا، وأن الله تعالىٰ أوصاه بأداء الصلاة وإيتاء الزكاة وبرِّ أُمِّه عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ وعليه. قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

وقد ثبت في البخاري ومسلم كما ثبت في القرآن كلام نبي الله عيسىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في المهد، وثبت في السنة كذلك كلام الغلام في قصة جريج، وهو رجل عابد في بني إسرائيل، وكان من خبره أن مرَّت عليه أمُّه فنادته، فأقبل علىٰ طاعته ولم يستجب لها، فدعت عليه ألا يموت حتىٰ يرىٰ وجوه الزانيات، فاتهمته امرأة بأنها أنجبت طفلًا منه، فلما أرادوا معاقبته أنطق الله الطفل، وأخبرهم ببراءته.

وثبت كلام غلام ثالث رضيع من بني إسرائيل كذلك، وكان من خبره أنه كان يرضع من أمه فمرَّ رجل حسن جميل فدعت لولدها أن يكون مثله، فترك ولدها الرضاعة وسأل الله ألا يكون مثله، ثم مرَّت أَمَةٌ من الإماء فدعت لولدها ألا يكون مثلها، فترك الرضاع وسأل الله أن يكون مثلها.

وثمة آثار مروية فيمن تكلموا في مهدهم اختلف أهل العلم في تصحيحها، كقصة كلام ابنِ المرأة التي كانت تخدم في بيت فرعون وتمشط شعر ابنته، فقد طلب طفلها منها وهو رضيع أن تثبت على توحيد الله، وتموت على الحق.

واختلفوا كذلك في قصة الغلام الذي طلب من أمه أن تموت على التوحيد وتصبر في قصة أصحاب الأخدود، اختلفوا هل كان رضيعًا في المهد أم كان غلامًا.

وأخيرًا ممن ذكرهم أهل العلم فيمن تكلم في المهد، شاهدُ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قول الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، حيث ذهب بعض أهل التفسير خلافًا للجمهور إلى أن الشاهد الذي تكلَّمَ هنا كان صبيًّا صغيرًا لا يزال في مَهْده، ويستدلون على ذلك بما أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ».

وقد ناقش أهل العلم هذا الرأي بأنه من كلام ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ولم يصح مرفوعًا إلى النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما أخرجه الحاكم، ولعله اجتهاد منه خالف فيه غيره من الصحابة الكرام والتابعين الأجلاء، ثم إن الآية لم يأت فيها أي إشارة في السياق إلى أن المتكلم كان صغيرًا.

﴿وَكَهْلًا﴾ ومن تمام النعم على هذه العائلة الطيبة المباركة، أن الله تعالى سيكرم نبيه بكلام الناس حال كهولته ليدعوهم إلى الله تعالى بعد أن يوحَى إليه، وكهولته تشير إلى كِبَرِ سنه بعد البلوغ وقبل أن يدخل سن الشيخوخة، وتشير إلى الرجل التام السوي، وكان من حفظ الله له في كهولته بعد أن أرسل إليه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأوحى إليه بالرسالة والدعوة، أنْ قوَّاه وربَط على قلبه بدعوته، وأيده بالمعجزات، وأكرمه بالصبر على أذى من أُرسل إليهم، ومنع عنه كيد اليهود ومن كفر معهم، حتى رفعه إليه.

ولا يغيب عنا أن هذه البشرى تبثُّ طمأنينة عظيمة في قلب الأم، لأن ولدها سيعيش إلى زمن كهولته، وأن الله تعالى مولاه ومُكرمه وناصره.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وسيكون هذا النبي من صالحي الناس وأوليائهم وأنبيائهم الذين أصلح الله حالهم، وسدَّدهم وجعل الخير في أقوالهم وأفعالهم.

ما أرقاها من شهادةٍ شَهِد بها الله لنبي الله عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وما أعظمها من مكانة كتبها الله له بين الخلائق؛ كلُّ ذلك لئلا تزل أقدام في عقيدتها فيه.

﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾

تعجّبت سيدتنا مريم من بُشرىٰ الولد، كما تعجّب من قبلها نبي الله زكريا ببُشرىٰ يحيىٰ عليهم جميعًا سلام ربي.

قالت في مناجاتها لربها لما أخبرتها الملائكة: يا رب، كيف يكون لي ولد وأنا لم أتزوج، ولم يقْربني رجل، كما في قول الله: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٠].

قال الملَك لها: أراد الله ذلك، وقضاه بعلمه وحكمته وقدرته، وهو سبحانه لا يُعجزه شيء، ولا رادَّ لأمره ولا ممانع ولا مؤخِّر، وهو سبحانه يخلق ما يشاء، من زوج أو من غير زوج، ذكرًا أو أنثىٰ، صحيحًا أو مريضًا، يُعمر أو يموت صغيرًا. قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص: ٦٨].

قال غير واحد من العلماء: إن قول الله ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ في حق عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، يحمل دلالة واضحة علىٰ تصريح القرآن بأنه مخلوق وليس إلهًا، وأنه خُلق من أمٍّ فقط، لأن كلمة «الخلق» تستعمل في إيجاد الشيء ولو بغير الأسباب المعروفة، بخلاف كلمة «الفعل» التي جاءت في حق نبي الله يحيىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قول الله تعالىٰ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، ولذلك نقول: خلق السماوات والأرض، ولا نقول فعلهما.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾

ومن نعم الله تعالىٰ علىٰ نبيه عيسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، التي بشّرت الملائكة كذلك بها مريم عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ، أن الله تعالىٰ سيُعلّمه الكتاب، أي: ما اشتملت عليه الكتب السابقة من أصول العقيدة والأحكام والأخلاق. ومن أهل العلم من قال: الكتاب، أي: يعلمه الكتابة.

ويُعلِّمه الحكمة، أي: يُعلِّمه حسن تدبير الأمور، والنظر في عاقبتها ومآلاتها، حتى يقدر على التمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، ويقدر على فهم الأشياء على ما هي عليه. والحكمة تمنع صاحبها من الوقوع فِي الغلط والضلال والجهل، وتزجره عن القبيح، وهي علامة على سلامة العقل واعتداله.

وسيُعلمه ربنا علوم التوراة التي أُنزلت على نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكذلك علوم الإنجيل الذي أنزله الله عليه، وتذكروا أن المقام هنا مقام امتنان على أمِّنا مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، ومقام إظهار لرفعة أنبياء الله وقدر الكتب التي أُنزلت عليهم.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾

اختار الله سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ واصطفاه ليكون رسولًا من رُسل بني إسرائيل، لا رسولًا إلى الناس كافَّةً.

سيرسله ربنا ومعه آيات ومعجزات، تَدلُّ على أنه مُرسل من عند الله، وعلى أنه عبد لله، وصادق في خبره ودعواه، وهذه المعجزات هي:

﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ من المعجزات التي أكرم الله بها نبيه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وامتن عليه بها، أنه كان يخلق من الطين على هيئة الطير، بمعنى أنه كان يشكل من الطين صُورَةً كَصُورَةِ الطير وشكله، ثم ينفخ في تلك الصورة، فتكون طيرًا ذا روح، وتحصل الحياة له بإذن الله وقدرته وأمره.

﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإذن الله يبرئ الأكمه ويشفيه، وهو من وُلِد أعمى، فيصبح بصيرًا يرى بإذن الله.

وكذا يبرئ الأبرص، وهو مرض يصيب الجلد، ومن أهم أعراضه بُقَعٌ شَدِيدَةُ الْبَيَاضِ تَظْهَرُ عَلَى الْجِلْدِ، وقد تَعُمُّ الجلد كله، فيصبح شديد البياض.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: يدعو الله أن يحييهم فيقومون من قبورهم، أو يدعوهم بأسمائهم فيقومون، فيُكلمهم ويرجعون أمواتًا، كل ذلك بإذن الله وقدرته، وإرادته ومشيئته.

وقد نص كثير من العلماء على أن معجزات سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كانت مناسبة لزمانه الذي علا فيه شأن الطبِّ وارتفع، لتكون الحجة عليهم أبلغ وأظهر، فإنّ أهل الطب مهما بلغوا من العلوم، فإنهم لا يقدرون على مثل هذه المعجزات، وذلك كما كانت عصا سيدنا موسى أبلغ لقومه الذين انتشر فيهم السحر، وكانت معجزة القرآن الذي أُنزل على سيدنا محمد ﷺ أبلغ لأهل البلاغة والفصاحة.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أُخْبِرُكُمْ بِمَا أَكَلَ أَحَدُكُمُ الْآنَ، وَمَا تدَّخرونه وتخبئونه مما لم أشاهده ولم أعلمه منكم، كله بوحي من الله وإلهام.

ولا يقولن قائل: يمكن أن يكون هذا من علم التنجيم أو الكهانة فلا تقوم به الحجة، فإن إخبار نبي الله عيسى بما يدخرونه لم يكن عن طريق حسابات المنجمين، وأساليب الكهنة وحيلهم، وإنما كان بوحي من الله دون وسائط ولا حيَل، يعلم ذلك من رآه وعاشه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن في ذلك كلِّه دليلًا على صِدق ما جئْتكم به، وما دعوتكم إليه، فهذا مما لا يطيقه البشر ولا يقدرون عليه، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله، وقد أجراه على يدي لعلكم تهتدون إن أردتم طريق الهدى والإيمان، ولعلكم تتركون طريق العناد والمكابرة.

تأملوا كيف تكررت عبارة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرتين، وكيف جاءت عبارة ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وذلك لئلا يستدل النصارى بمثل هذه المعجزات على ألوهية عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل جرت هذه المعجزات على يده بإذنٍ من ربه وخالقه جل وعلا، وصلى الله على رسوله وعبده عيسى وسلَّم.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

دين الأنبياء واحد، وإن اختلفت شرائعهم؛ فالدعوة إلى التوحيد والإيمان بالرسل واليوم الآخر هي دعوتهم، إلا أن بعض الشرائع نسخت عددًا من أحكام الشريعة التي سبقتها، كما هو الحال مع شريعة محمد ﷺ.

جاء عيسى مُصدقًا ومُؤمنًا بما في شريعة موسى عليهما صلوات ربي وسلامه، ومؤمنًا بها وعاملًا بما في التوراة من أحكام إلا ما خُفِّف فيه كما ذكرت الآية، فقد أحلت شريعة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم في شريعة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وبقي ما عداها معمولًا به عندهم ومطلوب منهم أن يؤمنوا به.

﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ معي من الدلائل القاطعة، والحجج الباهرة، على صدقي ما عرَفتم، فأوصيكم بتقوى الله تعالى، والالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، وأوصيكم بالوفاء بالعهد والوعد، وأوصيكم بالاستجابة لي فيما أوحي إلي من الهدى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾

واعلموا أن الله تعالى خالقي وخالقكم، ومدبِّر أمري وأمركم، فما رأيتموه من معجزاتي، إنما هي بما أعطانيه سبحانه، فله الأمر والملك أولًا وآخرًا، وإنما أنا عبدٌ.

إن العبودية لله وحده هي الصراط المستقيم الذي لا ينفع غدًا بين يديه إلا هو، فالواجب على من فهم الدنيا على حقيقتها، وأدرك أنها دار ممر إلى ما بعدها أن يلزم طريق النجاة ويصبر فيه وعليه.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾

جعل الله تعالى لنبيه عيسى عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أصحابًا وأعوانًا على الخير، وهذه نعمة لا يستغني عنها نبي أو داعية إلى الله أو قابض على دينه، هؤلاء الحواريون هم صفوة المؤمنين من حوله وخُلَّصهم، وهم الذين ينصرون دعوته ويجدهم حوله في حله وترحاله، وفي يسره وعسره.

وجد عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من قومه أنهم لن يتركوا طريق الكفر والعداء، وأنهم سائرون في طريق الضلال، وأحس منهم أنهم عازمون على الكيد له وإيقاع الشر به، وربما توارد إلى مسمعه أنهم ينوون قتله والتخلص منه، فاستعان بعد الله بمن ينصره في محنته التي لا مناص عنها، وطلب من قومه ثلة من المؤمنين عمَّر حُبُّ الله قلوبهم، وما أرادوا من حياتهم إلا أن يرضى عنهم ويكرمهم بجنته، فاستجاب له المخلصون الصادقون ممن آمن به، فنصروه وقالوا: آمنا بالله وبرسوله، واشهد بأننا مستسلمون ومُنقادون لأمر الله، ومُخلصون له.

وهذا يُذكِّر بأصحاب محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ورضي الله عنهم، الذين نصروه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وعيالهم، لتبليغ دين الإسلام.

بل ويذكرنا بأولئك الدعاة إلى الله، الذين حملوا هَمَّ الإسلام ونذروا أوقاتهم له، وبلغوه على أحسن وجه وخير حال، إلى أيامنا هذه، وكأنهم فهموا حقيقة الطريق إلى الله تعالى، وأنه يحتاج إلى تضحية وصبر وثبات، وكأنهم سمعوا نداء الله تعالى في القرآن الكريم فأحسنوا الاستجابة له، أعني قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [التحريم: ١٤].

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾

هذا من تمام كلام الحواريين أصحاب سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذين عاهدوه على نصرته ونصرة دينه، وإعانته على الحق الذي جاء به.

يَظهر في مثل هذه الدعوات تعلق الحواريين بخالقهم، ويَظهر أثرُ عقيدتِهم الصافية وإيمانِهم الحق في نصرة شريعتهم ونبيّهم، يقولون: يا رب، اكتبنا واحشرنا مع من شهدوا لرسلك وأنبيائك بأنهم مبعوثون من عندك، وتقبلنا فيمن شهدوا لنبيك عيسى بأنه رسولُ صدقٍ، وأنه عبد لله وحده، وأنه جاء من أم بلا أب، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك، وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون زمن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكلامهم يصلح دستورًا لكل من بحث عن الحق، وكان صادقًا في الوصول إليه، وسأل الله تعالى الهداية.

ونحن نشهد أن الله واحد، وأن عيسى نبي كما شهدنا لمحمد ﷺ بأنه نبي، ونشهد أنه خلق من أم بدون أب كما أخبرنا القرآن العظيم، شهدنا بذلك وآمَنَّا وصدَّقنا. أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ الله مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ».

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾

الذين كفروا برسول الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبدعوته من بني إسرائيل عمومًا ومن اليهود خصوصًا، لم يكتفوا بكفرهم هذا، بل مكروا بنبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأرادوا القضاء عليه، وقتلَه وصلبَه، كما فعل أسلافهم وأجدادهم من قبل مع عدد من أنبياء الله.

دبّر أعداء نبي الله عيسىٰ قتْله، فذهبوا إلىٰ ملك ذلك الزمان، وكان كافرًا، واستطاعوا أن يستثيروه ليقتل نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، عن طريق إخباره بأنه جاء ليفرقَ بين الناس، ويُضلَّهم ويدعوَهم لعصيان هذا الملك، وأنه ابن زانية.

وهذا حال كثير من المكذبين والمستكبرين حتىٰ هذا الزمن، فإنهم لا يقابلون الدعوة إلىٰ التوحيد وتحكيم شرع الله بالحجة والمجادلة بالتي هي أحسن، بل يعمدون ويتفننون في إيذاء الدعاة والمُصلِحين، بل وقتْلهم واستئصالهم إذا لزم الأمر.

ولكن الله تعالىٰ مكر بهم من حيث لا يشعرون، وكان مكره سبحانه خيرًا من مكرهم.

أرسل الملك جنده لإحضار سيدنا عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقَتْله ثم صلبه، فألقىٰ الله صورة عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ غيره، ولم يمكنهم من قتله، ثم رفعه سبحانه إليه، وقتل الجند رجلًا غيره وصلبوه بعد أن أهانوه. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

وربنا جل وعلا أخبر أنه يخدع المنافقين ويمكر بالكافرين، كما دل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وهذه الأفعال من الله تعالىٰ ذكرت جزاءً علىٰ خداع المنافقين ومكر الكافرين، فهي من باب المقابلة علىٰ صنيعهم، ومن باب المجازاة بالمثل، فكانت من الله عدلًا وكمالًا.

ومثل هذه الآيات لا يفوتنا أن نتلمس فيها معية الله تعالىٰ لمن عاهد الله علىٰ نصرة دعوته، وبَذْلِ الغالي والنفيس من أجلها، فلتقرَّ عينُ مثل هذا الصنف من الناس، ولا يحزن ولا يخف، فإن الله حافظه وناصرُه، والله خير حافظًا، وهو أرحم الراحمين.

أخرج أحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو بِهَذَا:«رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَيَسِّرْ لِيَ الْهُدَىٰ، وَانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ».

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

مكر الله عز وجل لنبيه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبشره الله بالحفظ والنجاة، وأخبره أنه سيتوفاه ويرفعه إليه، وأنه سيطهره وينصر أتباعه وأصحابه والدعاة إلى دينه الحق.

جاءت النصوص الشرعية بأدلة صحيحة صريحة في إثبات نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آخر الزمان، وأخبرت أنه سيكون علامة من علامات يوم القيامة، وأنه سيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، وسيؤمن به النصارى بَشَرًا لا إلهًا، وداعيًا إلى التوحيد لا التثليث، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النِّسَاء: ١٥٩]، وقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٦١].

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُول الله ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُم ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ».

والمقصود أنه سيكون مسلمًا يؤدي شعائر المسلمين، كما علمهم إياها نبي الله محمد ﷺ. أخرج مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ (اسم مكان بين المدينة ومكة) حَاجًّا، أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لَيُثَنِّيَنَّهُمَا (أي: يقرن بينهما في النية)».

ولقائل أن يقول: إن الآية ذكرت أن الله تعالى توفى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبعد ذلك ذكرت أنه رُفع إلى السماء، فكيف نوفق بين هذا وبين عقيدتنا بأنه لم يمت ؟ وكيف نجمع بين الأدلة لئلا تكون غرضًا لمن يغمزون ويلمزون بعقائدنا وشريعتنا ؟ وما أكثرهم ! وقد فعلوا.

والجواب أن أهل العلم تكلموا في ذلك قديمًا، وبينوا أنه يمكن التوفيق بين النصوص عن طريق أربعة أنواع من التفسير في الآية، تحتملها قواعد التفسير وأصول الشريعة:

١ – أكثر أهل العلم على أن المراد هنا بالوفاة النوم، وليس الموت، فقد أطلق القرآن لفظ الوفاة على النوم في أكثر من آية، كما في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٠]، وقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٤٢].

وكذلك أُطلِق لفظ الوفاة على النوم في السُّنة، كما في الحديث المتفق عليه من حديث الْبَرَاءِ بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ قَالَ: «اللهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا، وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ»، وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

فيكون معنى الآية هنا أن الله تعالى ألقى عليه النوم ثم رفعه إلى السماء وهو نائم لم يمت، ثم لما يرجع في آخر الزمان يموت كما يموت البشر بمفارقة الروح الجسد.

٢- ومن أهل العلم من حمل الوفاة هنا على الحقيقة، وقال: إنَّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، وبيان ذلك أن واو العطف في الآية لا تفيد الترتيب، وإنما تفيد مطلق الجمع، كما نقول في اللغة: دخل محمد وزيد وعلي، فهذا لا يدل على دخولهم على الترتيب المذكور، وكذلك هنا في الآية، فإن الواو لا تدل على أن الوفاة حصلت قبل الرفع إلى السماء، ويكون في الآية هنا تقديم وتأخير، تقديره: إني رافعك إليَّ ومتوفيك آخر الزمان.

فيكون المعنى هنا أن الله تعالى رفعه إلى السماء وهو حيٌّ فيها لم يمت، رَفَعه دون أن يلقيَ عليه النوم، ثم لما يرجع في آخر الزمان يموت كما يموت البشر بمفارقة الروح الجسد.

٣- أن الوفاة هنا على الحقيقة، ولكنها حصلت قبل رفعه إلى السماء، بدليل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٧].

وأصحاب هذا القول جعلوا إرساله في آخر الزمان بعثًا جديدًا خاصًا بسيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا يموت بعد ذلك، بل ينتقل من هنالك إلى الدار الآخرة.

٤- الوفاة هنا بمعنى أن الله تعالى قبضه ورفعه إليه دون موت أو نوم، فإن الوفاة من معانيها التوفي بمعنى أخذ الشيء وقبضه، فنقول في اللغة: توفَّى الدَّيْن إذا أخذه كاملًا، فالله عز وجل قبض عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ روحًا وبدنًا إليه، ثم لمَّا يرجع في آخر الزمان يموت كما يموت البشر بمفارقة الروح الجسد.

قلت: والتفسير الأول عليه أكثر أهل العلم كما أسلفنا.

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: سأرفعك إلى السماء، وأطهرك وأعصمك من أعدائك وأتباعِهم الذين أرادوا قتلك، وسَأُبْعدك عن رِجْسهم وكفرهم، وعن تُهمهم الباطلة التي زعموا فيها بأن نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابن زنا، وأنه ساحر، وغيرَ ذلك.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ﴾ ومما امتنّ الله تعالى به على نبيه عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنْ كَتب لكل من اتَّبعه من أهل العقيدة الصحيحة فيه أن تكون لهم الكلمة والغلبة، وأن ينصرهم على طوائف الكفر في بلادهم من اليهود وغيرهم إلى يوم القيامة.

وبيان ذلك أنّ الله تعالىٰ لمّا رفع نبيه عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ السماء، تفرق أتباعه وأصحابه في بني إسرائيل يدعون إلىٰ دينه، ولكن الانحراف دخل إليهم عن طريق (بولس) اليهودي الذي لم يكن أصلًا من أصحاب عيسىٰ ولم يكن من أتباعه، ثم امتد هذا الانحراف وتوسع حتىٰ افترقوا إلىٰ طوائف في حقيقة نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فطائفة جعلت عيسىٰ ابنًا لله، وطائفة أخرىٰ قالت: هو الله، وأخرىٰ قالت: ثالث ثلاثة، كما حكىٰ القرآن الكريم مقالاتهم هذه ونقلها، وبيّن كفر مُعتقديها وقائليها، فضْلًا عن كفر اليهود به وتكذيبهم له. قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ثم لما بعث الله محمدًا ﷺ، آمنت أُمَّته بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسولًا وبشرًا، فجعلها الله فوق كل طوائف الكفر، حتىٰ ملّكهم أرض كسرىٰ وقيصر وكنوزهما، وصيّر الشام أرضًا إسلامية لهم، بل بشرهم بفتح روما في آخر الزمان كما وعد بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

وكأن هذه الآية تحمل البُشرىٰ لنبينا ﷺ، ولكل من صدقَ الله تعالىٰ في حمْل هذا الدين ونشْره، بأن الله تعالىٰ سيُظهر دينه، ويُظهر حمَلَته علىٰ عدو الله وعدوهم.

والآية تعلمنا أننا أحق بعيسىٰ ابن مريم ممن زعم أنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة، فهؤلاء كفروا به وبما جاء به من التوحيد، وتَبْقىٰ أمة محمد ﷺ هي من شهدت في الدنيا لكل الأنبياء والرسل بما جاؤوا به، وكذا ستشهد لهم غدًا بين يدي الرب. أخرج البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَيُدْعَىٰ قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا. فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَيُدْعَىٰ بِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا ﷺ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا». فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ قَالَ: «عَدْلًا ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾».

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ يرجع الناس يوم القيامة إلىٰ ربهم، ويحكم سبحانه بحكمه العدل بين جميع الطوائف والملل، في محكمةٍ يكون فيها الحكم كما يأتي:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

كل من كفر بالله العظيم، وفرّق بين رسله وكتبه، وغلا في نبي الله عيسىٰ ابن مريم، وخالف مِلَّته، وقال فيه الباطل فزعم أنه إله، أو ابن إله، أو ثالث ثلاثة، فإن الله تعالىٰ كتب عليهم عذابًا في الدنيا بتسليط أهل الإيمان عليهم وهزيمتهم وإنفاذ أمر الله فيهم، ثم لهم في الآخرة عذاب أشدُّ وأشقُّ، وما لهم من ناصر ولا ظهير ولا معين.

وأشير هنا إلىٰ أن تسليط أهل الإيمان ونصرَهم علىٰ أعداء الدين، له سُننه وأسبابه، التي إن تَخلَّفت؛ كانت الغلبة لأهل الكفر، وهذا ما يجعل حملة الدين في هذه الأمة في هذه الأزمان حريصين علىٰ ربط الأمة بأسباب النصر والتمكين، وما أقربهما من أهل الله.

بيَّنت النصوص الشرعية أنَّ الله تعالىٰ جعل للنصر أسبابًا وجعل للخذلان أسبابًا، وطلبت من المؤمنين أن يُعِدُّوا ما استطاعوا من قوة، وأن يبذلوا أسباب النصر والتمكين، ويراعوا سنن الله تعالىٰ في ذلك من مدافعة أهل الكفر، والقيام بحق دينهم، ونصرة شريعتهم، وأن يتحلوا بالصبر والثبات.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

أهل الكفر لا يغلبون أهل الإيمان من حيث هم كافرون، ولكنهم يتَتَبعون السُّنَن فيظفرون في زمن ما، ولعلَّ هذا التسلط الذي يجعله الله لهم علينا إنما هو لنرجعَ إلىٰ ديننا، ونتركَ مجاهرتنا بالزنا والربا وشرب الخمور وأكل الحقوق، ونُظهرَ شعائر عِزَّة هذا الدين من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجاهدة النفس في كلِّ ذلك.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أمّا أهل الإيمان والاستسلام لدين الله وشرعه، ممن آمنوا به إلهًا واحدًا، ولم يفرقوا بين أحد من رسله أو كتبه، فهؤلاء يُوَفِّيهم ربنا أجورهم في الدنيا؛ فيكرمُهم ويحفظُهم، وينصرُهم علىٰ عدوه وعدوهم، ويُحْييهم حياة طيبة ويباركُ لهم.

ثم يوم القيامة يعطيهم الأجر العظيم في الجنات بما صدقوا وصبروا، ويوفيهم الأجر الكامل لا يُبْخسون منه شيئًا ولا يُنْقَصون.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والله لا يرضى أن يَظْلِمَ العبدُ نَفْسه بالشرك والكفر، ولا يحبُّ أن يضعَ العبد العبوديةَ في غير مَحِلِّها، وينسبَ لله ما لا يليق به، ويعاديَ دينه ورسله، فإن هذا ظلمٌ، والله لا يحب الظلمَ وأهلَه.

أمَّا من جعل العبودية في محلها، وأخلص دينه لله، فإن الله تعالى يحبه ويرضى عنه ويرضيه.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

لفظة «ذلك» ترجع على ما ذكره ربنا من حال آل عمران، وقصة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ وولدها نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

يا محمد ﷺ: كل ما قصصناه عليك من حالهم مما لم تكن تعلمه من قبل، حقٌّ وصدقٌ لا مِرية فيه ولا شك، وهو من كلام الله تعالى وآياته، وفيه حكمٌ فاصل بين الحق والباطل، وفيه تذكير للناس مُحْكم، جاء من عند حكيم خبير فلا تلتفت إلى غيره.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

يستدل عدد من النصارى علينا نحن المسلمين، بأن القرآن وصف نبي الله عيسى بأنه كلمة من الله وروح منه، وهذا يدل على أنه ابن الله، وثالث ثلاثة.

جاءت هذه الآية لتبين مراد الله تعالى على أتم وجه وأحسن صورة، جاءت لتقول للنصارى: لا تتعجبوا من قصة ميلاد عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدون أب، ولا تَغْلوا بسببها في دينكم، فإن الله تعالى خلق من قبله نبيه آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدون أب، بل بدون أمٍّ كذلك، وإنما خلقه وسَوَّاه وصوره وكوَّن جسمَه من تراب، وهذا التراب أصابه ماء فكان طينًا لازبًا ذا لزوجة، ثم قال له: «كن»، فكان، فليس خَلْق عيسى بأعجب من خلق آدم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

فإن ظننتم أن طريقة خلق عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دليل على ألوهيته، فآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولى بأن يكون إلهًا من عيسى على طريقتكم، وإن تمسكتم بالآيات المتشابهة من القرآن لنصرة باطلكم، فإليكم آية محكمة تدل على وحدانية ربنا، وأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشرٌ.

وليست الآية التي معنا هي الآية المحكمة الوحيدة التي نرد إليها ما تشابه عليهم من الألفاظ والمعاني، بل هناك غيرها من الآيات التي تدل على وحدانية ربنا، وأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بشرٌ. قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزُّخْرُف: ٥٩]، وقال جل وعلا: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [الْمَائِدَة: ٧٥].

وأما وصف القرآن له بأنه كلمة من الله وروح منه كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فالمسلمون يقولون في عقيدتهم عن سيدنا عيسى بأنه كَلِمَةُ الله وَرُوحُهُ، أَلْقَاهَا إِلَى الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ الَّتِي لَمْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ، كما دلت الآية، وكما جاء في حديث الشفاعة المتفق عليه، أن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول للناس: «ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ الله وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَةَ الله وَرُوحَهُ» الحديث.

وبيان ذلك يأتيكم في ضبط معنى أمرين اثنين ذَكَرْتُهما الآية الكريمة:

الأول: قول الله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ هذا الوصف يقول به النصارى في حق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنهم جعلوا عيسى هو الكلمة التي اتحدت مع الخالق في بطن مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ فكان عيسى إلهًا، وكانت مريمُ صاحبةً للإله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

أما في عقيدتنا فَنَبِيُّ الله عيسى أثرٌ لكلمة الله التي تكلم بها، وهي قوله (كن)، وذلك لما أرسل الله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الطاهرة المطهرة العفيفة الطيبة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، فنفخ في جَيْب درعها (أي: لباسها)، ثم نزلت هذه النفخة بأمر الله تعالى إلى فرجها، ثم قال الله تعالى لها كوني فكانت نطفة في رحمها، وعاشت هذه النطفة كما يعيش غيرُها حتى كانت جَنينًا أَذِنَ الله تعالى بولادته، وهو نبيه عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قال الله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]. أي: في جيب درعها.

الثاني: قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هذا لا يدل على أن الروح جزء من الله وبعضٌ منه كما يقول النصارى ويزعمون، ولكن المعنى أن الله تعالى هو الذي خلق الروح، وهو الذي أَمَرَ وقدَّرَ أن تجري في بدن عيسى كما خلق غيرها، فهي من خلقه ومن عنده، كما في قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الْجَاثِيَة: ١٣]، فهذا لا يدل على أن السماوات والأرض بعضٌ من الله وجزء منه، ولكن إضافة السماوات والأرض وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الله إنما هي إضافة تشريف وتكريم كما نقول: ناقة الله وبيت الله، وهكذا.

وسبب تخصيص روح سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالذِّكر، وإضافتها إلى الله تعالى، وتكريمها عن غيرها هو أنها وصلت إلى أمنا مريم بدون وجود زوج كما هو حال الخليقة، ليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا، وليُظْهر لنا شيئًا من علمه وملكوته وعظمته.

أقول مزيدًا في البيان: الروح خلق من خلق الله وأمْرِه، وأضيفت إلى الله تعالى في بعض النصوص إضافة ملك وتشريف، فالله خالقها ومالكها، يقبضها متى شاء، ويرسلها متى شاء، كما في الآية هنا وكما في قول الله تعالى عن نبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

ومن أهل العلم من قال: إن المعنى هنا هو أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خُلق بنفخ من روح الله، وروح الله هنا هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي نفخ في درعها، وقال الله له (كن)، فكان. وقد دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأَنبِيَاءِ: ٩١].

وجاء تسمية جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالروح في هذه القصة في قول الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

والمطلوب: أن تؤمنوا أيها الناس بقدرة الله تعالى وعظمته، وأنه يخلق ما يشاء سبحانه، وأن آدم وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ عبيد لله، وأن عيسى آية من آيات الله تعالى في خلقه، كما هي آياته المبثوثة في السماوات والأرض والخلق جميعًا.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٦٠﴾

تثبيت لقلب النبي ﷺ ولكل المؤمنين، على ما بينه القرآن في حقيقة نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، عن طريق التأكيد على أن هذا هو الحق الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، ولا مكان للشك فيه أو القول بغير علم. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مَرْيَم ٣٤-٣٥].

والخطاب هنا وإن كان للنبي ﷺ، إلا أنّ فيه تعريضًا بغيره ممن شَكَّ ولم يؤمن برسالة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبحقيقته.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

هذه الآية معروفة عند أهل العلم بآية المباهلة، وسبب نزولها كما ذكر أهل التفسير والسِّيَر، هو قدوم وفد من نجران على رسول الله ﷺ، وقد كانوا على النصرانية، فجعلوا يحاجّون ويجادلون في عيسى ابن مريم، ويدافعون عن عقيدتهم الباطلة فيه.

أرشد الله تعالى نبيه ﷺ إلى مباهلة من عاند الحق، واستمرّ على باطِلِه مُكَابرة، وزعم في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خلاف العقيدة الصحيحة فيه، وخلاف الحق والعلم الذي أظهره الله وبيّنه.

والمباهلة أن يجتمع القوم إذا اختلفوا على شيء، فيقولوا: لعنة الله على الظالم منا.

ومباهلة هؤلاء المعاندين كما دلت الآية، تكون بأن نجلس نحن وإياكم، ونُحضرَ الأبناء والنساء من الطرفين، ثم ندعوَ بأن تنال لعنة الله الكاذب والظالم منا ومنكم.

وحضور الأبناء والنساء لتنالهم آثار لعنة الله لهم، وليكون في ذلك إلجاءٌ لهم ليعترفوا بالحق، أو يتركوا الخصومة والمجادلة بالباطل.

وقد استجاب نبينا ﷺ لنداء ربه، ودعاهم للمباهلة، وتوجه واستعد لها، كما دل على ذلك ما جاء في صحيح مسلم: «وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَقَالَ: «اللهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي».

طلب نصارى نجران إمهالهم، ثم أبَوا مباهلته خوفًا من عواقبها عليهم وعلى أولادهم ونسائهم وأموالهم، وبقوا على دينهم، ولجؤوا إلى المصالحة على أن يؤدوا إليه المال، ثم طلبوا من نبينا ﷺ أن يبعث معهم مِن أصحابه مَن يقبض المال الذي تصالحوا على دفعه، على أن يكون أمينًا وعالمًا في ذلك، فأرسل معهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة عامر بن الجراح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أخرج البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ العَاقِبُ وَالسَّيِّدُ، صَاحِبَا نَجْرَانَ (أي: من أسياد وأشراف أهل نجران)، إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلاَعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لاَ تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلاَعَنَّا لاَ نُفْلِحُ نَحْنُ، وَلاَ عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالاَ: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلاَ تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ: «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا

أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ (يعني: حرصوا عليها ورغبوا فيها لينالوا شهادة نبيهم على أمانتهم) فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ» فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ».

وأخرج أحمد والنسائي في الكبرى وغيرهم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ، لَآتِيَنَّهُ حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ، قَالَ: فَقَالَ: «لَوْ فَعَلَ، لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ، لَمَاتُوا، وَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ الله ﷺ، لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلا أَهْلًا».

والمباهلة ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل هي عامة لأمته من بعده، فمن جادلَ أهلَ الباطل من الكفار أو من عصاة المسلمين ومبتدعيهم، وبيّن لهم الحق، ثم أصروا على باطلهم وظهر عنادهم، فله أن يدعوهم إلى المباهلة، على أن يحرص على أن لا تكون إلا في أمر مُهم شرعًا، ويُرجى في إقامتها نفع وخير للإسلام والمسلمين، فلا يباهل في المسائل الاجتهادية التي تحتمل الخلاف مع المعاند.

والمباهلة إنما تكون بعد بيان الحق، وتقديم النصح والإنذار للمخالف بألا يتبع الهوى في ذلك، ولْيَكن صاحبُها من أهل الإخلاص والسعي لنصرة الحق لا غير.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

ذكرت الآيات السابقة قَصص عمران وزوجِه وابنتهما مريمَ وولدها نبي الله عيسى عليهم جميعًا صلاة ربي وسلامه، بيّنت حالهم وحقيقة صلاحهم وعبوديتهم، ثم استطردت في ذِكر قصة نبي الله عيسى مع قومه، وما مكروا به، وكيف نجّاه الله من بينهم.

جاءت الآية هنا لتربط على قلوب أهل الإيمان زيادة وزيادة، ولتبين أن ما قَصَّه القرآن عنهم هو الصدق والصواب والحق الذي لا ينفع بين يدي الله اعتقاد غيره.

وتأملوا كيف ناسبت هذه الآية ما جاء قبلها كما هو حال القرآن كله؛ فقد خُتمت آية المباهلة السابقة بقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وكأن الآية فيها تثبيت لقلب نبينا ﷺ ولكل من بعده من أهل العلم والدعوة، بأن لا يخشَوا في مباهلتهم، فإن ما قصّه القرآن وبيّنه في نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي غيره من العقائد والقصص هو الحق الثابت الذي لا شك فيه، وهو الصدق والعدل، وما سواه مما يخالف عقيدتنا باطل وافتراء.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تأكيد على أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشر، وأنه ليس إلهًا، وأنه لا معبود بحق، ولا خالق لهذا الخلق إلا الله وحده، الذي لا يُقبل أن تُصرف العبادة لغيره. أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أُرَاهُ يَقُولُ الله: «شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، وَيَكْذِبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ. أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي».

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وإن الله تعالى وحده ذو العزة التي لا ترام، وهو حكيم سبحانه في خلْقه وقدَره وأمْره.

وكأن هذه الفاصلة القرآنية تخاطب النصارى وتقول لهم: كيف تزعمون أن اليهود صلبوا الإله وقتلوه مع أنه إله ؟! ثم كيف يحتاج الإله إلى من ينصره ويُنقذه من أيدي الظالمين؟ وكيف تنسبون الذلة والعجز والضعف للرب ؟ هذا مما لا يقبله عقل أو دين، فإن الله تعالى عزيز منيع قوي لا يُغلب سبحانه، ولا يُمَانَع في شيء أراده، وهو عزيز في الانتقام ممن عصاه وخالف أمره، وعزته مقرونة بالحكمة فلا ظلم فيها ولا جوْر، وتدبيره لا يدخله وهَن، ولا يلحقه خلل.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

بعد كل هذا البيان، تُرشد الآية إلى الإعراض عن أهل الباطل ممن انحرفوا في دينهم وعقيدتهم، ونسبوا لله تعالى ما لا يليق به.

هؤلاء، إن أبَوْا إلا الباطل، وإن لم يقبلوا بما أتيتهم به من الهدى والبيان، وإن أصروا على الجدل والخصومة، فإن الله تعالى عليم بحالهم ومقالتهم وفِعالهم وإفسادهم، وسيجزيهم على صدودهم هذا شرَّ الجزاء.

وهؤلاء، إن تولَّوا عن المباهلة، فإن هذه علامةُ ضعفهم وضعف حجتهم واعتقادهم، وعلامةُ أنهم قصدوا العناد والمكابرة، ولم يطلبوا الحق ولم يعدلوا فيه.

أقول: اعلموا أن كل فساد في الأرض قائم على إفساد العقائد الصحيحة، وتلبيسها على الناس، وإضعاف هيمنتها على العقول والقلوب والأبدان والأوطان، والله عليم بالمفسدين.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

خطاب تلمس فيه الرحمة بهؤلاء الكفار والحرصَ على إسلامهم وإيمانهم، عن طريق دعوتهم إلى أمر لا مفرّ لهم عنه، لعلهم يرشدون.

دعا نبينا ﷺ القوم إلى المباهلة فأبوا وامتنعوا، فانقطعت حججهم ولم يبق أمامهم إلا أن يسمعوا نداء الدين لهم، وينصتوا لخطاب العقل والفطرة.

هنا خطاب يدعوهم بصدقٍ وتجرّدٍ لا نظير له، إلى الإيمان القائم على الكلمة السواء، أي: فيها الإنصاف والعدل والهدى والفلاح، تعالوا أيها اليهود والنصارى إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتَرْك كل معبود من دونه من صليب أو طاغوت أو بشر.

قل يا محمد ﷺ لوفد نجران ولمن تخالطهم من اليهود والنصارى: هلمُّوا وتعالَوا إلى الدعوة التي جاء بها كل الأنبياء والرسل، وهي أن نوحِّد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، وألا نشرك به شيئًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، والآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ﴾ تعالَوا يا أهل الكتاب إلى توحيد خالص لله تعالى، فلا يطيع بعضنا بعضًا في معصية الله وإن كانوا سادة وكبراء، ولا نطلب من عبد شيئًا لا يقدر عليه إلا الله، ولا نعتقد أنه يملك النفع والضر والموت والحياة إلا الله.

قال الله تعالى في بيان حال اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد جاء بيان نوع من أنواع اتخاذ الناس بعضِهم بعضًا أربابًا من دون الله في حديث أخرجه الترمذي وغيره بسند حسنه غير واحد من العلماء، جاء فيه عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ».

وفي رواية عند الطبراني والبيهقي، قال عدي: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ الله فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ».

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فإن أعرضوا عن هذه الدعوة البيّنة الراشدة المُنصفة التي استرسل الشَّرع وأطال في بيانها، واستطرد في محاجّة المخالفين لها ومجادلتهم، فاثبُتوا أيها المسلمون على دينكم الذي شرعه الله، وأَعْلموهم أنكم ماضون في طريق الحق والعدل والنجاة، وأنكم خاضعون لله، متذلِّلون له بالإقرار بوحدانيته بقلوبكم وألسنتكم وأفعالكم، وأنكم لن تتجاوزوا الدين الذي ارتضاه للعالمين.

وقد امتثل نبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى ما دعاه إليه القرآن، وخاطب هرقلَ ملكَ الروم في رسالة مختصرة جاء فيها كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، في قصة لقاء ملك الروم هرقل بأبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قبل إسلامه، وفيه أن هرقل قرأ رسالة النبي ﷺ التي أرسلها إليه، وفيها: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ» وَ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا».

واعلموا أن دعوة النصارى إلى هذه الكلمة السواء ليست خاصة بنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، بل هي مطلوبة من الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان، ومطلوب منهم أن يجادلوهم بالتي هي أحسن، وأن يبينوا لهم ما هم عليه من الضلال بالحكمة والموعظة الحسنة، ولعل من خاض غمار ذلك معهم يدرك أن كثيرًا منهم لا علم له بتفاصيل عقيدته ودينه، وأن كفره كفر جهل لا عناد، وأن التقليد الأعمى هو العنوان الذي يقرؤه من دعاهم إلى توحيد الله تعالى.

أقول: غالب الذين يدخلون في الإسلام هم من النصارى، وقد وصف القرآن أَتْباع سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحَدِيد: ٢٧]، ولذلك نجد كثيرًا منهم سارعوا إلى الإيمان الحق، وتأثَّروا وفاضت أعينُهم لما سمعوا آيات القرآن تُتلى عليهم، ولما فهموها وعرفوا ما تريدُه منهم، عرفوا أنه الحق الذي صدقوا ربهم في معرفته وتحْصيله.

وقد قَدِمَت وفود عدة من نصارى نجران وغيرهم إلى نبينا ﷺ، فلما سمعوه آمنوا وصدقوا، وكذلك أسلم النجاشي ملك الحبشة من قبلهم لما هاجر المسلمون إلى أرضه ودعاه جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا ما لا نجده في غيرهم من عبدة الأصنام ومن اليهود وغيرهم من ملل الكفر، فهؤلاء لا يسلمُ منهم إلا أفرادٌ معدودون.

ولقائل أن يقول: هل من تفسير لدخولهم في دين الله تعالى وإقبالهم عليه ؟ والجواب أنهم لما سمعوا معالم شريعتنا وقواعدها في الاعتقاد والأحكام والأخلاق عرفوا أنه الحق، وتحرك فيهم نداء الفطرة، وسمعوا وعلموا ما يوافق العقل، بل عرفوا أنه نداء نصوصٍ علموها في إنجيلهم تبشر بمبعث نبينا ﷺ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الْمَوْعُود بِهِ.

جاء فِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا إصحاح ١٥ مِنْ قَوْلِ عِيسَى: «وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّى (وهو نبينا ﷺ) رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي مِنْ عِنْدِ الْأَبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لِأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الِابْتِدَاءِ».

وفِي إِنْجِيلِ مَتَّى إصحاح ٢٤ مِنْ قَوْلِ عِيسَى: «وَيَقُومُ أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ كَثِيرُونَ وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ وَلَكِنَّ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ وَيَفُوزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ هَذِهِ شَهَادَةٌ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ».

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يزعم اليهود أنهم على ملة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه كان يهوديًّا ومات على ذلك، ويزعم النصارى أنهم على ملة سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه كان نصرانيًّا ومات على ذلك، وهم يجادلون في ذلك ويخاصمون لإبطال أن يكون دين سيدنا إبراهيم ودين سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام واحدًا، وهو الإسلام.

هذا ما ردَّدَهُ اليهودُ والنّصارى عَبرَ الأزمانِ مُذْ بُعثَ رسولُ الله ﷺ بدين الحق؛ اليهود زَعَمُوا أنّ ما هم عليهِ هو الحقُّ، والنّصارى كذلك، وكلٌّ منهُم يريدُ أنْ نتبعه وننصره، وكلٌّ منهم اغْترَّ بباطِلِه وحَصَرَ الهُدَى فيه.

تُنْكر الآية عليهم زعمهم وافتراءهم، وتبين أن اليهودية والنصرانية أديان مبتدعة حدثت بعد زمن سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن التوراة والإنجيل أُنزلتا بعد نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكيف يكونُ يهوديًّا أو نَصْرَانِيًّا ؟ وأين عقولهم وعقول من تبعهم من هذا ؟! ولماذا المجادلة بالباطل فيما لا يعلمون ؟! ولذلك جاء في ختام الآية قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾.

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ ﴾

اليهود والنصارىٰ عندهم علم بالتوراة والإنجيل، فإنها كتبهم التي أُنزلت عليهم، فكان حجاجهم فيها عن علم ودراية، ومع علمهم ودرايتهم ضلوا وأضلوا، وذهبوا ذات اليمين وذات الشمال، فكيف سيكون حالهم إذا جادلوا فيما ليس لهم به علم ؟! ولذلك ضلوا زيادة وزيادة فيما نسبوه لسيدنا إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من مقالة الزور والبهتان.

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ خذوا القول الفصل من عند عالم الغيب والشهادة، الذي أرسل إليكم محمدًا عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنزل عليه القرآن لتحتكموا إليه في خصومتكم ودعواكم.

واعلموا أن الله يعلم ما غَاب عنكم فلم تشاهدوه ولم تروه، وأنه لا يغيب عنه شيء، فتوقفوا عن الخوض فيما ليس لكم به علم. قال الله تعالىٰ: ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ ﴾

ينكر القرآن العظيم عليهم مقولتهم ويكذبهم فيها، ويصرح للناس بأن دين إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو دين الأنبياء والرسل جميعًا، وأنه لم يكن علىٰ اليهودية أو النصرانية، بل كان هاديًا إلىٰ الصراط المستقيم، وكان حنيفًا، أي: مائلًا عن الكفر إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ولم يكن ممن اتخذ مع الله ندًّا أو شريكًا، أو نسب لله العظيم ولدًا أو صاحبةً، وإنما كان مُستقيمًا، مُخْلِصًا، مُتَّبِعًا.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [البَقَرَة: ١٣٥].

وملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي الدين والمنهج والطريق الذي جاء به من عند الله، والذي دعا فيه إلىٰ تجريد التوحيد للرب العظيم، دل علىٰ بيان ملته قولُ الله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الْأَنْعَام: ٧٨-٧٩] ، وقولُه سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

قلت: ومن عجائب بعض أهل زماننا ممن يزعمون أنهم منتمون لدين محمد ﷺ، أنهم خرجوا علينا بفكرة «توحيد الأديان» تحت مسمى الديانة الإبراهيمية؛ وهي فكرة تقوم على أن ديانة سيدنا إبراهيم تجمع بين ديننا ودين النصارى ودين اليهود، وأنه لا ينبغي لأحد منا أن يعتقد كفر الآخر، وأن المسجد والكنيسة والمعبد ينبغي أن تكون جنبًا إلى جنب، كما هو الحال مع القرآن والتوراة والإنجيل التي يجب أن تُطبع في كتاب واحد دون تفريق بينها، ويزعمون أن الغاية من ذلك نشر المحبة والتسامح بين شعوب الأرض.

وهذا الأمر فيه خلط للحق بالباطل، وفيه كفر بالقرآن والسنة، وفيه مخالفة للدين الذي جاء به جميع الأنبياء دون تفريقٍ بينهم، وفيه غش وخداع وتدليس وهدم لعقيدتنا لا يخفى، والواجب على الغيورين من أبناء الأمة مدافعة هذا الباطل وبيان مخالفته للشريعة، ومحادته لله ولرسوله.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يا أيها اليهود والنصارى: لستم أولى الناس بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل أَوْلاهم وأحقُّهم بنصرته وولايته ومحبته أولئك الذين اتبعوه على دينه دين التوحيد ممن عاش معه في زمانه من أهل عصره ، كأنبياء الله لوط وإسحق وإسماعيل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وغيرهم من المؤمنين.

وكذلك أولى به هذا النبي الذي أُنزلت عليه هذه الآيات وهذا البيان، وهو محمد ﷺ، وكذلك كل المؤمنين من أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. قال ربنا مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٣].

وكذلك لستم أولى بأنبياء الله موسى وعيسى عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ منَّا نحن معاشر المسلمين، فهؤلاء رسل التوحيد والإيمان بالله وجميع ملائكته وكتبه ورسله، والإيمان باليوم الآخر والقدر. أخرج البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن النَّبِيَّ ﷺ لمَّا قدمَ المَدِينَةَ وَاليَهُودُ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا».

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهؤلاء الذين هم على دين الحنيفية السمحة، ممن آمن بكتب الله وأنبيائه، الله وليهم وناصرهم ومؤيدهم وحافظهم، وهو الذي يصلح شؤونهم ويتولى أمورهم.

ما أعظمها من ولاية يستشعرها أهل الإيمان ويعيشون ظلالها صباحَهم ومساءَهم، وما أعظمه من خبر يربط على قلوب المخلصين لله في توحيدهم ودعوتهم.

إن ولاية الله لعباده المؤمنين لا تقتصر على الحياة الدنيا، بل هي ممتدة إلى البرزخ، بل إلى أرض المحشر حتى يظفروا بجنته ورضوانه. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١].

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٦٩﴾

إخبار من الله تعالى عن حقيقة اليهود، الذين يحملون في قلوبهم حسدًا لهذه الأمة المحمدية، والذين سَعَوا في إضلالها ودعَوْا أبناءها للرِّدَّة وترك الإسلام، ومكروا الليل والنهار لصرْفها عن طريق الفلاح والنجاح، والذين أحبوا ذلك وكانوا حريصين عليه، وما زالوا.

بدأ حسَدُهم لما أيقنوا أن الله تعالى جَعلَ نبيه محمدًا ﷺ من العرب، ولم يجعله منهم، ونصبوا العداوة والبغضاء له ولكل من تبعه، حتى يومنا هذا. قال الله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾[البقرة: ١٠٩].

وهذه الطائفة التي تسعى لإضلال أهل التوحيد ربما لا تقتصر على اليهود فقط، بل تتعدى إلى رؤوس الكفر والشرك من النصارى وغيرهم، ممن يتفنَّن في كل زمان ومكان في الصَّدِّ عن سبيل الله، وصرف المسلمين عن دينهم.

ولعلكم ترون كيف يبذلون أموالهم وأعمارهم وأوقاتهم في زماننا ليصدوا الناس عن دينهم ويرجعونهم إلى الكفر، فإذا عجزوا بذلوها لإدخال الشك في قلوبهم وكفى، وانظروا في حيلهم ليحولوا بين المسلمين وبين علوم الكتاب والسنة، وكيف يخدمهم في ذلك من أبناء أمتنا صنف ضلَّ الطريق، وضاق فهمه عن استيعاب ما يُحاك لدين الأمة، ولحملة الدعوة، حتى صار جهله وصمته عبئًا على المُصلحين والمرابطين على حصون الأمة الفكرية، وإلى الله المشتكى.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا تخشوا يا أهل التوحيد من مكر أهل الكفر بكم، واصبروا واثبتوا، واعلموا أن سعيهم لإضلالكم وبث الكفر والفساد والفواحش فيكم، هو ضلال بذاته، وسبب من أسباب استجلاب سخط الله وغضبه، وأنه سيعود ضرره عليهم وعلى أتباعهم وأشياعهم ومناصريهم، وسيعلمون أن خبثهم ومكرهم لم ينفعهم شيئًا، وأنه حاق بهم وأحاط من حيث لا يشعرون.

وهذه التسلية تدفع المؤمن للعمل لا للكسل، وتعينه في صبره على مكر القوم، ومدافعتهم والذب عن دين الله، وتسدده في نشر الإسلام وتبليغه للعالمين جميعًا.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ٧٠﴾

نداء من الله تعالى لليهود والنصارى يحمل إنكارًا عليهم وتوبيخًا لهم على كفرهم بنبي الله محمد ﷺ، وكفرهم بآيات الله تعالى التي أنزلت عليه، والمعجزات التي جاء بها، مع أنهم يعلمون صدقها، ويتحققون منها بلا أدنى ريبة أو شك، بل إنَّ صفاتِ نبينا ﷺ جاءت في التوراة والإنجيل، وهم يعلمون انطباقها عليه.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٧١﴾

نداء ثانٍ من الله تعالى لليهود والنصارى، يطلب منهم ألّا يخلطوا الحق بالباطل، ولا يتعمدوا إظهار باطلهم وكذبهم وتدليسهم في صورة الحق، فيلتبس الأمر على العوام الذين هم تبع للرهبان والأحبار.

بطريقة أخرى: لا تَلْبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام، ولا تزعموا أن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، ولا تؤمنوا ببعض الكتاب وتكفروا ببعضه، ولا تُدخلوا في دينكم ما ليس منه من الأكاذيب والخرافات، ولا تتعمدوا كتمان الحق مع أنكم تعلمون أنه حق كما في ختام الآية، والحق الذي كتموه هو علمهم بأن محمدًا ﷺ نبي كما ثبت ذلك عندهم. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقال سبحانه عَمَّن ستناله رحمته منهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وسيأتي معنا في الآية التي بعدها صورة أخرىٰ من صور خلط الحق بالباطل، والتي كانوا يعمدون إليها كحيلة لإسقاط الدين والدعوة.

وهذا الأمر الرباني ينفعنا في زماننا هذا الذي نرىٰ فيه عددًا من أبناء مِلتنا، ممن يلبس ثوب العلم وأهله، يُدلس علىٰ عوام المسلمين، ويشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا، ويبيع دينه بعرَض من الدنيا؛ ينصر الظلم وأهله، ويُكثر من الثناء والمدح لمن حكّموا غير شرع الله، ويكيد للدعاة إلىٰ الله تعالىٰ والمجاهدين، يفعلون كل ذلك مستدلين بنصوص الشرع، يلبسون الحق بالباطل، ويخلطون الصدق بالكذب، ويدلسون علىٰ من يتبعهم.

ومن تلبيس الحق بالباطل ما يفعله عدد من العصاة الذين يعصون الله ما أمرهم، ويدافعون عن سوء صنيعهم بأنهم ما فعلوا إلا خيرًا، فواحدهم يواعد فتاة غريبة عنه لسنوات زاعمًا أنه يريد إعانتها علىٰ الحجاب والطاعة، وآخر يتعامل بالربا مختبئًا خلف فقه الضرورات وهي بعيدة عنه كل البعد، وثالث يظلم غيره ويأكل ماله تحت فتاوىٰ مزعومة ما أنزل الله بها من سلطان.

ولجميع هؤلاء نقول: لا تتشبهوا بأهل الكفر والضلال، واصدقوا الله وتوبوا إليه خيرًا لكم، وأعيدوا المظالم إلىٰ أهلها قبل أن يفجأكم الموت ولا مناص.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

كان منافقو اليهود يُديمون المكر لهذا الدين، ويتفننون في ذلك، فتارةً يجاهرون في صدِّهم عن دين الله، وتارةً يحتالون؛ فكان مما عَمَدوا إليه لإسقاط هيبة الدين من قلوب المؤمنين، وتسهيل ردتهم عنه، أنْ تواصَوا بالتظاهر في أول نهارهم أمام الصحابة بأنهم مسلمون، وأنهم يصلون معهم ويجالسونهم، حتىٰ إذا جاء آخر النهار، رجعوا عن الإسلام إلىٰ دينهم، فيُخيَّل إلىٰ ضعفاء الإيمان والعقيدة بأنهم اطّلعوا علىٰ عيب في الإسلام فتركوه عن تجربة، خاصَّةً أنهم أهل الكتاب وعندهم علم بالأديان.

كانوا يفعلون ذلك ليُدخلوا الشك إلىٰ قلوب المسلمين، وليردوهم عن دينهم وإيمانهم، ولعلهم يرجعون إلىٰ ما كانوا عليه.

ومن هنا نفهم فقه الشريعة يوم أوجبت على الحاكم أن يقيم عقوبة الردة على من ترك الإسلام وأبى أن يرجع إليه، ومعلوم لديكم أن عقوبة المرتد هي القتل بإجماع أصحاب المذاهب الأربعة، ويجب استتابته قبل إقامة الحد عليه عند الجمهور، بخلاف الشافعية الذين ذهبوا إلى استحباب استتابته لا وجوبها.

ومن المعلوم لديكم أنه لا يجوز في ديننا إكراه غير المسلم على الدخول في الإسلام، ولكنه إذا كان مسلمًا أو دخل فيه فليس له أن يخرج منه، ولعل ذلك لسببين اثنين، أولهما: أن نعينه على نفسه يوم راودته ليرتد، فإنه مع علمه بأن العقوبة هي القتل يمسك عن إظهار ذلك، ويبقى ظاهر حاله الإسلام وأمره إلى الله.

أما السبب الثاني فهو الحفاظ على هيبة الدين وهيمنته على ما سواه، والحفاظ على أصحاب القلوب التي يسهل دخول الوهن إليها، والحفاظ على الدين من سخرية الساخرين، واستهزاء المستهزئين، ومكر الماكرين.

صحيح أن حالات الردة في ديننا قليلةٌ، ولكنها تحتاج من الغيورين على أبناء الإسلام الذين آتاهم الله شيئًا من القيادة والعلم أن يقوموا بواجبهم في تحصين العقول والقلوب، وأن يأخذوا على محمل الجِدِّ قرب عدوهم منهم، فنحن نعيش في زمن احتضنت فيه قنوات الإلحاد والردة والتشكيك والتنصير عددًا من أبنائنا، تدعوهم إلى ترك الدين، وتبعث في قلوبهم الشَكَّ في كل ما حولهم، وقد صادف كلامُهم قلوبًا خاويةً على عروشها من العلم والتقوى، فتأثرت بما يقولون.

ولقائل أن يقول: أين يكون الخلل في مثل هذه النفوس التي تؤمن ثم ترجع إلى الكفر؟ والجواب أنَّ صنفًا منهم أراد بإسلامه أن يحقنَ دمه فقط، أو يأخذَ من الغنائم أو من بيت المال، أو دخل في ديننا لتحصيل منفعة دنيوية خالصة كالزواج من مسلمة أو الوصول إلى أخبار أهل الإسلام.

وصنفٌ آخر قد يعرض له في حياته وخلطته مع الآخرين ما يُفسد عليه عَقْله فيضل، فمن ذلك: أن يُبتلى بلاءً صعبًا ولا يصبر، ثم ينسى فضل الله عليه ويُنكِر، ثم ينسلخ من إيمانه وتوحيده للرب جل وعلا اعتراضًا على بلائه.

أو قد تُفتح عليه الدنيا ويطيش عقله معها، تُفتح عليه بالمال والشُّهرة، ويترك دينه وراء ظهره جاحدًا له، ليصل إلى ما يطلبه منه أسياده طمعًا فيما عندهم.

أو قد يُذهلُه ما وصل إليه أهل الكفر من الحضارة المادية والعلم، ويظنُّ أن القصور فينا كان بسبب ديننا، فيتركُه ويهجرُه.

أو قد لا يعرف عن دينه إلا القليل، ثم تعرض له شبهات تتعلق بالخالق وبالقرآن وبالتشريع، وتصادفُ جهلًا عظيمًا عنده فتؤثرُ، حتى تحولَ بينه وبين إيمانه.

وحديثنا وإن كان عمن يتقلب بين الكفر والإسلام، إلا أنه يحمل كذلك موعظة لمن يكثرون من التقلب بين المعاصي وبين الطاعات، ولا يَصْدُقون الله تعالى في التوبة منها، فإنه يُخشى على قلوبهم أنْ تَأنس إلى المعاصي، وتُقبض الأرواحُ عليها.

بل يحمل موعظة لأولئك الشباب والفتيات الذين تربوا على القرآن وحفظوه ثم لم يعتنوا به، ومنهم من تربى في المساجد ثم هجرها، ومنهن من كانت تتقرب إلى ربها بسترها وحيائها ثم تخلت عنهما.

يا أبناء هذا الدين العظيم: لا تأمنوا مَكْر الله، وسارعوا في رجوعكم إلى سابق عهدكم فإنَّ الأمر يسيرٌ على من يسَّره الله له، واعلموا أن مفتاحكم إلى ذلك الصدقُ مع الله.

وهنا: نستحضر أن القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، وأن الهداية لا تكون إلا بإذنه، وأن العبد الموفق هو الذي يَفرُّ إلى الله تعالى إذا عصف بهذا القلب أمرٌ، ولا يُعَلِّقُه ببشرٍ ولا حجرٍ، ويَحْمدُ الله تعالى أن فتح له أبواب الهداية وأعانه فيها، وأنْ كرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان.

ويحضرني هنا ما يفعله صنف من أهل الكبائر والفسق والفجور، من سَعْي في إضلال الصالحين أهل الاستقامة، وفتح أبواب الحرام لهم، وتزيين المعاصي وتقديمها بأثواب برَّاقة؛ كلُّ ذلك ليَضلوا عن سواء السبيل.

ثم يحضرني عدد من أبناء الدعوة وبناتها الذين رافقوا أهل الصلاح، وعاشوا معهم جمال مدافعة الباطل وأهله، ثم استهوتهم الشياطين، واستدرجتهم لطرائقها وحبالها حتى أبعدتهم عن جنة الأرض التي كانوا فيها، وانقلب حالهم، وانغمسوا في بحر الشهوات والشبهات، وأقبلوا على سماع الحرام والنظر إليه ومخالطة أهله، وجعل أصحابهم من أهل المساجد والقرآن وأعمال البر والتقوى ينادون عليهم، ولات حين إجابة.

الحمد لله الذي حفظ على صاحب القلب السليم دينه وعقيدته، وجعل الردة بعيدةً بُعْدَ المشرقين عن القلبِ الذي يحمله، القلبِ الذي ذاق حلاوة آيةٍ من القرآن العظيم، أو حلاوةَ سجدة بين يدي الله، أو تفيَّأَ ظلال حديث من مشكاة النبوة، أو نظر في التشريع الرباني الذي أبهرَ البشرية بإحكامه وارتقائه بأهله، أو صَدَقَ الله تعالى بسؤاله الثبات على دينه حتى الممات.

أخرج البخاري أن هرقل ملكَ الروم أراد أن يستفصل عن ديننا، فطلب من أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يأتيه، وكان أبو سفيان على الشرك لم يسلم بعدُ، فكان مما سأله أن قال: «وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ».

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

ومن حرصهم على باطلهم، أنهم كانوا يتناهون فيما بينهم عن الركون لأصحاب النبي ﷺ والاطمئنان إليهم، وينهى بعضهم بعضًا عن إظهار ما عندهم في التوراة للمسلمين، لئلا يحتجّوا به عليهم، خاصة تلك النصوص التي فيها دلائل ظاهرة على صحة دين الإسلام.

قالوا لأتباعهم: اثبتوا على دينكم، ولا تؤمنوا بمحمد ﷺ ودينه، فإنه ليس كدينكم، ولم يأت داعيًا إليه.

كان اليهود أهل غرور بأنفسهم ولا زالوا، وغرورهم هذا جعلهم يعتقدون أن النبوة لا تكون إلا فيهم، وأن جنسهم أعلى مرتبة من جنس غيرهم من البشر، وهذا يفسر لنا صدودهم وعنادهم وإصرارهم على الباطل مع علمهم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ قل يا محمد ﷺ لهم: إن الحق هو ما شرعه الله تعالى وأرسل به رسله، لا ما أردتم إظهاره من الباطل.

واعلموا أن قلوب المؤمنين بيد الله، يهديها ويُثبتها ويحفظها من مكركم وكيدكم، ويُعطيها من البينات ما تزداد به إيمانًا.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ وقل لهم كذلك يا محمد ﷺ: لقد صددتم الناس عن طريق الهدى، ومكرتم مكركم خشية أن يُنعم الله تعالى بالنبوة والرسالة والهداية على غيركم من الأمم كما أنعم بها عليكم من قبل، وهذا هو الحسد بعينه.

وقد كان اليهود ينقمون على نبينا ﷺ ومن معه من أصحابه رضي الله عنهم، أنْ جَعَل الله النبوة فيهم، وآتاهم من الوحي كما أنزل على بني إسرائيل من قبل.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ وكذلك خشيتم إن أقررتم بصحة ما عند المسلمين، أن يُقيم أهل الإيمان الحجة عليكم غدًا يوم القيامة بين يدي الله، فتكونوا من الهالكين.

وقد كان اليهود يتواصون فيما بينهم بكتمان معرفتهم بصدق الرسالة وصاحبها، وكانوا يقصدون بهذا الكتمان اجتناب إقامة الحجة عليهم غدًا بين يدي الله، فضلًا عن إقامتها في الدنيا. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ الحمد لله الذي جعل الفضل كله بيده، لا بحسب أهواء الناس وشهواتهم، فهو سبحانه إذا قدّر العلم والإيمان والهداية والنبوة لمن يشاء من عباده، فلا راد لفضله، ولا مانع لأمره.

والخطاب متوجه لهم ليقتنعوا ويبتعدوا عن أمراض النفوس والصدور، ولعلهم يستقيمون فيفلحون.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وربنا لا ينتهي عطاؤه وفضْله، ولا ينقطع إحسانه وكرمه، وهو سبحانه لا يمنع عطاءه عمن أراده، وصدق الله في طلب الهداية والإيمان.

وهو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وله في ذلك الحكمة البالغة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

يكرم الله تعالى برحمته من يشاء، وقد اختص بها في آخر الزمان الأمة المحمدية، فأكرمها بما أكرمها به.

وكأنّ السياق يخاطب المسلمين ويقول لهم: الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ من رحمات الله لعباده، وقد جعلها فيكم، فأحسنوا شكر الله على ما اختصكم به من الهداية، وما شرّفكم به من حمل هذه الأمانة والقيام بها، ثم اشكروه على اصطفائكم لتكونوا حملة هذا الدين للناس كلهم، والقائمين بقائمته حتى يأذن الله تعالى بعزّكم وسعادتكم في الدارين.

انظروا في ختام الآية كيف وصف فضله بالعظيم، وصدق ربي جل وعلا، فإنا نعلم تمام العلم أن فضله لا يدانيه فضل، ولا يستطيعه أحد، ولا يصح أن يُنسب ما نحن فيه من نعيم الدنيا قبل نعيم الآخرة إلا لله وحده لا إله إلا هو.

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾

تحمل الآية بيانًا لعَدْل القرآن والإسلام، وتُنْصفُ عددًا من اليهود الذين يحفظون الأمانة ويؤدونها ويتعففون عن الخيانة فيها، وإن كانت هذه الأمانة ذات قيمة ربما تُغري من هي عنده، وتجعله يغدر فيها، كأن تكون قنطارًا، أي: مالًا كثيرًا.

﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ﴾ ومنهم من إذا تعاملت معه بالقليل من المال ائتمنته، كأن يكون دينار ذهب فقط، كان حريصًا على تكثير ماله ولا يسأل عن حرام أو حلال، فلا يؤدي هذا المال إليك إذا كنت من غير ملته، إلا بعد أن تستفرغ وسعك في المطالبة والقيام على تذكيره وسؤاله وملازمته والإلحاح عليه.

والمقصود: إذا كان خداعهم موفورًا في الحقير من المال والقليل منه، فكيف نأتمنهم على ما هو أكثر، بل كيف نأتمنهم على التوراة والدين والعقيدة والأحكام، بل كيف نثق بهم في المعاهدات والصلح والتفاهم؟!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ هؤلاء الذين يخونون في الأمانة منهم لا يعدُّون صنيعهم منكرًا ولا حرامًا، لأن عقيدتهم في التعامل مع الأميين تقوم على استباحة أموالهم، والأميون هم أنتم أيها العرب من الأوس والخزرج وقريش وغيرهم ممن ليسوا على اليهودية.

اليهود يُجيزون في دينهم خداع الأميين، ويستبيحون إخلاف الوعد معهم، وخيانة الأمانة، ويَزعمون أن الله أحلها لهم، وأنه ليس عليهم حرج في إنكارهم حقوق الأميين والمماطلة في أدائها، وأنه لا إثم في ذلك ولا مُؤاخذة ولا تَبِعة.

ولنا أن نستحضر في هذا المقام أقوامًا من أبناء جلدتنا، وممن يدينون بديننا، يأكلون أموال غيرهم بالباطل ولا يتحرجون من ذلك، فقد يأكل واحدهم حق غيره في الميراث، وقد تمتد يده إلى مال ائتمنه صاحبه عليه، وقد يبيع ويشتري فيما حرم الله عليه، والمصيبة لا تقتصر على أكلهم المال بالحرام، ولكن المصيبة العظمى يوم يزعمون أن ما فعلوه مباح في الدين، وأنهم لا يرون بذلك بأسًا، وهذه الفتنة أعظم وأعظم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ثم هم يكذبون على الله فيما يزعمون من إباحة أموال العرب لهم، ولكنهم يعلمون تمام العلم أنهم قوم بُهْت ويجيئون بالإفك والزور، وأن دينهم الحق لم يأمرهم بذلك، بل أمرهم بأخذ الأموال بحقها.

قارنوا حالهم هذا وما يعتقدونه، بديننا الذي يأمرنا أن نؤدي الأمانة للمسلم والكافر، والبَرِّ والفاجر، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ولذلك قال الله تعالى في تتمة السياق:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

أي: ليس الأمر كما تظنون، ولكنه من وفّى منكم يا أهل الكتاب عهده وأمانته، وبذلها وأداها كما أمره الله تعالى، ولم يكن من الخائنين فيها، واتّقى ما حرم الله عليه، فهذه علامة على أنه من أهل تقوى الله وخشيته ومراقبته، والله سبحانه وتعالى يحب أهل التقوى، ويرضى عنهم، ويسعدهم، ويجزيهم جنته، ويحل عليهم رضوانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

يُخبرنا قول الله هنا أن بني إسرائيل كذبوا فيما عاهدوا الله عليه من الإيمان واتباع الرسل، وكذبوا في استباحتهم أموال غيرهم، فباعوا دينهم بعَرَض زهيد قليل من الدنيا، باعوه ليحافظوا على مكانتهم وجاههم وأموالهم بين قومهم، ثم زعموا بأنهم على الحق والهدى، وأقسموا أَيْمانًا كاذبة بأنهم صادقون، فاشتروا بهذه الأيمان سيادتهم على أقوامهم وحفاظهم على مناصبهم.

هؤلاء خابوا وخسروا في الدنيا أولًا، فقد أظهر الله دينه الحق في الأرض، ودخل الناس فيه أفواجًا أفواجًا، ودانت مشارقُ الأرض ومغاربُها لحملته، وخرج هؤلاء اليهود من المدينة أذلاء مطرودين، فضلًا عمن قُتل منهم بسيف الحق، ولم تنفعهم خياناتهم التي تعددت وتنوعت.

وقبل أن أتمم الآية ومعانيها، لا نريد أن نبتعد كثيرًا في تفسير الآية ونقصرها على من نزلت فيهم، لأن من تأملها وعاشها بجوارحه وجوانحه علم أن فيها نداء لنا أهل الدعوة والدين الحق، وعلم أن فيها توجيهًا لا ينبغي لنا أن نتهرب منه ونظن العصمة في أنفسنا، وأنه لا يوجد بيننا من يتاجر بدينه وعقيدته ومبادئه.

أقول: الآيةُ تعنِينَا كثيرًا نحنُ، معاشِرَ طَلَبَةِ العلمِ والمُبَلِّغِينَ عن الله من أهلِ التّوحيدِ والاستقامةِ، فقَدْ ماتَ ﷺ وتَرَكَنَا على المَحَجَّةِ البيضاءَ، تَرَكَ لنا إرْثَه من الكتابِ والسُّنَّة، وكلُّ من كَتَمَ من العلماءِ وطَلَبَةِ العلمِ والدُّعَاةِ إلى الله علمًا عن النّاسِ، ولَوَى أعناقَ نُصُوصِ الوَحْيِ، ولبَّسَ على النّاسِ دِينَهُم واشترى بذلك ثمنًا قليلًا، وابتغى عرضًا من عُرُوضِ الدّنيا من منصب أو جاه أو مال؛ أقول: كل من فعل ذلك كان ممّن استَحَقَّ عقوبةَ اللَّعْنِ من الله ومن النّاسِ، وكان ممن شملتهم الآية هنا بعقوباتها الآتية. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

أخرج أحمد وابن حبان وغيرهما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: «مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَجَّمًا بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ».

كَتْمُ العلم يعني إيقاعَ النّاسِ في الضّلالةِ والغِوَايَةِ، وهذا الصِّنْفُ من أهلِ الإجْرَامِ لا يَلْعَنُهُم إلّا من عَلِمَ حَقِيقَةَ حَالِهِم، وغَضِبَ للهِ ولِدِينِه، وليس لشهوةٍ في نفسِه.

ولا يفوتنا كذلك في معرض بيان هذه الآية أن نشير إلى صنف يحلف كذبًا وزورًا وبهتانًا على الحقوق، فيقلب الحق باطلًا والباطل حقًّا بيمينه الغموس التي جهر بها أمام الغير، أو يقضي بخلاف الحق لرشوة قبضها ومنصب وُعد به، وهؤلاء جُرْمهم عظيم، وتجرؤهم على كبائر الذنوب له حساب عسير، فليتحللوا من ذلك، وليتقوا الله، وليعيشوا إن كان لهم قلب مع تمام الآية. أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «من حلف يمينًا كاذبًا، ليقطع مَالَ رَجُلٍ لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غضبان». قَالَ عَبْدُ الله: ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

وأخرج البخاري عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ فِيهَا: لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِهِ (أي: يحلف أن تكلفتها عليه أكثر من الحقيقة، أو يحلف أن هناك من دفع فيها أكثر) لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ».

أما عن حالهم في الآخرة كما في تمام الآية، فقد قال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لا حظ لهم ولا نصيب من نعيمها وخيرها.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ومن عقوبة الله لهم، ومن سخطه عليهم، أنه لا يكلمهم كلام تكريم ورفعة ولطف بهم، ولا كلام عتاب كما هو الحال مع أهل الإيمان.

وكذلك لا ينظر إليهم، أي: ولا يعطف عليهم بخير، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، ولا يقبل عليهم إقبال إكرام، ولا يعتني بهم.

وكذلك لا يزكيهم، أي: ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يمدحهم ويثني عليهم، بَلْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا فيه الألم الشديد والمهانة والذلة والذَّمُّ وَالتَّوْبِيخُ، كما قال ربنا في ختام الآية: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد صح أن النبي ﷺ، كان يستدل بهذه الآية على حرمة أن يقتطع المسلم مال آخر بغير حق، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ، لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» قَالَ عَبْدُالله: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ، مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ الله جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

حيلة أخرى من حيل طوائف اليهود التي اتبعوها لتبديل دين الله والصد عنه، وكانت هذه الحيلة تقوم على قراءة كلام أمام المسلمين، مع نسبته زورًا وبهتانًا لله ولكتابه التوراة، ليحسَبُوه من الدين، ويظنوه من كلام رب العالمين، وما هو من الدين، وما هو من كلام رب العالمين، وقد يأتون بكلام من التوراة ثم يزيدون أو ينقصون كما يريدون، وهذا كله كذب وافتراء، أرادوا به التمويه والتخليط على المسلمين، والتشكيك فيما جاءهم في القرآن.

وافتراؤهم وكذبهم هذا إنما كان عن قصد وعلم، لا عن جهل وخطأ.

ولقائل أن يقول: وهل يفعل ذلك المسلمون اليوم مع قرآنهم ؟ والجواب أن من يزيد على كتاب الله حرفًا أو يُنقص منه حرفًا فليس بمسلم، ولا يفعله أحد منهم فيما أعلم، ولكنهم يلوون ألسنتهم بالكتاب والسنة عن طريق تأويل ما فيهما لخدمة أغراضهم من نشر البدع وبعض الشركيات، وتفسير كلام الله على غير مراده، وقد يتصدر أحدهم لبيان ما في القرآن أو ما في السنة وهو لا يملك من العلم والدراية شيئًا، فيحصل منه ليٌّ اللسان بالقرآن، ويدلس على جهلة المسلمين.

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

أخرج غير واحد من أصحاب السير والتفاسير، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ أَبو رَافِعٍ الْقُرَظِيُّ حِينَ اجْتَمَعَتِ الْأَحْبَارُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ: أَتُرِيدُ يَا مُحَمَّدُ أَنْ نَعْبُدَكَ كَمَا تَعْبُدُ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ؟ قَالَ: مَعَاذَ الله. فَأَنْزَلَ الله فِي ذَلِكَ: «مَا كَانَ لِبَشَرٍ إِلَىٰ قَوْلِهِ: مُسْلِمُونَ».

ومعلوم لديكم أن هذا من أنواع التحريف عند النصارىٰ، الذين زعموا أن نبي الله عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ دعاهم إلىٰ عبادته وأمرهم بها.

جاءت الآية تنزِّه أنبياء الله ورسله عن ذلك، وتُبْرئ جميع أنبياء الله من زعمهم وافترائهم، موضحةً أن ما يزعمونه، لا يفعله رسول أكرمه الله تعالىٰ واصطفاه، وأنعم عليه بالنبوة، وأنزل عليه القرآن أو الإنجيل، وآتاه حُكْمًا يقضي به بين الناس، فكان كلامهم هذا زورًا وبهتانًا.

وهنا لفتة علمية يجدها من تأمل دين النصارىٰ وعلِمَه، فإنهم كانوا وما زالوا يتعبدون لرهبانهم، ويطيعونهم فيما أحلوا من حرام وحرموا من حلال، ويتَّبعونهم فيما يشرعون من عقائد وأحكام من عند أنفسهم بلا دليل ولا وحي، فزعمهم بأن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلهٌ مما لا دليل عليه في كتبهم، كما هو الحال في منع رهبانهم من الزواج، وفي قصر دينهم علىٰ أناجيل أربعة، اثنان من أصحابها لم يلقَوا عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أصلًا، وغير ذلك.

﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ هذه حقيقة دعوة أنبياء الله ورسله إلىٰ أقوامهم، يدعونهم إلىٰ أن يكونوا عالمين ربانيين، أي: عابدين أتقياء، متمسكين بدينهم ودعوتهم بقوة، ولا يرجون من قيامهم بواجب الدعوة إلا أن يرضىٰ ربهم عنهم.

وهنا فرْقٌ دقيقٌ بين العلماء العاملين الربانيِّين وبين علماء الضلال والسوء أشارت إليه الآية الكريمة؛ فالربانيون يأمرون بما أمر الله به، وبما بلَّغتهم رسلهم به، وهم أهل عبادة وتقوىٰ وخشية، ولا يتخذون واسطة بينهم وبين الله، وهم يُعلِّمون الناس كتاب الله تلاوةً ومعنًىٰ، ويتلونه علىٰ الوجه الذي يحبه ربنا ويرضىٰ عنه، ويسعَوْن دومًا في هداية الناس وإرشادهم إلىٰ طريق الاستقامة.

أما علماء السوء وقرَّاء الضلال، فإنهم يلبسون الحق بالباطل، ولا يقومون بواجبهم من التعليم والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ربما يدافعون المُصلحين في دعوتهم، مع أن المفترض في مثلهم، أن يصدهم علمهم عن المتاجرة بدينهم، واتخاذه مطيَّةً لدنياهم ودنيا غيرهم.

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

نبي الله ومُصطفاه لا يأمر الناس أن يعبدوا أحدًا غير الله، لا نبيًّا مرسلًا، ولا مَلَكًا مُقربًا، فإن ذلك من الكفر الذي ينافي الإيمان والتوحيد الذي أرسلهم خالقهم به. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٥].

﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تأملوا كيف أنكرت الآية الكريمة أن يقوم نبي بردِّ الناس عن الإسلام الذي جاء به كل الأنبياء، إلىٰ الكفر وعبادة غير الله سبحانه، فإنَّ زعمهم هذا لا يقبله عقل، ولا وجود له، ولا يصح بأي اعتبار، ذلك من أوضح الواضحات.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

كل نبي بعثه الله تعالىٰ إلىٰ قومه من لدن آدم إلىٰ عيسىٰ عليهم صلوات ربي وسلامه، أخذ عليه الميثاق والعهد بأن يؤمن بجميع الأنبياء من بعده، وأن ينصر من جاء بعده من الرسل علىٰ أعدائه إن هو أدركه، فإنهم جميعًا أنبياء الله تعالىٰ، وقد جاؤوا من مشكاة واحدة.

أعطاكم الله أيها الرسل كتابًا فيه كلام الله وأمره ونهيه، وآتاكم حكمة تقضون بها بين أقوامكم وترشدونهم إلىٰ سعادة الدارين، وعلمكم ما تحتاجونه في تفاصيل دعوتكم، فإذا علمتم أن الله تعالىٰ بعث رسولًا بمثل ما بعثكم به، فلا يُقبل منكم إلا المسارعة في تأييده وإعانته.

هذا كتاب الله يعلمنا أن الكفر بنَبيٍّ واحد كفرٌ بجميع الأنبياء، بل كفر بالله الواحد الأحد، ويعلمنا أن الدين ليس بالتشهي ولا بالتمني، وأنه ليس دينًا محصورًا بالقلب، وأنه لا يقوم على أمزجة الناس وأهوائهم، بل هو عبودية للرب جل جلاله كما أمر وأرشد وعلَّم، وهو اتباع لأنبياء الله ورسله، وهو في زماننا يقوم على اتباع ما جاء به خاتم النبيين والمرسلين، وأكرمهم على الله تعالى، وصاحب الحوض المورود، والدرجة الرفيعة، محمد ﷺ.

هذا كتاب الله يعلمنا أن ننصر نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيًّا وميتًا، وأن ننصر دينه في الأرض، وأن نحيي سنته في العالمين، وأن نستعين بالله للثبات على هذا الطريق حتى الممات.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يطلب منهم جل وعلا أن يأخذوا بهذا العهد وهذه الوصية، وأن يقبلوا ذلك ويرضوه، مُبينًا لهم أن هذا العهد فيه إصر، أي: ثِقَلٌ وميثاقٌ وعهدٌ مشدَّدٌ ومؤكدٌ، ثم يُشهدهم على ذلك ويَشْهد معهم، وكفى بالله شهيدًا.

وكأن الآية تنادي على أمم أهل الكتاب، وتذكرهم بهذا العهد الذي أخذه الله على أنبيائهم، لعلهم يؤمنون بخاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ، فإنه رسول الله الذي أرسله للناس كافة، ولا يسَعُ من وصلته دعوته إلا أن يؤمن بها، ولا ينفعه إلا ذلك وإن كان من كان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فمن أعرض عن هذا العهد والميثاق ونَقَضه، وترك الإيمان والنصرة للرسل بعد كل هذه الشهادات، فإنه فاسق أشد الفسق، ومستوجب لعقوبة الله وغضبه وسخطه، والفسق هنا هو عصيان الله تعالى بالكفر.

وهذا ما حصل مع اليهود والنصارى، إذ لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به، بل كفروا به، وخذلوه، فكانوا بذلك الفسق مستوجبين لعذاب الله.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

ينكر السياق القرآني عليهم متعجبًا منهم، يقول لهم: كيف تكفرون بدين الله وتتخذون دينًا آخر؟! وكيف ترتضون لأنفسكم ملة تكفر بنبي من الأنبياء أو مَلَك من الملائكة، أو تكفر بكتاب من الكتب، أو لا تؤمن بيوم القيامة وما فيه، أو تنكر قدر الله ولا تؤمن به؟!

توبيخ عجيب لهم على عنادهم، وأنَّى لهم ألا يستسلموا لمن استسلمت له كل المخلوقات، ولمن انقادت له كل الكائنات، ولمن خضعت لعظمته وجبروته الأرض والسماوات، سبحانه. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرَّعْد: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النَّحْل: ٤٨-٥٠].

أسلم أهل الإيمان إلى ربهم طَوْعًا وكَرْهًا، وأما الكافر فقد أسلم لربه كَرْهًا فقط، وبيان ذلك أن أهل الإيمان أقبلوا على الله، واستسلموا له ظاهرًا وباطنًا، وسارعوا إلى مغفرته ورضوانه، وامتثلوا أمره على الوجه الذي يحب فإنهم أحبُّوه، وإنهم عظَّمُوه ورجَوْه وخافوه، فكانت هذه خصيصة لهم دون أهل الكفر.

وأما كرهًا فلأن أهل الإيمان وأهل الكفر تحت سلطان الله تعالى وقدرته، ولا يقدرون على منع شيء أراده الله وقدّره من حياة أو رزق أو صحة أو مرض أو موت.

ثم هم جميعًا راجعون إلى الله تعالى بعد هذه الحياة الدنيا، وموقوفون بين يديه ومسؤولون ومحاسبون، وصائرون إلى ما أعده لهم جزاء، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قل يا محمد ﷺ مُعلمًا ومُبيِّنًا ومُبلغًا: آمنا بالله ربًّا وإلهًا، وآمنا به واحدًا في أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته، وآمنا بالقرآن الذي أُنزل على نبينا ﷺ ليبلغه للناس جميعًا، ونؤمن بالرسل والأنبياء الذين جاء ذكرهم في القرآن والسنة دون تفريق بينهم، ونؤمن بما أنزل عليهم من

التَّوْرَاةِ وَالزَّبُورِ وَالْإِنْجِيلِ والصحف، لا كما فعل اليهود والنصارىٰ الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣].

قل يا محمد ﷺ: آمنا كذلك أن الله تعالىٰ أَنْزل علىٰ الأسباط وحيًا وأمرهم بالبلاغ لهداية أقوامهم، وأن الوحي الذي أُنزل إليهم موافق للوحي الذي أُنزل إلينا وإلىٰ من ذكر الله من الأنبياء والرسل.

والأسباط جمع سِبْط، وَالسِّبْطُ : الْجَمَاعَةُ وَالْقَبِيلَةُ، الرَّاجِعُونَ إِلَىٰ أَصْلٍ وَاحِدٍ.

قال أهل العلم : الْأَسْبَاطُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَالْقَبَائِلِ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ.

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الأسباط هم أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الاثني عشر، وجمهورهم علىٰ أنهم كانوا من ذرياتهم ولم يكونوا هم. قال الله تعالىٰ عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٦٠]، فكل ما نزل من كتب وأوحي به لمن اختاره الله تعالىٰ من هؤلاء الأسباط نؤمن به. قال الله تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ ونحن لله الواحد منقادون ومخلصون، وبالعبادة متذللون ومقبلون، وبشريعته ماضون ولها مبلغون، وعن أهوائنا وشهواتنا التي حرَّم الله منصرفون.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

بعد هذا البيان القرآني لحقيقة الدين الذي يرتضيه الله تعالىٰ لعباده، جاءت الآية لتبين أن كل من سلك طريقًا في عبوديته لله غير طريق الإسلام، فلن يُقبل منه، ولا يكون مسلمًا في أحكام الدنيا، ولا كذلك في الآخرة، بل هو من الخاسرين الذين خسروا كل شيء، المستوجبين للخلود في عذاب الله.

تأملوا عناية القرآن ببيان الدين الذي يقبله الله ولا يقبل دينًا سواه، وتأملوا تكراره في بيان أن الْإِسْلَام هُوَ مِلَّة الْأَنْبِيَاءِ جميعًا، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ مَنَاهِجُهُمْ، وأنهم لم يكونوا

لا على اليهودية ولا على النصرانية، وما ذاك إلا لترسخ العقيدة في القلوب، ويكون أصحابها أقوى في ردِّ الدعاوى التي يسعى أصحابها في التلبيس على الناس، وفي صَرْفهم عن الحق والهدى. قال الله تعالى عن نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة١٣١-١٣٣].

صحيح أننا آمَنَّا بِأَنَّ الله أَنْزَلَ تِلْكَ الشَّرَائِع والكتب، ولكن إيماننا بأن الله أنزلها لَا يُنَافِي أَن بَعْضهَا نسخ بَعْضًا، وَأَنَّ شريعة محمد ﷺ نَسَخَتها جميعًا، وأن الله لا يقبل من عبد غيرها بعد بعثته ﷺ.

ومثل هذه الآيات تجعل المسلم يُحسِن لنفسه بالثبات على عقيدة الحق والهدى، وتُعطيه الثقة بهذا الطريق الذي أكرمه الله به، وتعطيه اليقين بأن الإسلام هو دين الحق الذي لا يُعبد الله بغيره، وتجعلُه يستشعر عظم الأمانة التي يجدر به أن يؤديَها على الوجه المرضي، أعني: أمانة تبليغ الدين للناس ودعوتهم وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وأمانة الحرص على حفظ هذا الدين بين أهله عن طريق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقائل أن يقول: إن اليهود والنصارى يزعمون أنهم على الدين الحق، وأنهم أهل نجاة في الآخرة، وأنهم مستسلمون لأمر الله، فلماذا لا نقول: إن الجميع ناجون في الآخرة، وإن الجميع يعرف ربه ويؤمن بوجوده، وإن الجميع قد اجتهد في طريق الهداية فوجدوه في عقيدتهم وشريعتهم ؟ فلماذا يكون ديننا هو الحق ودينهم هو الباطل ؟

والجواب: إن دين الله الذي ارتضاه للعالمين نعرفه عن طريق وَحْيه لا عن طريق غيره، وقد أوحى الله إلى نبيه أن اليهود والنصارى وغيرهم من الأمم والمِلل ليسوا على طريق الإسلام الصحيح، ثم إن الوحي الذي عندنا قامت أدلة عظيمة على صحته وصدقه، فالقرآن فيه من العجائب ما لا يخفى على مُنصف، والسنة النبوية جاءت بكنوز يعلمها من أجال بصره فيها، ثم إننا ما وجدنا تشريعًا ينظم حياة الناس في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية وغيرها كشريعة محمد ﷺ، وما وجدنا دينًا وصل إلينا عن طريق أسانيد صحيحة ومعلومة إلا في ديننا، وما وجدنا دلائل على حقائق علميةٍ إعجازيةٍ موفورةٍ إلا في الكتاب والسنة.

والمتأمل في دين محمد ﷺ يعلم تمام العلم أنه دين محفوظ بحفظ الله، وأنه منزل من عند الله، وأنه يحوي عقيدة توافق العقل والفطرة، بخلاف عقيدة النصارىٰ التي تقوم علىٰ العجائب وما يصعب فهمه، فمن نظر عندهم في عقيدة الصلب والفداء، أو في عقيدة التثليث علم أن أيدي البشر قد لعبت وتدخلت، وكذلك من نظر في الإنجيل والتوراة وكيف وصلت إلينا، علم أنه لا أسانيد لهما، وعلم أن النسخ الأصلية مفقودة، وأنها مكتوبة بلغات أخرىٰ، ولا تكاد تجد واحدًا في العالم كله يحفظهما أو رجلًا واحدًا حفظهما في التاريخ ليطمئن قلبك.

ولذلك لم يكن من العدل أن نطلق الكلام في تصديق جميع ما يقولون، وليس من العدل أن نغفل عن ميزاننا في محاكمة ما حولنا من عقائد وتشريعات، وليس من العدل أن نتنصل من سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام، ومن سيرة صحبه الكرام عليهم رضوان الله، ومن سيرة الصالحين من خلفاء الأمة وعلمائها التي قامت علىٰ التمسك بالحق وأخْذه بقوة كما أمر الله وأرشد، والتي قامت علىٰ أن اليهود أشد الناس عداوة لله وللذين آمنوا، وعلىٰ أن النصارىٰ جعلوا الآلهة ثلاثًا.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

تذكر الآية الكريمة حال صنف من الناس، قد ظهر لهم صدقُ نبينا ﷺ، وجاءتهم كثير من البراهين والأدلة والمعجزات علىٰ أن هذا الدين حق، ثم بعد كل ذلك يرجعون إلىٰ ظلمة الشرك والكفر والشك والردة، فمثل هؤلاء لا يعطيهم ربنا هدايته، ولا يعينهم ولايشرح صدورهم لدينه، بل يَمُدهم في طغيانهم وكفرهم، فإنهم ظلموا أنفسهم بردتهم، واختاروا طريق الغواية.

وهذا حال اليهود والنصارىٰ الذين آمنوا بمبعث نبي في آخر الزمان كما أخبرتهم كتبهم، ثم كفروا به لما أرسله الله لأنه ليس منهم، وكابروا وصدوا عن الدين، فلا مَطمع لهدايتهم، إلا أفرادًا منهم أنصفوا وأسلموا.

ومن أهل العلم من قال: إن اليهود والنصارىٰ كفروا بما جاءتهم به رسلهم بعد أن آمنوا، فاليهود تجرؤوا علىٰ الرسل فقتلوا عددًا منهم، واعتدوا علىٰ التوراة فحرفوها، والنصارىٰ نسبوا الألوهية لنبيهم، واعتدوا علىٰ الإنجيل فحرفوه.

والآية لا تقتصر على اليهود والنصارى، بل حصلت مع من أسلم وآمن وصدّق بديننا ونبينا، ثم ارتدَّ على عقبيه، ولا أظن أن ثمة زمانًا يخلو من مثل هذا النوع من الناس، نسأل الله الثبات حتى الممات.

والآية فيها تيئيس من إيمان اليهود والنصارى جميعًا، وإن كان إسلام أفراد منهم مَرجوًّا ومطلوبًا ومتوقعًا، وإن كانت دعوتهم لازمة علينا لنبرئ الذمة فيهم، ولننقذ من استطعنا إنقاذه منهم من الشرك وعواقبه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

لقد اختاروا طريق الضلال بعد أن عرفوا طريق الاستقامة والرشاد، وتجرؤوا على الله واقترفوا أعظم فتنة في الأرض، ألا وهي الكفر والصد عن سبيل الله، فحرمهم ربنا من هدايته كما في الآية السابقة، ثم أتبعهم بلعنته لهم، وسخطه عليهم، وطردهم من رحمته في الدنيا والآخرة.

ومما يدل على عظم ما يفعلون أنهم خسروا حفظ الله ورعايته، وابتعدوا عن رحمة الله ورضوانِه، ثم نالتهم لعنة الملائكة جميعًا، ولعنة اللاعنين من الناس جميعًا، أي: دعت عليهم الملائكة، ودعا عليهم الناس أن يَحِلَّ عليهم سخطُ الله، وتَحِلَّ عليهم عقوبتُه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢].

وهنا مسألة نافعة: هل يجوز لعن الكفار استدلالًا بالآية الكريمة؟ قال أهل العلم: لَا خِلَافَ فِي جَوَازِ لَعْنِ الْكُفَّارِ، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن بعده مِنَ الْأَئِمَّةِ، يَلْعَنُونَ الْكَفَرَةَ فِي الْقُنُوتِ وَغَيْرِهِ.

وهذا اللعن على سبيل الإجمال، أما لعن كافر بعينه واسمه فالأصل عند كثير من العلماء اجتناب لعنه؛ لِأَنَّا لَا نَدْرِي بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، ولأن الأصل في المسلم أن يجنب لسانه اللعن وإطلاقه في الغير. أخرج الترمذي وغيره عَنْ عَبْدِاللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللِّعَانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ».

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

لعائن الله ولعائن خلقه عليهم إلى أبد الآبدين، وهم خالدون في نار الله لا يُخفف العذاب عنهم ساعةً، بل يأتيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم على الدوام، أجارنا الله وإياكم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أي: لا يُمهلون ليعتذروا ويتوبوا، ويُصلحوا سوء صنيعهم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

يفتح الله لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إليها وإن ارتدوا عن دينهم، وفعلوا ما فعلوا من ترك الهدىٰ، يدعوهم للتوبة قبل أن تبلغ أرواحهم التراقي، وقبل أن يفجأهم الموت، وهذا من عِظم لطف الله تعالىٰ بخلقه ورأفته ورحمته بهم، فإنه سبحانه يتوب علىٰ من تاب، ويُعين من صدق الله تعالىٰ في طاعته، وأصلح نفسه بالإيمان والعمل الصالح.

أخرج أحمد والنسائي والحاكم عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ قَوْمِهِ، سَلُوا لِي رَسُولَ الله ﷺ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ.

والآية وإن كانت في معرض ذِكر أهل الكفر والشرك، إلا أن أهل الإيمان والتقوىٰ ينتفعون بمثل هذه الآيات، ويسألون الله تعالىٰ بصدق أن يُثبتهم علىٰ دينه، ويعينهم علىٰ طاعته، ويدعونه بأن يُحبب إليهم الإيمان والطاعة، ويُكرِّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

وأهل الإيمان لا يفتحون علىٰ أنفسهم أبواب الشرور والآثام، ويسارعون إلىٰ التوبة والرجعة إلىٰ الله إذا عصَوْا وأذنبوا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

هذا صنف لا يرجع إلىٰ الله تعالىٰ بعد رِدته، بل يكفر، ثم يُصرُّ علىٰ كفره وعدائه لهذا الدين، ويزدادُ في ضلاله ويستمر عليه حتىٰ يموت، فمِثْله لا تقبل منه توبةٌ حال نزع الروح منه، ويكون من الضالين الذين خرجوا عن طريق الرشد، وأخطؤوا طريق الهداية، بعد أن آتاهم الله من فضله، وأنعم عليهم بالإيمان. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

ومن أهل العلم من فسّر الآية بأن مثل هذا الصنف من الناس، لا يوفقهم الله لتوبة، بل يُضيق عليهم طرائقها وأسبابها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧].

وقد حصل ذلك مع من آمنوا برسالة أنبيائهم، ثم كفروا برسالة محمد ﷺ، وبقي الواحد منهم على كفره وازداد، وقاوم الحق، وآذى الرسول عليه الصلاة والسلام، وداوم على التشكيك في الدين والتضييق على أهله وحملته.

وهذه الآية تشمل من ارتد من الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية، فمثله لا ينفعه أن يتوب من ذنب ما دام مشركًا، كما لا تنفع الكافر الأصلي توبته من ذنب دون أن يسلم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ وأي ضلال أعظم من أن ترد التوبة في وجه صاحبها، ويُطْبع على قلبه حتى يستحيلَ دخول الهداية إليه، فيكونَ من الذين ابتعدوا عن طريق الاستقامة وجهلوا الوصول إليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

رسخ الكفر في أقوام حتى طُبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فلم ينتفعوا منها بشيء، وبقيت حالهم كذلك حتى ماتوا، وهؤلاء: سيقفون بين يدي الله يوم القيامة للحساب، ولن يغني عنهم من عذاب الله أَحَد، ولن تنفعهم شفاعة، ولن يُقبلَ منهم فديةٌ ولا بدلٌ، ولا عوضٌ ولا رِشْوةٌ، ولن يعفو الله عنهم وإن قدّم أحدهم ذهبًا مَلأَ الأرض بجِبالها وتِلالها وتُرابها، ورِمَالها وسَهْلها ووعْرِها، وبَرِّها وبَحْرِها.

ومعلوم لديكم أنه لن يكون للرجل مال يوم القيامة أو جاه، ولكنه من باب الفَرْض والتقدير. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

وأخرج مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: يَا رَسُولَ الله، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: "لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

وأخرج البخاري ومسلم عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يَقُولُ الله تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي".

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أولئك لهم عذاب موجع مؤلم، ولن يستنقذهم من عذاب الله ناصر أو معين، أو صديق أو قريب.

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

جاءت الآية هنا في معرض محاجة أهل الكفر الذين زعموا أنهم أحباب الله وأولياؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات، وأنهم أصحاب دين اتبعه نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومجيئها هنا يحمل خطابًا لهم، يطلب منهم أن يتخلصوا من شح نفوسهم، ومن حرصهم على المال الذي ربما كان سببًا في صرفهم عن الحق، ويريد منهم أن يعطوا فقراءهم ومساكينهم من أطهر أموالهم لعل ذلك يكون سببًا في تزكية نفوسهم، ولعل الإيمان بالله العظيم يدخل إليها.

والآية بعمومها تنادي على أهل الإيمان، تقول لهم: لن تنالوا أيها المؤمنون حفظ الله لكم وما أعده لكم في الجنة، ولن تصلوا إلى حقيقة بِرِّ الله وطاعته، إلا إذا بذلتم من طيب أموالكم لله وفي الله، وهذا فيه تحريض للعباد على الإنفاق، وعلى أن يكون من أحسن المال لا أخبثه، لينالوا بذلك تزكيةَ نفوسهم، ويخلصوها من الشُّح والطمع، وليحسنوا التعامل مع شهوة المال، ولينظر الفقير إلى بذْل الغني، فتتحقق الأُلفة والمحبة بين النّاس بأعلى درجاتها، وَيَهْنَأُ عَيْشُ الْجَمِيعِ. قال الله تعالى في وصف الأنصار أهلِ المدينة لما بذلوا الخير لإخوانهم المهاجرين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

أخرج البخاري ومسلم عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: "أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ (أي: ليس مريضًا) شَحِيحٌ (أي: شديد البخل والإمساك) تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ (أي: بلغت الروح الحلقوم واقتربت الوفاة)، قُلْتَ: لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ".

اعلموا يرْحمكم الله أنَّ من علامات صدقِ العبد في بِرِّه وحبه وطاعتِه لربِّه، أن يحرصَ على الإنفاقِ الأكمل من ماله، وهذا الإنفاق الأكمل يكون عن طريق تصدقه وبذْله من أحسنِ ماله وأطْيبه وأنْفسِه، وأحبِّه إلى قلبه، وأكثرِه تعلُّقًا به، فإنه لا يحرص على ذلك إلّا من حقَّقَ الامتثالَ والاستسلام لأمر الله تعالى بأعلى درجاته، وقدّم مُرادَ الله تعالى على حظوظ نفسه وهواها، وعمَّر قلبه بالثقة بالله والتوكُّل عليه.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الْإِنْسَانِ: ٨-٩].

وحبُّ المتصدقين لأموالهم يختلف من شخص لآخر، وإنما يكون ذلك بحسب حاله، ورغبته وحاجته للمال، وبحسب كثرة ماله وقِلّته، وبحسب البيئة التي نشأ فيها.

ولكم أن تتأمّلوا أثرَ الخطاب الرباني في هذه الآية على نفوس أهل التقوىٰ، فقد أخرج البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ(اسم بستانه)، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ الله، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ" فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ".

ولا يُفهم من هذا أن العبد لا يجوز له الإنفاق إلا من أفضل ماله، بل يُنفق من ماله ما ينفع الفقير والمحتاج وإن كان من أوسط ماله، ولذلك أرشد النبي ﷺ معاذَ بنَ جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعثه إلىٰ اليمن، وأمره بأخذ الزكاة منهم، أن يجتنب أخذ أفضل المال وخياره. أخرج البخاري ومسلم عَنِ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رَسُولُ الله ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: "«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُمْ إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ».

أما المذموم من النفقة فهو أن يعمد المنفق إلى أسوأ ماله، ويتصدق مما جناه وأخذه عن طريقِ الحرامِ من الغِشِّ والظُلمِ والرِّبا ونحوِ ذلك، فإنَّ الله تعالى طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا، أو يتصدق بأرذلِ المالِ وأخسّه وأدناه عنده، مِمَّا يكرهُه ولا قيمةَ له، ومما لا ينتفعُ به غيرُهُ كثيرًا، ولا يكاد يُلتفَتُ إليه، ولو أنه فقير فجاءه مثل هذا المال ما أخذه إلا وهو مغمض عينيه علامة على كراهته ودناءته. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ الله يعلمُ نيَّةَ من أنفق، ويعلم هل كان صادقًا مع الله أم أراد بها متاعًا من متاع الدنيا، من شهرة أو رياء أو جاه.

والله يعلم حُبَّ المتصدق لماله، ويعلم حاجته إليه، وسيجزيه عليه أوفرَ العطاء، وأحسنَه وأكثرَه.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَلَا رَجُلٌ يُضِيفُ هَذا اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ الله، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ الله ﷺ، لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا، قَالَتْ: وَالله مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ، فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: لَقَدْ عَجِبَ الله عَزَّ وَجَلَّ، أَوْ: ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾».

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

لفظة ﴿حِلًّا﴾ أي: حلالًا. وإسرائيل هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات ربي وسلامه.

والآية فيها إثبات لنبوة محمد ﷺ الذي حاجَّ اليهود في توراتهم، وتحداهم بأن يقرؤوا ما فيها، مع أنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، وليس عنده علم سابق بالتوراة، ولا يعلم أحد ما عند اليهود مما ستُخبر عنه هذه الآية إلا الله وعلماء اليهود.

كفر اليهود بشريعة محمد ﷺ، وأنكروا أن يكون هناك نسخٌ في الشرائع، وأن يأتي نبيٌّ ينسخ شريعةَ مَنْ قَبْله، فذكّرتهم الآية هنا بأن النسخ وقع في شريعتهم التي يؤمنون بها، حيث حرَّم نبي الله يعقوب على نفسه أنواعًا من الطعام بعد أن كان مباحًا، فكيف يؤمنون بنسخ ذلك، ولا يؤمنون بنسخ شريعتهم!

ولكن اليهود لمّا خوطبوا بذلك، زعموا أن تحريم هذه الأطعمة إنما كان من زمن الأنبياء قديمًا، ومن زمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وليس نبيُّ الله يعقوب أولَ من حرم ذلك، وكأنهم ينكرون على النبي ﷺ عدم اتباعه لهذا الأمر مع أنه نبي مثلهم، فعند ذلك طلب رسولنا ﷺ منهم أن يحضروا التوراة التي نصّت على أن الأنبياء قبل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، هم أول من حرموا ذلك وليس نبي الله يعقوب، فلم يحضروا التوراة ولم يُظهروا ما فيها خوفًا من فضيحتهم، وانكشاف تزويرهم وتدليسهم على عوامّهم.

واعلموا أنَّ النسخَ وقع في التوراة في أكثر من تشريع رباني، فقد جاءت التوراة بأن الله تعالى أَذِنَ لِآدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، وَقَدْ حرَّم ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ شَائِعًا وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثُمَّ حُرِّم ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ.

ولأهل العلم وجوه أخرى في تفسير هذه الآية، أختار منها ما ذكره غير واحد من أهل التفسير بأن اليهود قالوا لنبينا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: كيف تقول إنك على ملة إبراهيم، وأنت تأكل من لحوم الإبل وألبانها، مع أنها كانت حرامًا في دين إبراهيم، فكأنهم جعلوا ذلك طعنًا في صحة هذا الدين، فأنزل الله تعالى هذه الآيات تردُّ عليهم بأن لحوم الإبل وألبانها كانت حلالًا في شريعة إبراهيم ومن بعده، حتى حرمها إسرائيل على نفسه، ثم بقيت الحرمة في أولاده، فأنكر اليهود ذلك، فتحدَّاهم نبينا ﷺ، وطلب منهم إحضار التوراة لاستخراج آية منها تدل على أن التحريم كان في زمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فعجزوا عن ذلك وظهر افتراؤهم.

وعلى أيِّ وجه من الوجوه في التفسير، يكون معنى الآية: كل الطعام كان حلالًا لبني إسرائيل من قبل أن يُنَزِّل الله التوراة على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، إلا ما حرمه نبي الله يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على نفسه اختيارًا، ولو كان كلامكم صحيحًا لذكره الله تعالى في التوراة التي أُنزلت على نبي الله موسى، والذي أُرسل بعد إبراهيم وإسماعيل ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فإن زعمتم خلاف ذلك، فهاتوا دليلكم من التوراة التي فيها شريعتكم، واقرؤوه على رؤوس الملأ لنتبين صحة دعواكم من بطلانها.

وقد أخرج أحمد في مسنده بإسنادٍ حسّنه بعض أهل العلم بمجموع طرقه عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْيَهُودِ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، حَدِّثْنَا عَنْ خِلالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهَا، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، فَكَانَ فِيمَا سَأَلُوهُ: أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ؟ قَالَ: "فَأَنْشُدُكُمْ بِالله الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ الله مِنْ سَقَمِهِ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، فَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، لُحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟" فَقَالُوا: اللهُمَّ نَعَمْ.

وأخرج الترمذي والنسائي في الكبرى أنَّهم قَالُوا: فَأَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: "اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا لُحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا، فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا" قَالُوا: صَدَقْتَ.

فهذا يدل على أن نبي الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، حرَّم على نفسه أنواعًا من الطعام والشراب، كان قد نذر أو عزم على أن يتقرب إلى الله تعالى بتحريمها على نفسه إن عافاه الله من مرضه، وليس في ذلك دليل على جواز مثل هذا النوع من التحريم، بل لا يُندب في ديننا لأحد أن يُحرم على نفسه ما أباحه الله له، وقد عُوتب نبيُّنا ﷺ لتحريمه العسل على نفسه، كما في أوائل سورة التحريم.

وللتذكير، فإنَّ آياتِ كتابِ ربنا قد دلت على أنَّ الله تعالى حرَّم عليهم أنواعًا من الطيبات، بسبب ظلمهم وعصيانهم وتعدِّيهم، ولعل ذلك كان في التوراة التي نزلت عليهم، إلا أن ما زعموه من تحريم لحم الإبل ولبنها ليس مذكورًا تحريمه في التوراة. قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

قامت الحجة على من خاطبتهم الآيات، ووقع التحدي بأن يأتوا بالتوراة لنتبين الصادق مع الله، ممن افترى عليه الكذب، ثم جاءت الآية هنا تتوعدهم وتنذرهم لعلهم يهتدون ويمتنعون عن قول الباطل على الله.

صحيح أن الآية جاءت في معرض الحديث عن اليهود وكذبهم وتدليسهم، ولكن عمومها يقول لنا: قامت الحجة على من بلغه الدين، وعلى من بَيَّنت له الشريعة كلَّ ما يحتاجه من الفهم والعلم، فلا يُقبل من أحدهم بعد ذلك أن يكفر بآيات الله، ويكذب على الدين ويفتري عليه ما ليس فيه، ويكذب على الخالق وينسب إليه ما لا يليق به، فهذا هو الظلم الذي لا يرضاه الله تعالى في الأرض، وقد أعدَّ لصاحبه عذابًا مُهينًا.

قال أهل العلم: والآية تعمُّ كل من افترىٰ الكذب علىٰ الله بعد ما تبين له الحق، من اليهود وغيرهم. قلت: وكذا من أضلَّ الناس من علماء السوء، وتجَّار الدين.

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

صدق الله ربنا وكذب اليهود ومن أخذ بمقولتهم، صدق الله لما أخبرنا أنه لم يحرم علىٰ إسرائيل ولا علىٰ ولده لحومَ الإبل وألبانَها في التوراة، وإنما حرّمه إسرائيل علىٰ نفسه وَوَلده.

تعطينا الآيات ثقة بعد ثقة بهذا الطريق الذي ارتضاه الله تعالىٰ لعباده، وتعطينا حقيقة كلام اليهود وصفتهم، وحقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله تعالىٰ به جميع رسله.

قل يا محمد ﷺ وبلِّغ، وقولوا أيها الدعاة إلىٰ الله تعالىٰ وبَلِّغوا: إن ما أخبرنا الله تعالىٰ به في القرآن وفي السنة الصحيحة هو العدل والصدق، وهو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وهو الدين الذي جاء به نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ومال وحنَف فيه بقومه من الشرك إلىٰ التوحيد. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقل يا محمد ﷺ لليهود الذين يتفنَّنون في الافتراء علىٰ دين الله: لا تكذبوا علىٰ الله ودينه ورسله، ولا تظنوا أنكم علىٰ دين الحنيفية السَّمْحة ملةِ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فاستقيموا خيرًا لكم، واتبعوا كلام الله الذي فيه الصدق والنجاة.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وما كان نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ دين اليهودية أو النصرانية أو عبادة الأصنام، ولا كان مواليًا لهم ولا مناصرًا، بل كان ممن تبرأ من أبيه وقومه، وممن أبدىٰ لهم العداوة والبغضاء لما عدلوا عن التوحيد إلىٰ الشرك، واختاروا طريق العداوة لله ولدينه وأوليائه.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

بَكَّة اسمٌ من أسماء مكة حفظها الله، وفيها الكعبة التي رفع قواعدَها إبراهيمُ وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهي أولُ بيت جعله الله تعالىٰ في الأرض للعبادة، يطوفون حوله، ويقضون عنده عددًا من عباداتهم ونُسكهم.

يزعم اليهود والنصارىٰ أنهم علىٰ دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنه علىٰ دينهم، ثم لا يحجُّون أو يقصدون البيت بأي نوع من أنواع العبودية، بل غمزوا ولمزوا بقبلة المسلمين، وزعموا أن بيت المقدس هو أول بيت وقبلة للناس.

والصحيح أن أول بيت هو مكة، ثم بُني المسجد الأقصى بعده، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أَبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «المَسْجِدُ الحَرَامُ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ «المَسْجِدُ الأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاَةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الفَضْلَ فِيهِ».

﴿مُبَارَكًا﴾ ولهم أن يتأملوا كيف كتب الله تعالى لهذا البيت القبول بين الناس، وكيف كتب له الخلود، فإن في ذلك عبرةً لمن تجرَّد وصدق.

الكعبة بيتٌ مبارك ومرفوع القدر عند الله، وبركته لا تنفك عنه وعن أهله وعمن قصده بالعبادة، وهو أمر معلوم لكل من عبدَ الله عنده.

ومن بركته أن الله تعالى جعل أفئدة الناس تهوي إليه وتشتاق لزيارته المرة بعد المرة، ورزق أهله من الثمرات الكثير الكثير، وعنده يستجيب الله الدعوات ويفرج الهموم وينفس الكربات، والعمرة إلى العمرة فيه تكفر الخطايا، والحج إليه محو للذنوب جميعًا، وهو أرض الأنبياء ومهوى القلوب.

ومن بركته أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة، ومن دخله كان آمنًا، وهو أفضل بقاع الأرض، ويكفي أنه مكان نزول الوحي على محمد ﷺ، ونزول كثير من القرآن العظيم، وفيه يكون الطواف، وفيه ماء زمزم، وفيه الحجر الأسود ومقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ وعند البيت تتخلص النفس من شوائب الشرك وخُبثه، ولا تتحقق هداية العالمين إلا بالطواف حوله استجابة لأمر الله، مع الإيمان بما شرع الله وأنزل، ولا تقبل صلاتهم إلا بالتوجه إليه بوجوههم وقلوبهم.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

في البيت الحرام والكعبة آياتٌ ودلائلُ على عظمة هذا البيت وتشريفه ومكانته عند الله، وفيه من العلامات والدلائل على أن الله تعالى اختار هذا البيت واصطفاه ورضيه للعالَمين، فإن هذا البيت رفع قواعده نبيُّ الله إبراهيمُ وولدُه عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ويسّرَ الله لزائريه وساكنيه من الخير الكثير، وأمَّنهم من الخوف الذي أحاط بمن حولهم.

بل من أعظم هذه الآيات البينات كما ذكرت الآية وجود مقام إبراهيم، وهو الحَجَر الذي كان يصعد عليه في بنائه للكعبة عندما شقَّ عليه رفع الحجارة، فكان يقوم عليه ويبنيها، وكان إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يناوله الحجارة، بدلالة أثر قدميهما الذي نراه في الحجر إلىٰ أيامنا هذه، بعد أن أَلَانَ الله تعالىٰ لهما الحجر الذي وقفا عليه.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أنه كان ملاصقًا للكعبة، ونقله عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ومنهم من ذهب إلىٰ أنه في مكانه من أيام سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكل أدلته.

وقد جاء ما يدل علىٰ أن هذا المقام ياقوتة أنزلت من الجنة، كما هو حال الحجر الأسود، فقد أخرج الترمذي وغيره عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن رَسُول الله ﷺ قال وَهُوَ مُسْنِدٌ ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ: "الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ مَنْ يَوَاقِيتِ الْجَنَّةِ، وَلَوْلَا أَنَّ الله طَمَسَ عَلَىٰ نُورِهِمَا لَأَضَاءَتَا مَا بَيْنَ المشرق والمغرب".

وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه لما انتهىٰ من طوافه في الحج، صلىٰ ركعتين، جعل فيهما مقام إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بينه وبين الكعبة، وهذا فيه دلالة علىٰ مكانته، وفيه تذكيرٌ بالحنيفية التي أُرسل بها نبي الله إبراهيم والأنبياء كلُّهم عليهم أفضل الصلاة والتسليم. قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ﴾ [البقرة: ١٢٥].

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ وهذه آية من آيات المسجد الحرام وبركة من بركاته، وفيها بيان لنعمة كبيرة من نعم الله تعالىٰ التي نرىٰ أثرها كل يوم ونعيشه، أعني: نعمة أنْ جعل الله الكعبة البيت الحرام في مكة سببًا للأمن، يدخله الناس من أقطار شتىٰ وهم آمنون علىٰ أنفسهم وأعراضهم وأموالهم مع كثرتهم وتنوع بيئاتهم، كما قال ربنا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ العَدَوِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا الله، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ فِيهَا، فَقُولُوا: إِنَّ الله قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ (يقصد يوم فتح مكة)، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ". وَأخرج مسلم عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: "لَا يَحِلُّ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ".

والأمن في البيت الحرام لم يكن في عهد الإسلام فقط، بل كان في أهل الجاهلية الذين عمّت الفوضى حياتهم، فقد كان للبيت في قلوبهم وفي قلوب من حولهم حرمةٌ وقدسيةٌ ومهابةٌ، ولم يمنعوا عنه حاجًّا أو معتمرًا، حتى إنَّ الآيات جاءت تُذكِّرهم بنعمة الله عليهم، كيف أنَّ الله تعالى أمَّنهم في هذه البقعة من خوف، حال تقاتل من حولهم من البلاد. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريش: ٣-٤]

وقد تميَّز الأمن للبيت الحرام في الإسلام بجملة من الأحكام الشرعية الخاصة به، وهذه الأحكام كانت محل اهتمامٍ وذكرٍ وبيانٍ من علماء الإسلام عبر التاريخ، ليصدق وعد الله فيه.

وانتبهوا هنا إلى أن تحقيق الأمن في البيت الحرام هو خطاب من الله تعالى يلزم أهل الملة اتِّباعه، إلا أنا قد نجد من يخالف شرع الله فيه بقتل أو سرقة أو غير ذلك، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الْحَجّ: ٢٥].

وأهل العلم على قولين في إقامة العقوبة على من اقترف جريمة أو فاحشة خارج الحرم، ثم لجأ وهرب إلى الحرم، فالحنفية والحنابلة على أنه لا تقام عليه العقوبة في الحرم، ولكن يُضيَّق عليه فلا يُبايع ولا يُجالس حتى يخرج من الحرم.

أما عند المالكية والشافعية فتُقام عليه العقوبة.

وهذا بخلاف من فعل الجريمة داخل الحرم، فإنه تُقام عليه العقوبة بإجماع أهل العلم؛ لأنه هتك حرمة الحرم، فلا حرمة له.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ومن تعظيم البيت وبركته أن يقصده الناس بالحج، ولقد أجمع المسلمون على أنَّ الحجَّ ركنٌ من أركان الإسلام ودعائمه وقواعده وشعائره، وعلى أنه يجب على المسلم المكلف الحُرِّ القادر أن يحج مرة واحدة في عمره، استدلالًا بهذه الآية وغيرها.

نَصَّت الآية على أنَّ إيجاب الحج مشروط بالاستطاعة، والتي تكلم العلماء عنها وبينوا أنها تقوم على القدرة البدنية والمالية، وتقوم على أمن الطريق ووجود الزاد والدابة، وكذا وجودِ المحرم للمرأة عند جمهورهم، وهذه المسائل لها أحكام وتفاصيل بينها أهل الفقه واستطردوا في عرضها.

أخرج الإمام مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ الله عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا"، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَام يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ"، ثُمَّ قَالَ: "ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ".

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: من كفر بالله ورسولِه بعد ما ذُكر من الآيات والدلائل الواضحات، وكفر بحجِّ بيت الله على الطريقة التي شرعها وأرادها، فإنه لا يضر إلا نفسه، والله غني عنه وعن إيمانه وطاعته، ولا يَقبل الله منه عملًا.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

أهل الكتاب من اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن والسنة، وكفروا بآيات الله التي دلت على صدقه، وعاندوا الحق وكابروا، لكن الله تعالى شَهِيدٌ عَلَى صَنِيعهم، وعليمٌ بمخالفتهم وتكذيبهم وجحودهم.

اصدع يا محمد ﷺ بالإنكار على أهل الكتاب، وقل لهم موبِّخًا وناصحًا: لم تفْعَلون ذلك، وأنتم تعلمون صفات عظمة الله وتعتقدونها وتُدركونها، وتعلمون أنه يسمع كلامكم ويرى فِعالكم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

هذا مزيد وصف من القرآن لأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يقاتلون الرُّسل وحملة الشرع ويعادونهم، ويريدون للكفر أن تعلوَ كلمته في الأرض، ويصدون عن دين الله من آمن ويبغونها عوجًا وشِركًا وفسوقًا، ويُكثرون من جدال المؤمنين ليُضلوهم ويُشككوهم في دينهم، فكانت أفعالهم وأقوالهم فيها هلاك للحرث والنسل، مع أنهم يعلمون في ضمائرهم حق العلم بأن هذا الدين حقٌّ، وأن محمدًا ﷺ رسولُ الهدى، وأنه جاءهم بما جاءهم به أنبياؤهم من قبل، ويشهدون على ذلك.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الله تعالى لا يغفل عما يفعلون، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُهُمْ مَالٌ وَلَا بنون.

قل لهم يا محمد ﷺ ذلك، وأنذرهم وخوِّفهم عذاب الله وسخطه ونقمته، وحذِّر المؤمنين منهم ومن طاعتهم قائلًا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ ﴾

يا أهل الإيمان، رِدَّتُكم عن دينكم، وترْكُ نصرته والدعوة إليه، والإيقاعُ والتحريشُ وبثُّ البغضاء بينكم، غايةٌ من غايات كثير من أهل الكتاب وغيرهم، فاحذروهم ولا تطيعوهم، وتسلحوا بالبصيرة في تعاملكم مع هذه الفئة الحاقدة في حيَلها وخُبْثها وكيدها. قال الله تعالىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩].

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقرُّوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند الله: إن اليهود الذين معكم في المدينة لا يختلف حالهم عمن سبقهم، فاحذروا أن تطلبوا منهم النصيحة والمشورة فيما يهمكم، واحذروا من الركون إليهم فإنهم أهل عداوة وبغضاء وحسد، ولا يبتغون من أقوالهم وأفعالهم إلا أن تجحدوا ما آمنتم به كما جحدوا.

ذكر المفسرون أن الآية أشارت إلىٰ فريق من اليهود، يقودهم شاس بن قيس، قادوا فتنة بين المؤمنين من الأوس والخزرج مستغلين الحروب التي كانت بينهم قبل الإسلام، وكادوا أن يوقِعوا بينهم مقتلةً، ولكن الله سلَّم، وقد خرج لهم رسول الله ﷺ لمَّا بلغه الأمر، وأصلح بينهم وذكّرهم بنعمة الإسلام والأخوة، وسيأتي مزيد بيان لما جرىٰ قريبًا بعون الله.

أقول: وهل اختلف حالهم وحال أهل الكتاب في زماننا عمن سبقهم ؟ وهل صاروا أهل مودة وائتمان لنا ؟ هذا ما لا يقول به من علم حقيقة أمرهم ومكرهم، وأيقن أنهم لا يزالون يوقعون بين أهل الإسلام، ويُحرِّشون بينهم، ويبذلون أسباب الفتن والبغضاء والشحناء بين الأمة الواحدة، فاللهَ الله بالحذر منهم ومن تربصهم بالمؤمنين.

﴿ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ ﴾

تحمل الآية فوائدَ وَعْظيةً عِدَّة، إليكموها:

١ – بعد التحذير من طاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب، يأتي تأكيد هذا التحذير عن طريق تذكيرهم بمفاتيح عِزِّهم ورفعتهم، وتذكيرهم بعلامات حب الله لهم، كيف جعل القرآن يُتلىٰ فيهم، وكيف جاءتهم آيات ودلائل عاشوها ورأوها بأم أعينهم، وكيف أرسل فيهم خيرَ البرية ﷺ يعيش معهم، ويرشدهم.

والمتأمل في الخطاب الرباني هنا يجده يؤكد التحذير كذلك عن طريق التعجب ممن ترك دينه، والاستغراب ممن ذهب يَتِيه في الأرض وينفلت، ويطيع أهل الكفر بعد أن بلغه أجمل كلام من أعظم نبي، ﷺ، فكأن الخطاب يقول لهم: لا عذر لكم إن فعلتم ذلك، وقد أعطاكم ربي ما أعطاكم، وكأن الآية تستبعد ذلك إن لزموا هذا الشرط، وهو العكوف على الكتاب تلاوةً، وعلى الهدي النبوي اتباعًا وعملًا، وإلا فهم واقعون في حبائل المتربصين من أهل الكتاب لا محالة.

٢- يُبشر الله الصحابة رضوان الله عليهم بأن الكفر بعيد عنهم، ولن يضعف الإيمان في قلوبهم بعد ما ذاقوا حلاوة كتاب الله، وحلاوة اتباع القدوة المصطفاة ﷺ.

٣- يطير قلب كل مؤمن بهذه الآية، ويسعد بها، فهي تعطيه أسباب الثبات الذي يرجوه أهل الإيمان في زمن المحن والبلاء، فاحفظوا يرعاكم الله وبَلِّغوا، القرآن سِرٌّ من أسرار الله في أرضه، ولا تجتمع مع تلاوته والاستماع إليه والاعتصام به رغبةٌ في غيره.

ومحمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رحمة الله للعالمين، وحُبُّه دين وعقيدة، ولا تكون حلاوة الإيمان، ولا يصحُّ إلا باتباعِه فيما أمر ونهى.

٤- تؤكد الآية منتهى ما يرجوه أهل الكفر منا، وهو رِدَّتنا عن ديننا وقرآننا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٥- تعظيم الصحابة من خصال الإيمان وشعائر الدين، ومن تعظيم نبينا عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولقد أكرمهم ربنا بسماع القرآن من فم النبي ﷺ فور نزوله، وأكرمهم بأن تكحلت أعينهم برؤيته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأكرمهم بنصرته وبإقامة دينه وشريعته في الأرض.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عُمدةُ الالتزام والثبات على الدين، وسبيلُ الرشاد والاستقامة والنجاة في الدارين، إنما يكون في حسنِ اللجوء إلى الله تعالى والتمسُّك بدينه بشدَّة وحرص، والتعلقِ برحمته وفضله، والتوكلِ عليه لا على غيره، فإن المسلم إذا اعتصم بالله تحققت هدايته، وثبتت استقامته.

والآية فيها توجيه لكل مسلم لم تكتحل عيناه برؤية رسول الله ﷺ، ولم يُعايش التنزيل، فطريق الاعتصام بالقرآن وبالسنة باق في الأمة، وفيه الرشاد والفلاح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾

يا من أردْتُّم رسوخًا في الإيمان وزيادةً في الصلاح: احرصوا على أن تجعلوا بينكم وبين الشهوات والذنوب سدًّا وحاجزًا، وجاهدوا أنفسكم في فعل الطاعات واجتناب المنكرات، واحفظوا جوارحكم، ولا تَأْخُذْكم في سبيل الله وتبليغ دعوته لومة لائم، وواظبوا على الذِّكر والشكر ولا تغفلوا، فإن ذلك من أعظم أسباب حسْن الخاتمة، ولقاء الله على التوحيد والإسلام، لا الكفر والخذلان.

وقولُ الله تعالى هنا ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ يُفهم مع قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، ويُفهم كذلك مع النصوص التي دلَّت على فتح أبواب التوبة لمن عصى.

عجيبٌ قول الله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وكأنه يريد منا أن نكون مع الله في حِلِّنا وترحالنا، وفي صبحنا ومسائنا، وفي شبابنا وهرمنا، وكأنه يقول لنا: إن حق التقوى أن تقول لا إله إلا الله خالصة من قلبك، وأن تصلي صلاة تنهاك عن الفحشاء والمنكر، وأن تجاهد في الله حق جهاده، وأن تكون دومًا ممن نصر الحق وأهله ووقف معهم، وممن تبرأ إلى الله من الظلم والفسوق، وجاهد أهلهما على النحو الذي أرشد الشرع إليه.

إن حق التقوى يجعلك أمينًا في تعاملك مع الآخرين، تأبى أكل الحرام وإن جاءك على طبق من ذهب، وتمتنع عن الزنا وطرائقه وأبوابه وإن كان إلى قلبك مُحَبَّبًا، ويجعلك تلزم طاعة الأبوين وصلة الأرحام وطيب الخلق وإن خالفك أكثر الناس.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ اعلموا أنه من عاش على شيءٍ مات عليه، فكل من عاش مع الاستسلام لأمر الله في الدنيا، وعمَّر قلبه بالعقيدة الصافية الصحيحة، وأحسن الظَّنَّ بربِّه، ولم يُفارق كل ذلك؛ ناله فضل الله وكرمه وتوفَّاهُ على الإسلام.

أخرج مسلم وصية رسول الله ﷺ لمن أدركته الفتن، قال: "فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ".

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

أرشد الله تعالىٰ الناس إلىٰ التمسُّك بحبل الله المتين، ألا وهو القرآن العظيم، فهو النور الذي يهدي الله به عباده، ويدلهم عليه، ويوصلهم إلىٰ رضا الله ورحمتِه.

أخرج مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في وصية رسول الله ﷺ إلىٰ أصحابه قال: "أَلَا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَحَدُهُمَا كِتَابُ الله عَزَّ وَجَلَّ، هُوَ حَبْلُ الله، مَنِ اتَّبَعَهُ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ".

ترشد الآية أهل الملة إلىٰ ما فيه صلاحهم ونجاتُهم من السقوط، وتأمرهم بالاجتماع علىٰ هذا القرآن وما فيه من هدىٰ، وتأمرهم بالاجتماع علىٰ سنة المصطفىٰ ﷺ كما أمر القرآن، وتأمرهم بلزوم جماعة المسلمين، وعدم التفرق والتشتت، فإن ذلك سببٌ لقوتهم، وحفظ الله لهم، ونصرهم علىٰ عدو الله وعدوهم.

واعلموا أن التفرق المنهي عنه هنا، هو التفرق الذي يكون في عقيدتنا، ويكون في أحكام شريعتنا التي جاءتنا بنصوص قطعية في ثبوتها ودلالتها، والتفرق المنهي عنه هو تحكيم الأهواء والأمزجة في دين الله تعالىٰ.

أقول ذلك لأن الاختلاف طبيعة بشرية لا ينفك الناس عنه، وقد اختلف أئمة الإسلام في عدد من الأحكام التي جاءت في نصوص ظنية في ثبوتها أو دلالتها، ولم يكن دافعهم في ذلك الهوىٰ ولا التعصب، ولذلك كان مقبولًا، وينقصنا أن نتعلم إدارته وكيفية التعامل معه لا أن نلغيَه ونقضيَ عليه.

أخرج مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ الله يَرْضَىٰ لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَىٰ لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ".

ومثل هذه الآية تجعلنا نثبت على عقيدة الولاء والحب في الله، والبراء والبغض في الله، حتى نتمثل النداءات الربانية والنبوية بلزوم الجماعة والبعد عن الفرقة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ".

وأخرج مسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى".

وقد كان ﷺ يحرص على دوام الاجتماع، وتمام الألفة ودوامها بين أصحابه وبين المسلمين، كما حصل في قصة شاس بن قيس اليهودي الذي أغرى بالعداوة بين الأوس والخزرج فأصلح ﷺ بينهم، وكما في تثاوُرِ عدد من الصحابة في حادثة الإفك وخصومتهم.

ولذلك لما وجد بعض الأنصار في قلوبهم شيئًا يوم قسمة غنائم حنين، ذَكَّرهم نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بنعمة الهداية ونعمة تأليف القلوب، كما أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ زَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا أَفَاءَ الله عَلَى رَسُولِهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَسَمَ فِي النَّاسِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إِذْ لَمْ يُصِبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ الله بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ الله بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ الله بِي».

والمتأمل لمنظومة التشريع يجدها قائمة في كثير من أحكامها على التأليف بين المسلمين، وعلى إزالة أسباب الشحناء والبغضاء، وعلى ضرورة الإحسان لمن أساء، مع الصبر على سوء الخلق في مواطن كثيرة، ولكم أن تتأملوا منظومة بر الوالدين وأثرها في تحقيق التآلف، وكذلك منظومة صلة الأرحام، ومنظومة حقوق الجار والكبير والصغير، وحقوق المسلمين جميعًا.

أخرج البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ. قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

ولكم أن تتأملوا في منظومة توزيع الزكاة، والصدقات، والكفارات، والأخلاق الممتدة في جميع أنواع المعاملات من الصدق والوفاء بالوعد والتراحم وفضل كلمة الخير والابتسامة.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ كان الأوس والخزرج وغيرهم من القبائل قبل الإسلام، يعيشون فُرقة عظيمة، وحروبًا لا تكاد تنقطع، وكانت بينهم عداوات شديدة وضغائن، وكان يقتل بعضهم بعضًا عصبية، ويتسلط القوي على الضعيف، وكان عددٌ من حكمائهم وأولي الرأي فيهم، يَسْعون إلى التأليف والإصلاح بينهم في خطاباتهم وأشعارهم، ولكنهم لا يستطيعون.

جاء دينُ الله تعالى ودخلَ إلى قلوبهم، فصيَّرهم إخوة متحابِّين في الله ولله، وجعلهم متآلفين على البرِّ والتقوى، ومتعاونين على نصرة أهل الإيمان، ومتآزرين على المخالفين من أهل الكفر، لا ضغائن بينهم ولا تحاسد. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣].

ولكم أن تتأملوا شدة العداوة التي ذكرتها آية الأنفال، فقد بلغ بهم المقام أنه لو أنفق كل ما في الأرض ما أصلح بينهم وما أفاد ذلك شيئًا، وسبحان الله؛ لا يُدرك قيمة مثل هذه النِّعم إلا من عاش المرحلتين، وذاق ويلات العداوة والبغضاء، ثم ذاق حلاوة لمِّ الشَّمْل وجمعه على حب الله وطاعته.

ولعلكم لاحظتم هنا أنَّ طريق الموعظة للناس إنما كان عن طريق التذكير بنعمة الله، وهذا أسلوب قرآني معهود ومعلوم، وهو مما كان يتعاهده الرسل مع أقوامهم كما أخبرنا القرآن. قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [ٱلْأَعْرَاف: ٦٩]، وَقَالَ عَنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [ٱلْأَعْرَاف: ٨٦].

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ ثم إن الآية ذكَّرت أصحاب النبي ﷺ بنعمة من نعم الله تعالى عليهم يصعب وصفها وبيان قَدْرها، نعمة تتعلق بالهداية والضلال، والجنة والنار.

الله سبحانه وتعالى هداهم للإيمان وشرح صدورهم لما يحب ويرضى، فأنقذهم من طريق الكفر والنار، بعد أن كَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرة مِنَ النَّارِ، أي: قريبين منها على حافتها وطرفها، بحيث لو غفل الواقف عليها، وقع فيها.

يقول الله لهم: اذكروا حالكم قبل الإسلام، يوم كنتم في طريقكم إلى جهنم بكفركم، ولكن الله أنقذكم بالإسلام، وأنقذكم بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن، وجعلكم من عباده الصالحين.

ونعمة الله هذه ليست خاصَّةً بهم، بل أكرم الله تعالى بها أولياءه عبر الأزمان، فلله الحمد أولًا وآخرًا أن جعلها نعمة مستمرة، لينال فَضْلها من اصطفاه الله وأحبَه، اللَّهم اجْعلنا جميعًا منهم.

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ بيَّن لكم سبحانه خصال اليهود، وأعطاكم مفاتيح التعامل مع الأمم من حولكم، وعلمكم من الحجج والبراهين والآيات ما علمكم، واستنقذكم من النار بالإسلام، فاحرصوا على هذه الهداية، وتمسكوا بها، ولا تعودوا إلى عمل الجاهلية من التفرق والعدوان.

هذه أوامر الله التي نزل بها الوحي تهديكم سواء السبيل، وتجعلكم هداة مهتدين، وما أجمل استحضار مثلِ هذه النعم التي تُبين عظيم فضل الله على المؤمنين، كيف علَّمهم وأرشدهم، وبيَّن لهم ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وهذا توجيه رباني آخر، احفظوه وتأمَّلوه، فإنه يحفظ الأمة من استئصالها وتبديلها، ويُثمر حفظَ دينها وبقاءه متربِّعًا في القلوب بهيبته التي أرادها الله له.

يأمر الله تعالى في هذه الآية أُمَّة الإسلام، بأن تكون فيها طائفة وجماعة من الناس يتصدون لواجب الدعوة إلى دين الله، وتذكير الناس بما أمر الله به من الخيرات، وتنهاهم عما نهى عنه من الفواحش والمنكرات، ابتغاء هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة.

والمعروف كما قال أهل العلم: هو اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع وأمر به.

وأما المنكر، فهو كل ما قَبَّحه الشرع، وحَرَّمه وكَرِهه، وأَبْطله وأَفْسده.

الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الدين، وأصل حفظه ونشره في العالمين، وأقلها ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً" ، وأكثرها لا حد له.

والدعوة إلى الله وما يتبعها لا نستثني منها أحدًا، لا كافرًا ولا مسلمًا، ولا صغيرًا ولا كبيرًا، ولا عالمًا ولا جاهلًا، ولا رجلًا ولا امرأة، ولا رئيسًا ولا مرؤوسًا، ولا حاكمًا ولا محكومًا؛ أقول: الكل بحاجة إلى دعوته وتذكيره، كلٌّ منهم بما يناسبه.

والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لها ثمرات عجيبة فينا وفي أمَّتنا، أختار منها:

١- النجاةُ من لعن الله والطرد من رحمته، والنجاةُ من سخط الله ونزول عذابه، والبُعدُ عن مانع من موانع استجابة الدعاء.

أخرج أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه، وذهب بعض أهل العلم إلى ضعفه، واللفظ لأبي داود عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بني إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ الله وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ الله قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ" إِلَى قَوْلِهِ: "فَاسِقُونَ" ثُمَّ قَالَ: "كَلَّا وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولتَنهون عَنِ الْمُنْكَرِ، ولتأخذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأطرنَّه عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا (يعني: تمنعوهم من الظلم، وتدفعوهم إلى الحق وتردوهم إليه)، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ الله بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ".

ومعنى (يَضْرِبَنَّ الله بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ) أي: لما سكت أهل الأيمان عن أهل المنكر، سود الله قلوب من لم يعص بشؤم من عصى، فصارت قلوب الجميع قاسية بعيدة من قبول الخير والرحمة بسبب المعاصي، وبسبب مخالطة بعضهم بعضًا.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ [الأعراف: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦-١١٧].

وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه، واللفظ لأحمد، عن جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ، لَا يُغَيِّرُونَ، إِلَّا عَمَّهُمُ الله تَعَالَى بِعِقَابِهِ".

وأخرج أحمد وغيره بسند حسن، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ".

٢- القيام بما يضمن لنا خيريَّتنا بين الأمم، فإن الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر سِرُّ خيرية أمتنا على باقي الأمم، فإن هذه الأمة لم تكن خيريتها للون أو جنس أو نسب، كما سيأتي معنا في تفسير قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وجاء بيان صفة النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في التوراة والإنجيل مقرونًا بهذا الوصف، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣- تحقيق صفة الإيمان واجتناب خصال أهل النفاق. قال الله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

واعلموا أنَّ الأصلَ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنه واجبٌ على كل فرد من أفراد هذه الأمة بقدر استطاعته، إلا أنَّه قد يكون مستحبًّا أو مباحًا في أحوال، وقد يكون محرمًا أو مكروهًا في أحوال، وذلك بحسب قدرة المُنكِر، وبحسب ما يترتب على الإنكار، وبحسب الزمان والمكان والطريقة، مما أفاض أهل العلم ببيانه وذكر ضوابطه وأحكامه. أخرج مُسْلِم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ".

ولا يُقبل ممن كان قادرًا على تغيير المنكر أن يقعد عن ذلك، ولا يُقبل منه ضعفه وخَوَره، ولا يُقبل منه إهماله وسكوته، فقد نرى صنفًا من أهل الخير والصلاح يسكت عن المنكر فقط لأنه يستحي من الغير، أو لأنه يخاف من كلامهم وسخريتهم. جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وابن ماجه واللفظ له، عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ

يَقُولُ: "إِنَّ الله لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ الله عَبْدًا حُجَّتَهُ، قَالَ: يَا رَبِّ، رَجَوْتُكَ وفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ (أي: رجوت أن تغفر لي لأني لم أنكر، وخفت من شر الناس وأذاهم إذا أنكرت)".

واعلموا كذلك يرحمكم ربي أنَّ الدعوة إلى الله وما يتبعها إنما تكون وفقًا للشرع، ولعل أهم ما يحتاجه الدعاة والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هو العلم بما يقولون، والدراية بفقه الأولويات في الخطاب والوعظ، وكذلك ألا يترتب على تغيير المنكر منكر أكبر، وأن يكون على علم بحال المدعو وما يصلح له، وأن يكون خطابه خطاب رِفقٍ وإرشاد ورحمة، وخطاب حكمة وموعظة حسنة، وغير ذلك من الآداب والأحكام الفقهية المبثوثة في كتب أهل العلم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ من أراد الفلاح الحقيقيَّ والكاملَ، وقفَ نفسه جنديًّا من جنود هذه الدعوة، وبذل لها الغالي والنفيس.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

لا تكونوا كالأمم الماضية من اليهود والنصارى وغيرهم فِي اختلافهم في أصول دينهم وعقيدتهم، وفي تفرقهم إلى شِيَع وفِرق، واقتتالِهم بعد أن اشتد خلافهم، ثم تركِهم بعد ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم، وعلمهم بما يجب، ومجيء البينات الواضحات. قال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢].

وأخرج ابن ماجه وأبو داود والترمذيُّ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ».

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الأمم التي تفرَّقت واختلفت في أصول دينها، وفرّطت في الدعوة إلى الله وبثِّ العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لها عذاب عظيم وشديد يوم القيامة.

ولا يفوتنا أن نشير إلى الهم والغم الذي يصيب هذه الفرق في الدنيا، والذي يكون سببه كثرة الجدال والخصومة، وكثرة تقلب القلب وتسلل عدد من الأمراض إليه، بل قد يمتد الأمر إلى المقاتلة والضرب والقتل، والتربص والكيد والرغبة في الانتقام، بل قد يمتد الأمر إلى ذهاب ريحهم وضعف قوتهم، فيتسلط الأعداء عليهم ويذيقونهم بأسهم الشديد، ولعل هذا من عذاب الدنيا الذي يسبق عذاب الآخرة.

ونخشى كل ما نخشى أن تكون هذه الفرقة من علامات السخط وقلة التوفيق، ومن علامات الحرمان والخذلان، والله المستعان. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

أما في الدار الآخرة فقد بينت الآيات أن الناس يتمايزون فيه إلى صنفين:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

صنف يَبْيض وجهه فرحًا بما أكرمه الله به من الحساب اليسير، والفضل العظيم، وهم أهل السنة والجماعة الذين قاموا بقائمة هذا الدين على الوجه المرضيِّ.

وصنف يسودُّ وجهه حُزنًا على حاله، وخوفًا مما ينتظره، وهم أهل الضلال والزيغ والفُرْقة. وَالْبَيَاضُ وَالسَّوَادُ حَقِيقِيَّانِ يُعرف بهما الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس ٣٨-٤٠].

ومن أهل العلم من قال: إن السواد والبياض كناية عن المساءة والسعادة، كما في قول الله تعالى: "وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ" [النحل: ٥٨]، وكما في قول العرب في التعبير عن وجه الكاذب بالسواد.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

توبيخ من الله تعالى للذين ستسودُّ وجوههم غدًا في أرض المحشر، وخطاب لهم يبين جُرْمهم الكبير، إنهم نافقوا وكفروا وارتدوا بعد أن كانوا على دين أنبيائهم، ثم إنهم سعَوا في إضلال المؤمنين وصدهم عن الدين، وكتموا ما كتموا من دينهم، وحرَّفوا وبدَّلوا، وتنازعوا وصاروا شِيَعًا، فيُقال لهم: هذا جزاء ما قدمتم.

ولقائل أن يقول: مَن الذين ارتدوا بعد إيمانهم ممن وصفت الآية عذابهم هنا ؟

والجواب: هم أقوام:

١- طوائف من أهل الكتاب ممن كانوا على التوحيد، ثم لعبت بهم شياطين الإنس والجن فرجعوا إلى الشرك.

٢- أخذ الله العهد على بني آدم جميعًا وهم في صلب أبيهم قبل أن يُخلقوا، وأشهدهم على أنفسهم بربوبيته سبحانه فشهدوا، ثم لما بلغتهم الدعوة في الحياة الدنيا ارتدوا، وهذا حال جميع أهل الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

٣- المنافقون الذين دخلوا ظاهرًا في دين الله، ولكنهم تركوه وراء ظهورهم وكرهوه.

٤- أفراد من المسلمين شهدوا بشهادتنا، ثم جاؤوا بألفاظ وأفعال أخرجتهم عن الدين.

واعلموا أن مجيء هذا الوعيد بعد آيات النهي عن تفرُّقِ المؤمنين، يحمل تحذيرًا شديدًا وعجيبًا لكل من سعى في تفريق المسلمين، وكان رأسًا في البدع والضلالات التي لا تأتي إلا بالفرقة والاختلاف، كما فعل رؤوس المعتزلة والشيعة، وكما فعل الخوارج الذين جاء فيهم ما أخرجه أحمد والترمذي عَنْ أَبِي غَالِبٍ، قَالَ: رَأَى أَبُو أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُؤُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ (وكانت رؤوسَ الخوارج الذين كفَّروا الصحابة والمسلمين وقاتلوهم)، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: «كِلَابُ النَّارِ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ (يعني: هنيئًا لمن قتلوه عند الله)»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا حَتَّى عَدَّ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمُوهُ.

الذين لا يتناصرون ولا يتعاضدون، ولا يهتمون لمصلحة الأمة العامة، ولا يريدون للقلوب أن تجتمع على منهج واضح صافٍ نقيٍّ، ولا يريدون لهذه الأمة أن تصلح بما صلح به أولها، يعرضون أنفسهم لعقوبة الله، وإقبالهم عليه بوجوه مسودة، فليتأملوا.

والقرآن جاء بذِكر عدد من الأفعال التي تكون سببًا لسواد الوجه بين يدي الرب غدًا، فمن ذلك الكذب على الله، كما في قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ﴾ [الزمر: ٦٠].

ومن أسباب ذلك اكتساب سيئات الشرك وغيرها، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ﴾ [يونس: ٢٧].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

هؤلاء الذين يرحمهم ربنا ويكرمهم ويشرفهم، ويُدخلهم جنته خالدين فيها لا يبغون عنها حولًا؛ أخلصوا لله في عقيدتهم ودينهم، وأقبلوا علىٰ الواجبات، واجتهدوا في النوافل، وبذلوا أوقاتهم وأعمارهم لله، ودافعوا أهلَ الباطل، وثبتوا علىٰ دينهم وصبروا علىٰ أنواع البلاء وصابروا حتىٰ الممات.

هؤلاء هم الذين سمعوا نداء الله لما أمرهم بالاعتصام بحبل الله، وبألا يتفرقوا ويختلفوا، وبأن تكون قلوبهم وجوارحهم مع مصلحة أمتهم ومِلَّتهم، فاجتمعوا علىٰ الأعمال الطيبة، وعلىٰ بذل المعروف والخير في بلادهم وفي الناس، واجتمعوا علىٰ ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، هؤلاء: صدقوا الله فصدقهم الله.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

هَذِهِ آيَاتُ الله وحُجَجُه وَبَيِّنَاتُهُ الصادقة الواضحة، التي لا شكَّ في ثبوتها ولا شبهة، ولا احتمال فيها ولا تأويل، نقرؤها عليك يا محمد ﷺ، لتعلم الحق من الباطل، وتبيِّنَه للناس جميعًا وتبلِّغَه، ولتزداد يقينًا ويزدادوا.

وهذا دينكم أيها المسلمون قد بين لكم كل ما تحتاجون من أمر دنياكم وأخراكم، وهذه المواعظ تواترت وكثرت وتنوعت لتكونوا علىٰ بصيرة في طاعتكم وفي دعوتكم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، وشرع الدين، فمن ابيضَّ وجهُهُ فقد ظفر بفضل الله وكرمه وجنته، ومن عصىٰ واسْودَّ وجهه كان من أهل النار بحُكْمه العدل سبحانه، ولا يظلم ربك أحدًا.

أنزل الله الأحكام، وعلمنا العقيدة والأخلاق لهدايتنا إلىٰ ما تكمل به فطرتنا، ويتم به نظامنا الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ولا يظلم ربك أحدًا، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بفرقتهم، واختلاف قلوبهم، وانقطاع العذر بينهم، وتركهم تحكيم شريعة الله.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾

الله الذي نعبده له ما في السماوات وما في الأرض وما فيهما وما بينَهما، وهو القادر على كل شيء، والعالِم بكل شيء، والجميع مُلْك لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ، وهو يريد صلاحهم وصلاح حالهم، فَلَا يَحْتَاجُ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ.

وربنا جل وعلا هو المتصرف في ملكه وعباده، وكلُّ شيء راجع إليه، فيقضي بما يشاء، ويحكم بما يريد، ويُثيبُ المحسن والصالح، ويجزي المسيء والطالح، ويعطي كل ذي حق حقه.

وربنا الذي له ملك المشرق والمغرب لا يظلم أحدًا، لأن الظالم إنما يَظلمُ ليزداد ملكه وعِزُّه وسلطانُه، أو يظلمُ لنقص فيه وخلل في تدبيره، والله مُنزَّه عن النقص، والملكُ مُلْكُه والسلطان سلطانه، وله ما في السماوات وما في الأرض.

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾

آية من آيات الله العظيمة في كتابه، وكل القرآن عظيم، تدلُّ على أنَّ أفضل الأمم في هذه الدنيا على الإطلاق أمة محمد ﷺ، وفضْلُها وخيريتها ليست لِلَون أو جِنس كما أسلفنا، وإنما هي خيرية الإيمان الحق الصادق، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بنص الآية، بمعنى أنهم أَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وهذا تفضيلٌ للهدى الذي هداهم به ربهم، وجاء به نبيُّهم ﷺ.

وطريقة أهل الإيمان تختلف عن طريقة المشركين الذين لم يؤمنوا وعاندوا وصدوا، وتختلف عن طريق أهل الكتاب الذين آمنوا على طريقتهم وبحسب أهوائهم، لا كما أراد الشرع وأمر. قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٧-٧٨].

وقد دلَّ على خيرية هذه الأمة، وأنها أكرم الأمم على الله نصوص ودلائل أخرى متعددة، أختار منها:

١- ما أخرجه الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن معاوية بن حَيْدَة القُشَيري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "إنكم تُتِمُّون سبعينَ أُمَّةً، أنتم خيرُها وأكرمُها على الله".

٢- وما أخرجه أحمد والبزار عن عليِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ" فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، مَا هُوَ؟ قَالَ: "نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ".

٣- ومن الدلائل كذلك ما خصها به ربنا من إنزال خير كتبه القرآن عليها، واصطفائها بإرسال أعلى الأنبياء قدرًا ومقامًا عنده محمدٍ ﷺ إليها، وكذلك بشريعةٍ عالميةٍ تضمن لمن اتبعها سعادة الدارين.

٤- ومن أسباب تفضيل هذه الأمة أنها ستكون شاهدة على جميع الأمم سابقها وحاضرها غدًا في أرض المحشر، يوم تجحد كثير من الأمم دعوة الرسل لها، فتزعم أنه لم يأتها نبي، فيَستشهد الأنبياء بأمة محمد ﷺ على إرسالهم، فيشهدون لهم.

عقيدتنا أننا آمنا بالكتاب وبالسنة وبما فيهما، ونشهد على كل ما جاء فيهما، شهادة حق وعدل. قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومعلوم لديكم أنَّ وسط الشيء هو أفضله وأخيره وأعلاه وأجوده وأعدله وأحسنه.

٥- وفي حق أمته أخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ".

٦- وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِاللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي قُبَّةٍ، فَقَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ».

٧- وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ".

وهذا يدل على أن الله تعالى أكرم نبيه وزاده على النصف الذي رجاه لأمته، فلله الفضل والمنة.

٨- وعند مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (أي: نحن آخر الأمم في الدنيا، وأولها فيمن يقضي الله لهم بين الخلائق)، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ".

ولا يُعارض ما جاء في الآية هنا من خيرية أمتنا، قولَ الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]؛ فإن تفضيلهم إنما كان على أهل زمانهم لا على جميع الخلق، وقد أعطاهم الله المُلك، وجعل فيهم الأنبياء، وأنزل عليهم الكتب، ولكن رسالة محمد ﷺ نسخت ما قبلها، واختصه الله بأن جعله رسولًا للعالمين جميعًا، لا إلى بني إسرائيل فقط، فمثل هذه الآية تدل على أنهم أفضل أهل زمانهم لا أفضل الأمم مطلقًا، ومثلها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

أمّا عن عِلة تفْضيل الأمة وجعْلها خير الأمم، فقد جاء بيانه في الآية نفسها كما أشرنا من قبل، وهذا يلزم منه أن تقوم الأمة ويقوم المصلِحون والعلماء بدعوة الناس لهذا الدين، وتذكير العصاة منهم بعبوديتهم لرب العالمين، والحرص على نقل الجميع من الظلمات إلى النور، لتكون حقًّا خير الأمم.

أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾، قَالَ: «خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ (يعني: أنتم يا أمتي خير الناس للناس)، تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ، حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ». أي: يكون أسركم لهم في الجهاد، سببًا في إسلامهم وتحصيل سعادة الدنيا والآخرة لهم.

ويُفهم من هذا أنَّ خيريتنا كأفراد عند الله لا تكتمل أو لا تكون إلا بالصفات المذكورة هنا في الآية، وإلا كان فينا شَبَهٌ بمن ذمَّهم الله تعالى من أهل الكتاب كما مرَّ معنا.

واعلموا يرحمكم الله أنَّ خَيْرَ قُرُونِ هذه الأمة هم الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلونهم، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. أخرج البخاري ومسلم عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ، ويظهر فيهم السِّمَن". أي: يكثر لحمهم وليس لهم هم في الدنيا إلا الأكل واللذات.

وأُشير هنا إلى ما أشار إليه أهل العلم، من كون ربط هذين الخُلُقين بخيرية هذه الأمة، فيه إشارة إلى أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقيان في الأمة لا ينقطعان إلى قيام الساعة، كحال خيريتها، بفضل من الله ومنٍّ وكرم.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ بدأ السياق القرآني بذكر حال أهل الكتاب مع هذا الدين، ومع رسول الله إلى العالمين محمد ﷺ، كيف أنَّ غالبهم نصب العداء، ورفع سيف الجحود والإنكار والتكذيب، فلم يؤمنوا بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، ويا ليتهم آمنوا، فإنهم لو فعلوا ذلك، لكان وصْفُ الخيرية نالهم بدلًا من وصف الفسق الذي أطلقه القرآن في حقهم في هذه الآية، والفسق هنا هو الكفر والشرك.

إلا أن الآية ذكرت أنَّ أكثرهم كذلك، وهذا يدل على أن عددًا من أفرادهم آمن وصدَّق واتبع الرسالة وهُداها، وهذا من إنصاف القرآن وعدْلِه، وقد حصل هذا زمن نبينا ﷺ مع عدد من اليهود والنصارى الذين دخلوا في دين الله من بين أقوامهم لما عرفوا الحق وشهدوه.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ الله تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ".

واعلموا أنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هم الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، والسياق وإن كان فيهم جميعًا، لكن المقصود به غالبًا اليهود الذين كانوا بالمدينة مع المسلمين، وكانوا مختلطين بهم، وقد أسلم منهم عبدالله بن سلام، كما أسلم النجاشي من النصارى وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

تُطَمئنُ الآية أهل الإيمان، وتُبشرهم بأن النَّصْرَ والظَّفرَ والتمكين سيكون لهم على من عاداهم من الكفرة أهلِ الكتاب، فلا تغرنَّكم قوتُهم وضعفُكم.

وقد أشارت الآية إلى أن القتال سيكون بين المؤمنين وبينهم، وأنهم سيسعون لإلحاق الضُّرِّ بالمسلمين، لكن ضُرهم لن يكونَ كما يريدون، بل هو أذًى محتملٌ وضررٌ يسيرٌ لا ينفك عنه قتال أو جهاد، وهذا فيه إغراء للمؤمنين بقتال أعداء الله.

ثم أخبرت الآية بصفة لازمة لهم في الحروب، وهي أنهم يفرون من أرض المعركة منهزمين خائفين وإن كانوا أكثر عددًا وعُدَّةً؛ ذلك بأنهم يقاتلون لباطلهم وللدنيا، بخلاف من يحملون أرواحهم على أكتافهم يرجون رحمة ربهم.

ولعلَّ مرورًا سريعًا على سيرة النبي ﷺ وتاريخ المسلمين، يجعلنا نعلم أنَّ جند الله الذين أخذوا بأسباب النصر، وفهموا سنن الله تعالى في ذلك، قد نالهم ما أخبرت به الآية من حال هؤلاء، كما حصل مع طوائف اليهود في المدينة وكذا في خيبر، وكذا حال الروم الذين كانوا بالشام في عهد الصحابة، وغير ذلك.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يتكلم السياق القرآني عن اليهود بحكم وجودهم في مدينة رسول الله ﷺ، وبحكم كثرة مخالطتهم لأهل الإيمان، وقد نصبوا العداء لأمة التوحيد، واختاروا طريق الصدِّ عن دين الله، فعاقبهم ربهم وقدَّرَ لهم أن يعيشوا أذلاء مهانين أينما كانوا، يرضون بأي حياة ويحرصون عليها وإن كانت دنيَّةً ذليلة.

ومن عقوبتهم أن الله تعالى قذف في قلوب الناس بُغضَهم، وأفْقَدهم البأس والشجاعة، وألْزمهم هذه الذلَّة وهذا الصَّغار، ولم يسلموا من ذلك إلا بحالين:

١- ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: إلا بالأحكام الشرعية التي شرعها الله لحمايتهم وحفظ أنفسهم وأموالهم، وقد حرم الله على المؤمنين أن يتعرضوا لهم إذا كانوا مسالمين لنا كما تقدم في حديثنا عن آيات الولاء والبراء، وذلك كأنْ يكون بيننا وبينهم معاهدة صلح وسلام، أو كأنْ يدخلوا إلى بلادنا مستأمنين، أي: بعقد أمان من ولي الأمر كحال السفراء والأطباء والتجار منهم، أو كأنْ يكونوا أهل ذمة، يدفعون إلينا مبلغًا من المال كل عام ليحفظوا أنفسهم ولندفع عنهم كل ما يسوؤهم.

أخرج أبو داود وغيره قول رسول الله ﷺ: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوِ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وأخرج البخاري عَنْ عَبْدِالله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا". وفي رواية أحمد: "مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا".

ومن أهل العلم من حمل الحبل من الله هنا، على التمكين الذي يعطيهم الله إياه في زمن ما، ويسلطهم على المسلمين لعلهم يرجعون إلى دينهم، ويصلحوا حالهم مع الله.

٢- ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: عون ونصر من الناس، كأن تنصرهم إحدى الأمم أو الدول القوية، كما هو حالهم في أيامنا، وَأَمَّا هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَلَا نَصْرَ لَهُمْ.

ولكم أن تتأملوا ذِلتهم عند جميع طوائف الأرض وإن كان عدد منهم ينصرونهم، وما نصرهم لهم إلا ليبقى أهل الإسلام مشغولين بهم عن نشر الإسلام وتحكيمه في العالمين.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ انصرفوا ورجعوا بعد كل فعالهم بغضب الله وسُخطه الذي استوجبوه عليهم واستحقُّوه، وسبّب عموم العقاب لهم جميعًا.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ تأكيد على ما أُلزِموا به من المسْكنة، وتشير المسكنة هنا إلى فقر قلوبهم وبخلهم بالمال وإن كان كثيرًا عندهم.

أو تحمل إشارة إلى الفقر الذي نالهم بعد طردهم وخروجهم من مدينة رسول الله ﷺ، وهزيمتهم في خيبر وتفرقهم في البلاد.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ استكبروا عن اتباع الحق، وكفروا بآيات الله، وأهانوا حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، وانتقصوهم وقتلوا كثيرًا منهم بعد أن كفروا بهم وبما جاءوا به، فكان جزاؤهم ما ذكرته الآية.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ وهذا سبب آخر لما كتبه الله عليهم، هم أقبلوا على الحرام والمعاصي وأكثروا منها، وتجاوزوا الحد واعتدوا فيما أُمروا به، فكان جزاؤهم عَدْلًا بما كسبوا.

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ثناءٌ من الله تعالى على مَنْ آمن مِن أهل الكتاب بمحمد ﷺ وبما أُنزل عليه من القرآن، حتى أورثهم هذا الإيمان إقبالًا على الصالحات التي تُرضي الله عنهم، وتجعلهم ممن أحبهم وأعدَّ لهم ثوابًا عظيمًا، لا كأولئك الذين أصرُّوا على كفرهم بعدما جاءتهم البينات وقامت عليهم الحجج، الفريقان لا يستويان في الصلاح والفساد، والخير والشر، والجزاء عند الله.

وهذه الصالحات التي أثنى الله عليهم بسببها، وكانت سببًا في مفارقة أقوامهم، هي أنهم أخذوا حظهم من الصلاة والقرآن في قيام الليل، وسجدت جباههم خضوعًا للرب جل وعلا وإذعانًا.

والأمة هنا تشير إلى طائفة وجماعة منهم، قَائِمَةٍ بِأَمْرِ الله، مُطِيعَةٍ لشَرْعه، مُتَّبِعةٍ لنبيِّهِ، ومستقيمة على الحق والصراط المستقيم، سواء كانت من اليهود أو من النصارى.

وقد جاءت أكثرُ من آية تذكر فضل من آمن منهم وصدق عند الله، وتبشرهم بالثواب العظيم، كقول الله تعالى الذي سيأتي معنا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقول الله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣]، وغير ذلك من الآيات.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

هذه تتمة خصالهم التي سبَّبت مدح الله لهم وثناءه عليهم، فقد دفعهم صدق إيمانهم بلقاء الله في الدار الآخرة، إلى أن يكونوا ممن يأمر بالخير، وينهى عن الفحشاء والمنكر، ويسارع إلى ما يحبه الله ويرضاه من خصال الخير، ويستكثر من ذلك.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أقول: إذا كان الله تعالىٰ قد شهد لمن آمن منهم بهذه الشهادة التي تكفيهم وربي، فكيف بمن كان سببًا في دخولهم في الإسلام وإيمانهم، وكيف بمن أخذ علىٰ عاتقه أن يوصل رسالة هذا الدين لأهل الكفر علىٰ أحسن حال وأطيب مقام، وكيف بمن نذر نفسه ووقته ليكون مفتاحًا للخير في الأرض، كل الأرض.

ما أعظمه من تكريم لهم، أنْ شهد الله لهم بأنهم من الصالحين، وهذا يدل علىٰ عظم ما ينتظرهم من النعيم المقيم، ولذلك قال الله:

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

سيجزيهم ربنا علىٰ كل ذلك أوفر الجزاء وأحسنه وأطيبه، فإنه سبحانه لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ عَمَلُ عَامِلٍ، ولا يخفىٰ عليه ما في قلوب عباده من التعظيم والخشية، ولن يضيع عنده أَجْرُ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

احفظوا هذه القاعدة الربانية، واجعلوها معكم يوم تُقبلون علىٰ إكرام من حولكم من الناس وإعانتهم، ويوم تعفون وتغفرون وتصفحون، ويوم تبادرون بمشاريع الخير وتفريج الكربات والهموم والغموم عن غيركم، أقول: احفظوها لأن الواحد منا قد لا يجد علىٰ ما قدَّم جزاءً من الناس ولا شكورًا، بل قَدْ يقابله غيره بالإساءة والخذلان، وهنا يظهر صدق العبد وإخلاصه في عمله وعطائه، ويظهر ما في باطنه من نية طيبة صافية، أو نية مختلطة عليه، فالصادق يعاود أعمال الخير ولا ينقطع عنها وإن آذاه الناس وذموه، وصاحب النية المختلطة قد يحجم عن عمل الخيرات، ويمتنع عن نفعه لمن حوله وبذْله للمعروف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

يتقلب كثير من أهل الكفر والشرك في نعيم الدنيا، ويعطيهم ربنا من نعمةِ المال والولد والصحة والقوة ما يعطيهم، حتىٰ يُخيَّلَ إليهم أنّ هذه النعم لن تكون لهم في الدنيا فقط، ولكنها ستنفعُهم عند الله تعالىٰ وتنجيهم من سخطه وعذابه وعقابه، وهذا عند من يؤمن منهم بالآخرة. قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] يعني: في الآخرة كما أوتيَه في الدنيا.

جاءت الآية هنا تنفي انتفاعهم بأموالهم وأولادهم عند الله تعالى، وتخبرُ أنه لا يلزم من إعطائهم هذه النّعم في الدنيا أنّ الله تعالى راضٍ عنهم، وأنه سيجعلها شافعةً ونافعةً لهم يوم الحساب. قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وهذه النعم لا تعدو أن تكون طيبات عُجّلت لهم في الدنيا، فإذا جاءهم الموت أو جاءهم بأس الله وعذابُه لم ينتفعوا منها بشيء.

ومعلوم لديكم أن الإنسان في الدنيا يدفع المكروه عن نفسه بماله، أو بقوته وقوة أبنائه الذين هم أقرب عشيرته، أو بقوة أخرى، ولذلك خَصَّت الآية ذكر المال والولد، فإنهما لن ينفعا من حيث ظن الكافر نفعهما.

أما في الآخرة فهؤلاء وما عبدوا هم وَقودُ النار وحطبُها الذي تُوقد به، وهم أصحابها الذين لا يغادرونها ولا يفارقونها ولا يخرجون منها كما في ختام الآية، فإنهم كفروا بالله وآياته وكذّبوا رسله، وربنا لا يعفو عن الكفر به. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

ومثل هذه الآيات تنفعُنا نحن أهلَ التوحيد، وترشدُنا لئلا نغتر بظاهر ما أنعم الله به على أهل الكفر، خاصة أنّها نِعمٌ لا تتجاوز الحياة الدنيا. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٥٥]، وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩٦-١٩٧].

بل إن الآية التي معنا تحرِّضنا على استعمال نعمة الولد والمال فيما يحبه الله ويرضاه، وتدفعنا إلى أن تكون كثرتهم إذا وُجدت حجة لنا لا علينا، وَلْنَعلم أن أولادنا وأموالنا لا ينفعوننا إلا إذا أقبلنا على الله بقلب سليم من الشرك والغل والحقد والحسد. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩].

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

يضرب الله مثلًا للذين ينفقون أموالهم، ويقدمونها في وجوه الخيرات وإغاثة الناس ومساعدتهم، ولكنهم يجحدون بوحدانية الله، ويكذبون رسول الله ﷺ، ولا يعبدون الله كما شرع، ويمتنعون عن الدخول في الإسلام.

مثل ما يفعلونه كمثل ريحٍ فيها ﴿صِرٌّ﴾، أي: بَرْد شَدِيدٌ وزمهرير، وهذه الريح نزلت على زرع وثمر حان وقت حصاده، ورجا منه أهله قطف ثماره والانتفاع بها، ولكنها دمَّرَتْه وأفسدته وأعدَمَتْ مَا فِيهِ حتى تركته كالمُحترق، فلم ينتفع بها صاحبها في وقت حاجته إليها.

فَكَذَلِكَ المتصدقون من أهل الكفر، لا ينتفعون بثواب نفقاتهم في وقت حاجتهم إليها في أرض المحشر، لأنهم قدموها بدون عقيدة وعبودية يرضاهما الله، فحبطت أعمالهم.

وكأن الآية تدعو أهل التوحيد ألَّا يغتروا بظاهر إنفاق هؤلاء، وإن كُنَّا نشكرهم عليها في الدنيا في بعض الأحوال، لكننا لا ننسى أنَّ هؤلاء ظلموا أنفسهم بكفرهم وشركهم، وكثير منهم صدَّ عن سبيل الله، كما قال الله في ختام الآية ليتَّعِظ أهل القلوب السليمة:

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لا أحد أظلم لنفسه وغيره ممن كفر ومات على الكفر، فهؤلاء تسبَّبوا في إبطال نفقاتهم بعدم إيمانهم بالبعث ولا بالحساب، ولأنهم لا يُعدُّون العدة لما ينتظرهم من أهوالٍ في أرض المحشر، ولذلك رُدّت نفقاتهم في وجوههم، وعُجِّلت لهم طيباتهم في الدنيا، ولا يقبلُ الله مِنْهم يوم القيامة صَرْفًا ولا عدلًا.

والآية هنا تؤكد عقيدة راسخة في ديننا، بأن الإيمان شرطٌ في قبول الأعمال الصالحة، وانتفاع صاحبها بها غدًا بين يدي الرَّبِّ جلَّ وعلَا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

توجِّه الآية أهل الإيمان في تعاملهم مع أهل النفاق الذين يُظهرون إيمانهم، ويبطنون كفرَهم بالإسلام، ويخفون بغضَهم للمؤمنين، وقد كان عدد منهم من اليهود الذين أظهروا إسلامهم في المدينة خُبثًا وخداعًا.

يا أهل الإيمان: احذروا من مودة أهل الكفر من المنافقين وغيرهم، وإياكم أن تتخذوهم بطانة أي: مقربين منكم تُطْلعونهم على أسراركم وما تخططونه لأعدائكم، وإياكم أن تقدموهم في مجالسكم، أو تولوهم ما فيه سلطان على المسلمين، وإياكم أن تنصبوهم أمراء وقادة ومستشارين من دون المؤمنين.

والمطلوب: احذروا مجالستهم والانبساط إليهم، فإن احتجتم لشيء من ذلك فبقدره.

وأَمْر الله هنا ننتفع منه في توجيه المؤمنين في تعاملهم مع الفساق والفجار، الذين قد تصيب نارهم أهل التقوى، وتخدش في قلوبهم فتفسد.

أخرج البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "مَا بَعَثَ الله مِنْ نَبِيٍّ، وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ الله تَعَالَى".

وعبارة: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: من غيركم، أي: من غير المسلمين، فالمنافقون الذين يبطنون الكفر، والذين نعلمهم من لحن قولهم، ومن صفاتهم التي أسهبت الشريعة بذكرها وبيانها، أقول: المنافقون ليسوا مسلمين، وبذلك نفهم الآية هنا على عمومها بتحريم تمكين غير المسلم في بلاد المسلمين.

واتخاذ أهل الكفر والنفاق بطانة، وترك أهل الإيمان، مما حذر الشرع منه أشدَّ تحذير، وجعله من موالاتهم التي تُعرِّض فاعلها إلى سخط الله وعقوبته.

ومثل هذا النداء الرباني لا يعقله ولا يسارع إلى الامتثال له إلا من آمن، ولذلك جاء النداء في الآية معنا لأهل الإيمان، وكأنه لا يُتصور منهم خلاف ذلك. قال الله تعالى في هذا المعنى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠-٨١].

والآية هنا ذكرت عددًا من صفات أهل النفاق وخلالهم التي ينبغي التفطُّنُ لها، فتأملوا:

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ معنى لا يألون، أي: لا يُقصِّرون ولا يتركون ذلك. والخبال: اختلال الْأَمْرِ وَفَسَادُهُ. والمقصود أنهم يسعون في فساد أمركم أيها المؤمنون، ويحرصون على خديعتكم وغِشِّكم، والإيقاع بكم وبينكم بكامل جهدهم وطاقتهم، ويتربصون بكم الدوائر.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ وكذلك يسعون في مشقتكم، ويَودُّون أن يَلْحقَكم الحرج والضيق والتعب الشديد في جميع تفاصيل حياتكم، ويُحبون ذلك ويحرصون عليه، ولذلك ترونهم لا يشيرون عليكم إلا بما يفسد عليكم أموركم، ويسبب لكم الكوارث والمصائب في حياتكم.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أَيْ: قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحات وُجُوهِهِمْ، وظهر على فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ وأقوالهم من كلمات الكفر والعداء للإسلام وأهله، ما يؤكد شدة عداوتهم وبغضهم وتربصهم بكم. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

ولذلك، اعلموا أنَّ ما في صدورهم من الكره والبغضاء، أعظم بكثير مما يَظهر عليهم، فاحذروهم وجاهدوهم، ولا تغفلوا عنهم وعن مكرهم وكيدهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ عَلَامَاتِ عَدَاوَتِهِمْ، وصفاتهم التي لا تكاد تنفك عنهم، لتسترشدوا بها في طريق إقامة دينكم ودعوتكم، فإن العداوة النَّاشِئَةَ عَنِ اخْتِلَافِ الدِّينِ عَدَاوَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ لا تنقطع، والله غالب على أمره.

قال أهل العلم: "وَلَمْ يَزَلِ الْقُرْآنُ يُرَبِّي هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ، وَالِاسْتِدْلَالِ، وَتَعَرُّفِ الْمُسَبَّبَاتِ مِنْ أَسْبَابِهَا فِي سَائِرِ أَحْوَالِهَا: فِي التَّشْرِيعِ، وَالْمُعَامَلَةِ لِيُنْشِئَهَا أُمَّةَ عِلْمٍ وَفِطْنَةٍ".

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

أهل النفاق يُظهرون لنا إيمانهم وإسلامهم، فنحبُّهم على ذلك، ونتودد إليهم ونتقرب منهم، ولكنهم لا يحبوننا، بل يُبطنون في قلوبهم نارًا تلظَّى علينا.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ نؤمن نحن بالكتاب كله ونصدق بكل ما فيه، بخلاف إيمانهم بالكتاب الذي فيه شكٌّ وريْبٌ، فكيف إذًا نتخذهم بطانة نفضي إليهم بأسرارنا!

جاءت الآية في معرض بيان حال المنافقين من أهل الكتاب من اليهود، جاءت لتقول لنا: أنتم أيها المسلمون تؤمنون بالقرآن كله، وبالتوراة التي أنزلت من عند الله، ولكنهم لا يؤمنون بالقرآن، وحرَّفوا التوراة، فأنتم أحَقُّ بالبغض لهم، من بغضهم لكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ﴾ هكذا وصفتهم آيات كتاب الله في أكثر من موضع: يزعمون أنهم مؤمنون أمامنا ليأمَنوا على أنفسهم وأموالهم، وليغنموا معنا إذا جاهدنا وانتصرنا، ولكنهم إذا جلسوا في مجالسهم الخاصة بهم وخلوا بأنفسهم وتكلموا عنَّا، أظهروا بين بعضهم شدة حَنَقهم وغيظهم وكرههم للإسلام وأهله، وأظهروا سخطهم العجيب على الألفة والمودة الحاصلة بين أهل الإيمان، وغضبوا على اجتماعهم ووحدة كلمتهم.

وقد عبَّر القرآن عن ذلك بأنهم من شدة غيظهم وغضبهم ورغبتهم في الانتقام، يعَضُّون على أصابعهم دلالةً على شِدة ذلك عندهم.

﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ﴾ نعمةُ الله على المؤمنين ستبقى، وسينصر أولياءه في الأرض، وسَيَبْلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولن ينقطع خيرُ الله عن هذه الأمة، فموتوا ببغضائكم وحسدكم وكرهكم، فإنه لا يضر إلا أصحابه.

وهذا الخطاب يصلح توجيهه إلى كل من يُبطن في نفسه عداوة لأولياء الله تعالى في الأرض، ويُبغض علماء الشرع وطلبة العلم والساعين في نصرة دينهم وتحكيمه في الأرض.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ وربنا يعلم أيها المنافقون ما تكنونه وتسرونه في نفوسكم من الغِل والبغضاء للمؤمنين، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيَكُمْ خِلَافَ مَا تُؤَمِّلُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

ومن صفات المنافقين التي تدل على حقيقة ما عندهم، والتي تكشف حقيقتهم لأهل الإيمان، أنهم إذا انتصر أهل الإيمان على عدوهم، وكثر أنصارهم وأتباعهم، وجاءتهم الدنيا راغمة، كان هذا سببًا لحزنهم وألمهم وسوء حالهم، بخلاف ما لو أصاب المؤمنين بلاء وشدة، فإنهم يفرحون ويستبشرون.

ولذلك من تتبع حالهم في جميع الأزمان، وجدهم لا يحبون أن يروا المسلمين متآلفين متحابين أقوياء ظاهرين، ومنصورين على أهل الشرك والكفر، بل يسرهم أن يروا المسلمين مختلفين أو ضعفاء منكسرين مغلوبين.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هذا سبيل النجاة من كيدِ أعداء الله تعالى من المنافقين، وكذا من مكرِ الكافرين وشرِّهم.

نصبر في جهادهم، ونصبر على أذاهم، ونتقي مكرهم وخداعهم ما استطعنا، ونحذر من توليتهم والتحبب إليهم، ونحسن التوكل على الله العالمِ بهم وبأحوالهم، الذي أحاط بهم علمًا وقدرةً، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى الله كَفَاهُ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

ينتقل السياق القرآني بنا إلى الحديث عن غزوةٍ من غزوات المسلمين، التي تجلَّت فيها مواقف أهل الإيمان بأعظم صورة وأرقاها وأبهاها، وتجلى فيها حفظ الله لأوليائه وإحاطته بأهل الكفر، وتعلم المؤمنون منها مكانة الصبر والتقوى وإن هُزموا، وقد كان للمنافقين فيها دورٌ أظهر حقيقتهم وخطورتهم على المجتمع المسلم.

جاء المشركون في غزوة أحد لقتال محمد ﷺ وصحْبِه؛ انتقامًا منهم على ما حصل معهم في غزوة بدر من ذِلةٍ وصَغَارٍ وهزيمة.

انتصر المسلمون في غزوة بدر التي حصلت في السنة الثانية من الهجرة، فجمع المشركون في السنة التالية ثلاثة آلاف من المقاتلين، ونزلوا قَرِيبًا مِنْ أُحُدٍ قرب الْمَدِينَةِ شرَّفها الله، وخرج إليهم ﷺ بقرابة ألف مقاتل، رجع ثلثهم وانسحبوا بزعامة كبير المنافقين عبدِالله بن أبيٍّ بن سلول، وذلك قبل بدء القتال، وهم الذين نزل فيهم قول الله كما سيأتي: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

جمع الله بين المسلمين والمشركين في أحد، وانهزم المشركون أولًا، قبل أن يختلف الرأي بين الرماة وينزل أكثرهم مخالفين أمر النبي ﷺ في ذلك، مع محاولةِ تثبيت قائدهم عبدِالله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهم، فلما نزلوا انهزم المسلمون بالتفاف خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عليهم، وكان يومها قائدًا في جيش المشركين.

والمقصود: تأملوا يا أهل الإيمان في عاقبة الفُرْقة والمخالفة، وتأملوا كيف حفظ الله دينه في تلك اللحظات العصيبة، وكيف أحاط بالمشركين وردَّهم إلى مكة دون مغانم أو أسرى.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾ واذكر يا محمد ﷺ، إذ خرجت من عند أهل بيتك في وقت الغداة الذي هو أولُ النهار، خرجت لإعداد أهل الإيمان لهذه المعركة التي سيكون العدو فيها مُختلفًا عن سابقتها.

بَوَّأت وبيَّنتَ لأفراد الجيش منازلهم وأماكنهم ومقاعدهم في ساحة المعركة، وأين سيقف كلٌّ منهم استعدادًا للقتال، وأين سيكون الرماة، والفرسان، وباقي الجيش.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والله عزَّ وجلَّ معكم بسمعه وعلمه، يسمع ما تقولون وما دار بينكم في شأن الخروج إلى عدوكم، وهو عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ ونيَّاتكم.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

أخرج البخاري ومسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "فِينَا نَزَلَتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾؛ بَنُو سَلِمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ، وَمَا نُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تنزل لِقَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾". أي: وما أحبَّ نزولَها إلينا لأنها ذكرت ولاية الله لنا وعنايته بنا وقربه منا.

أمَّا بنو حارثة فإنهم من الأوس، وأمَّا بَنو سَلِمَة فمن الخزرج، وهاتان الطائفتان كادتا أن تفْشلا، أي: أنْ تجْبُنا وتضْعُفا عن القتال، وترجعا إلىٰ المدينة مع مَنْ رجع من المنافقين قبل بَدْء المعركة، وكادتا أن تتخلَّفا عن رسول الله ﷺ وصحْبه المؤمنين، لكنَّ الله تعالىٰ ثبَّتهما وربَط علىٰ قلوبهما، وعصَمهما من هذا الزَّلَل، ومن الوقوع في كبيرة التولي يوم الزحف.

جاءت الآية هنا تُذكِّرهم بنعمة الله عليهم في ذلك، ولولا أنَّه تولىٰ أمرهما وأعانهما علىٰ أنفسهما؛ لفشِلتا.

ولعلَّ تثبيت الله تعالىٰ لهاتين الطائفتين، إنما كان لعلمه بصدقهما، ولعل ما هموا به من الرجوع إنما كان من شدَّة إلحاح المنافقين وإرجافهم وتلبيسهم علىٰ المؤمنين، وكذا من وسوسة الشياطين بالتخويف والتحزين، ولكن الله سلَّم.

ولعلكم تأملتم الحديث كيف أن جابرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عن هذه الآية في حقهم: "وَمَا نُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تنزل لِقَوْلِ الله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾"، وهذا يدل علىٰ فرحهم واستبشارهم بثناء الله عليهم في هذه الآية، التي قال الله تعالىٰ فيها في حقهم: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، وحقًّا، ما أعظم ولاية الله للمؤمن وحفظَه وتثبيتَه، ولولاها لكان في حياتنا ما كان مما يسوؤنا في دنيانا وأُخرانا.

ولكم أن تتأملوا مزيدًا من الموعظة في مثل هذه المواقف، عن طريق استحضار حفظ الله لكم في كثير من شؤون حياتكم، وهو ما يدفع العبد إلىٰ أن يُحسن في عبوديته، وأن يحرص علىٰ أن يرىٰ الله منه صِدقًا، وألا يغترَّ بحلم الله وستره.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فتعلموا أيها المؤمنون كيف تتوكلون علىٰ الله، ولا ترددوا في الإقبال علىٰ الخيرات وإن صعُبت، فإنَّ الله تعالىٰ خيرٌ حافظًا، وهو وليُّ الصادقين. قال الله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

لا تحزنوا يا أهل الإيمان من غلبة أهل الكفر عليكم، واستحضروا في هذا المقام نعمةً عظيمة من نعم الله تعالىٰ التي أكرمكم بها، بل أكرم بها الأمة الإسلامية جمعاء، وهي نعمة نصركم في غزوة بدر التي أعزَّ الله فيها الإسلام وأهله، وبيَّض وجوه المؤمنين، وأذلَّ فيها الشرك وأهله، وسوَّد وأخزىٰ فيها وجوه قادتهم وكبرائهم من أتباع الشياطين، وكانت أولَ غزوة لها ذِكْر تجمع بين الفريقين بعد إشراق نور الرسالة المُحمَّديَّة.

نصر الله المسلمين في غزوة بدر، وقد كانوا أذلَّةً، أي: ضعفاء لا قوة لهم تماثل قوة عدوهم، لا من حيث العدد ولا العُدَّة، ولا نصير لهم من القبائل من حولهم.

أخرج أحمد وابن حبان في قصة معركة اليرموك عن عِيَاض الْأَشْعَرِيّ، أَنَّ قادة الجيوش التي أرسلها عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، استنصروه وطلبوا منه أن يرسل لهم مددًا من عنده، فكتب إليهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلًا: "إِنَّهُ قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكُمْ تَسْتَمِدُّونَنِي وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا، وَأَحْصَنُ جُنْدًا: الله عَزَّ وَجَلَّ، فَاسْتَنْصِرُوهُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نُصر يومَ بَدْرٍ فِي أَقَلَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ، فَإِذَا جَاءَكُمْ كِتَابِي فَقَاتِلُوهُمْ وَلَا تُرَاجِعُونِي. قَالَ عياض: فَقَاتَلْنَاهُمْ فَهَزَمْنَاهُمْ".

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أَيْ: أحسنوا شكر الله على ذلك، باتقاء محارمه، ودوام طاعته والإخلاص فيها، واثبتوا في قتال عدوكم ولا تيأسوا، فإن الحرب سجال، يوم لك وآخر عليك.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾

زيادة بيانٍ لنعمة الله تعالى على المؤمنين يوم بدر، حيث أنزل إليهم مددًا من الملائكة تقاتل معهم بعد أنْ رأوا كثرة عدوهم وقوة عتادهم.

وقد أمدهم أولًا بألف من الملائكة بعد أن وعدهم بذلك قبل بدء المعركة، كما في قول الله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، أي: يأتون مترادفين تِباعًا وراء بعضهم، وقد يزيدون عن ذلك.

ثم زادهم إلى ثلاثة آلافٍ كما في الآية معنا، ثم وعدهم بأن يُمدَّهم بخمسة آلاف كما في الآية الآتية.

وهذا مدد على الحقيقة، وقد دلّت الأدلة الشرعية على أنهم قاتلوا مع المؤمنين بعد أن نزلوا من السماء، وكانت لهم سِيما وعلامةٌ في لباسهم تميزهم عن غيرهم، وقد شوهد بعضهم على هيئة البشر.

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥ ﴾

بلى، يكفيكم عون الله لكم وإنزالُه ملائكته تقاتل معكم، فاطمئنوا.

والآية هنا تعطينا مفتاح عون الله لنا، وتأييدنا على من عادانا، فإن الله تعالى لمَّا رأى من المؤمنين صبرًا على قتال عدوهم، وتحصيلًا لتقوى الله وخشيته بالسر والعلن على أتم الأحوال وأفضلها، وَعَدهم بزيادة الملائكة في غزوة بدر إلى خمسة آلاف، وأكرمهم بأن جاءتهم من فوْرهم، أي: غضبى لهم، تنصرهم وتعينهم. أو يكون المعنى أنها تأتيهم سريعة ولا تتأخر عنهم.

وكذلك جاءتهم الملائكة مسوِّمة، أي: معروفة ومُعلَّمة بلباسها وخيلها.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦ ﴾

وما كان وَعْد الله لكم بإنزال الملائكة، ونزولهم يوم بدر إلا لتستبشروا وتسعدوا بعون الله لكم وتأييده، ولتطيب قلوبكم وتطمئن، فقد كانت هذه أول معركة لكم بهذا الحجم مع الباطل وأهله، ولم يكن لكم فيها معين ولا ناصر ممن حولكم حتى وددتم ألا يحصل قتال بينكم وبينهم. قال الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

وقد بلغت الأخبار أهل بدر أن مددًا سيخرج من مكة للقضاء على الدين ومن يحمله، وكان عدد المؤمنين في بدر قريبًا من ثلاثمائة مقاتل مقابل ما يقرب من الألف، فكانت هذه البشرى من الله خيرَ معين لهم.

ومعلوم لديكم أن الجانب المعنوي في الحروب والمعارك ركن من أركان الانتصار والثبات، وأن العدو يتفنن في إلقاء الأخبار الكاذبة، وتضخيم عدده وعدته وانتصاراته، وما ذاك إلا ليفُتَّ في عَضُد المؤمنين.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ لا تظنوا أن الملائكة هي التي نصرت، بل إِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ الله، ذي العزة والكبرياء والعظمة، الذي يَنْصُرُ مَنْ يُرِيدُ نَصْرَهُ، الحكيم فيما قدَّره وشرعه، الذي يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ عونه وَكَيْفَ يُعْطَاهُ، والَّذِي لَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِدُونِكُمْ، وَمِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى قِتَالِكُمْ لَهُمْ، أو إمدادكم بالملائكة، ولكنَّ الله تعالى له حكمة بالغة في ذلك، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِتَالِ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

والمطلوب: أعدوا ما استطعتم من قوة، وقدِّموا وابذلوا أسباب النصر الشرعية، وحصِّلوا ولاية الله لكم، ثم أحسنوا التوكل عليه، تروا عجائب قدرة ربكم.

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾

كتب الله الجهاد على هذه الأمة، وقدَّره وأمر به لحكم متعددة تعود على البشرية كلها بالنفع، ومنها ما ذكرته الآية هنا، من أنَّ الله تعالى أمدكم بالملائكة ونصركم ليقطع طرفًا من أعداء الأمة من الكفار في بدر، أي: طائفة منهم ونفرًا، يقطعهم ويهلكهم بالقتل على أيدي المؤمنين.

وكذلك ليكبتهم، أي: ليخزيَهم ويغيظهم بالهزيمة، ويرجعهم بالحزن على قتلاهم، وذهاب قادتهم ورؤسائهم، وذهاب شيء من هيبتهم في العرب، واختلال أمورهم في أرضهم، ودخول الخور والوهن على قلوبهم، وهذا ما حصل يوم رجعوا بالخيبة والندامة والغمِّ والذِّلَّة.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾

أرسل الله تعالى نبيه ﷺ وخاطبه بقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرَّعْد: ٤٠]، وقال له: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٧٢]، وهذا يدل على حقيقة ما اصطفاه الله تعالى له، وكذا يدل على وظيفة الدعاة إلى الله تعالى من بعد الأنبياء، والتي تقوم على تبليغ دين الله تعالى للناس، ودعوتهم للدخول فيه، وتحكيم شرع الله فيهم بما شرعه الله من أحكام.

ومعلوم لديكم أن الله تعالى شرع لنا أحكام الدنيا في التعامل معهم، وأمر فيهم ونهى، بخلاف الدار الآخرة التي يكون أمرهم فيها إلى الله تعالى وليس إلينا.

نحكم عليهم في الدنيا بالكفر، ولا نواليهم ولا نحبهم، وندعوهم إلى الإسلام، ونعامل المحارب منهم بالجهاد، والمسالم منهم بالوفاء، ولا ندفن أمواتهم في مقابر المسلمين ولا نصلي عليهم ولا نستغفر لهم، ولا يرثون منا ولا نرث منهم، ولا ولاية لهم علينا ولا قوامة ولا سلطان.

تؤكد الآية أن أحكام هؤلاء الكفار في الدنيا والآخرة إنما هي لله وحده لا شريك له، وأن الأمر كله لله لا للخلق، وليس لأحد أن يحكم فيهم إلا بما شرعه الله وأذن فيه.

تخاطب الآية نبينا ﷺ، وتخبره ألا يشتغل بما قدَّره الله في شأنِ هؤلاء الكافرين، وأنه ليس له إلا أن يأتمر فيهم بأمرالله، فإن الله تعالى قد يتوب على الكافرين، بمعنى: أنه قد يهديهم ويشرح صدرهم بعد الضلالة، وييسر لهم الدخول في الإسلام، ويُصْبِحوا قوة للمسلمين، كما حصلَ معَ أَبِي سُفْيَانَ، وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، والحارثِ بنِ هشامٍ، رضي الله عنهم جميعًا.

﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أَيْ: وقد يعذبهم الله في الدنيا بالقتل والتشريد، وضنك العيش، وقد يؤخر عذابه فيهم ونقمته إلى يوم القيامة، فكان الأمر له أولًا وآخرًا.

وهذا ما حصل مع المشركين في غزوة بدر وفي غزوة أحد، فقد قتل فريق منهم في المعركة ومات على الكفر، وقُطِعَ بِهِمْ طَرَفٌ مِنَ الْكَافِرِينَ، وكُبت فريق منهم وانقلب خائبًا مقهورًا، ثم مات على الكفر كذلك، ومنَّ الله على فريق منهم بالإسلام، فأسلم وكان من حملة الدين وحماته.

أخرج البخاري في سبب نزول هذه الآية عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ: إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا، بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ. فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾».

وهؤلاء الذين دعا عليهم، أَسْلَمُوا يَوْمَ فتح مكة، وتيب عليهم جميعًا، وقد جاء ذكرهم فيما أخرجه البخاري عن سَالِمِ بْنِ عَبْدِ الله أنه قالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ "يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وأخرج مسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ (أي: السن الذي بين الثنية والناب)، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ (يعني: جرح وسال الدم)، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ (أي: يمسح)، وَيَقُولُ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله؟»، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. فكأنَّ الآية تقول لنبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا تَسْتَبْعِدْ فَلَاحَهُمْ، فإن الأمرَ بيد الله، يُسيِّره بقدرته وحكمته وعلمه.

أقول: سبحان الله، كيف أرشدت الآية إلى عدم الدعاء على هؤلاء بأعيانهم، مع أن قادة الحرب هم أكثرُ من آذى أولياء الله، وهم الذين أرادوا للإسلام أن ينتهي، ولذلك قال أهل العلم: لا تدعو على كافر بعينه فإنك لا تدري بمَ يُختم له، ولكن إذا أردت أن تدعو أو تلعن، فعليك بالدعاء عليهم بصيغة العموم، كما نقول: اللهم أهلك الكفرة، وانتقم لنا منهم يا رب العالمين، وهكذا.

وقبل أن أختم تفسير هذه الآية، أطلب منكم أن تجيلوا النَّظر والفِكْر في هذا الخطاب العجيب للنبي ﷺ لتخرجوا بفوائد لا نستغني عنها، منها: لو كان هذا القرآن من صنع محمد ﷺ أو أحد من البشر لما كان هذا الخطاب فيه، إذْ كيف يخاطب نفسه بأنه ليس له من الأمر شيء؟!

ومنها أن خير البرية صلوات ربي وسلامه عليه ليس له من أمر هذا الكون شيء، فماذا نقول لأولئك الذين يتعلقون بالبشر والأموات ممن يصفونهم بأنهم أولياء وأقطاب وأبدال، ويزعمون أن لهم تصرفًا في الكون من إغناء وإفقار، وإسعاد وإشقاء، ونصر وخذلان، وإماتة وإحياء، وإمراض ومعافاة، وغير ذلك مما لا ينبغي للقلب أن يتعلق فيه بغير من له الأمر من قبل ومن بعد.

ومنها: أن لا يدخل الكبر إلينا نحن معاشر الدعاة إذا رأينا من اهتدى على أيدينا، أو انتفع بما قلنا وعملنا، فإنما نحن مبلغون، وبأمر الله وحفظه ماضون، ماضون وموقنون أن قلوب من يستمعون إلينا بيد الله وحده وهو القادر على هدايتها.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

ليس لك يا محمد ﷺ من الأمر شيء، والله له ملك السموات والأرض، وهو ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، وَالْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، وإليه سبحانه الْمَرْجِعُ وَالْمَآبُ، فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ، ويقضي فيهم بما يريد.

وليس لكم أيها الناس شَرِكة مع الله، ولا وساطة تأثير ولا رأي في تدبير أمر الخلق، فإن الله تعالىٰ هو العادل الذي لا يجور، وهو الذي يحكم فيما خلَقَ ولا معقب لحكمه، ولا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كأنه ينادي علىٰ عباده أن أقبلوا، فإن الله ربكم خلق مائة رحمة، أنزل منها واحدة في الدنيا، وادَّخر للآخرة تسعًا وتسعين. قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]

والله جل وعلا غفور، أي: يستر الذنب، ويقبل توبة صاحبه إذا تاب وأقبل.

وهو رحيم لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم يقطع عنهم رزقه بسبب إقامتهم علىٰ المعاصي، لعلهم يهتدون، وإلىٰ الهدىٰ يرجعون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

جُملة من التوجيهات الربانية التي لا يرعاها حق رعايتها إلا أهل الإيمان الذين نادتهم الآية هنا.

يأتي القرآن بمواعظ وأحكام وتوجيهات متنوعة ونافعة في سياق حديثه عن أهل الكتاب، ولعل ذهاب السياق القرآني للحديث عن المال فيه أكثر من إشارة في هذا المقام، من هذه الإشارات أن جهاد أهل الكتاب يحتاج إلىٰ قوة في المال، ومنها أن اليهود وهم من أهل الكتاب يتساهلون في أكل المال بالحرام، وبالربا علىٰ وجه الخصوص، ومنها أن هذا الدين يعلمنا كل ما نحتاجه من أمور معاشنا ومعادنا، ومنها أن الواعظ لغيره لا بد أن ينوع في طريقة عرضه ومادته حتىٰ لا يتسلل الملل إلىٰ النفس، ولينشط الذهن ويجدد استعداده للانتفاع، وذلك كما فعل القرآن بذهابه للحديث عن الربا بعد استطراده في بيان حال أهل الكتاب، وغير ذلك من المُلَح والفوائد التي جعلت هذا القرآن معجزًا للعالمين في بلاغته وفرادة أسلوبه.

كان أهل الجاهلية إذا استدان أحدهم من آخر، ثم عجز عن السداد، قال له الدائن: نُؤخر السداد ونزيد علىٰ المال المطلوب مقابلَ الأجل والتأخير، وهذه صورة من صور الربا التي نهىٰ الإسلام عنها.

وقد يشترط الدائن سداد الدين بزيادة عند إعطائه المال، يعني: يرده بزيادة وإن لم يتأخر عن السداد، وهذا أيضًا من الربا.

ويقع الربا كذلك بالتفاضل في بيع الأصناف الربوية ببعضها بعضًا؛ كبيع صاع من التمر بصاعين.

جاءت الآية تنهى عن أكل الربا، والذي تقع فيه مضاعفةُ أموال السداد غالبًا، ويقع المدين فيما لا تُحمد عقباه، والربا يؤدي إلى انقطاع المعروف بين الناس، وفيه رفع لنِسَب البطالة؛ فإن المرابي لا يقوم بمشاريع نافعة له وللناس.

وبالربا يزداد الغني غنى على حساب الفقير، ولكم أن تنظروا فيما يوقعه الربا في المجتمعات من أضرار أخلاقية واجتماعية واقتصادية. وقد جاء في بيان عظم جرم الربا أحاديث متعددة، أختار منها:

ما أخرجه مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ"، وَقَالَ: "هُمْ سَوَاءٌ".

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ". قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: "الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ".

وأخرج الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا ظهر الزنا والربا في قرية؛ فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله".

وأخرج البخاري حديثًا يصف عذاب آكل الربا في البرزخ، أي في قبره قبل البعث، جاء فيه عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيانِي، فَأَخْرَجَانِي إِلَى أَرْضٍ مُقَدَّسَةٍ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهَرِ، وَرَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهَرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِي فِيهِ (أي: في فمه)، فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجَرٍ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهَرِ آكِلُ الرِّبَا".

ولا تظنوا أن قول الله تعالى في الآية ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ يدل على أن الربا المحرم هو ما كان قائمًا على سداد ضعف الدين، ولكن الربا محرم ولو زاد فِلْسًا، وهذا بإجماع أهل العلم.

أما القيد المذكور هنا فهو قيد يبين الحال التي كان عليها أهل الجاهلية في أكل الربا، فقد كانوا يضاعفون الدَّيْن ضعفًا واحدًا لسنة، ثم ضعفين لسنتين، وهكذا، فجاء النهي مبينًا بشاعة الحالة التي كانوا عليها.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أي: واتقوا الله فاجتنبوا الربا، وتوبوا إلى الله مما وقعتم فيه، وإياكم واستغلال حاجات الناس ليكثر مالكم، واتقوا الله يا أصحاب الأموال في أهل البؤس والحاجة ولا تحملوهم ما لا يطيقون من مضاعفة سداد الديون، لتظفروا بأموالهم وبيوتهم وتجاراتهم التي صارت مرهونة لكم بسبب الدين.

واتقوا الله يا من زعمتم أنكم محتاجون إلى الربا، وأن الأبواب أغلقت أمامكم، واصبروا على ضيق العيش، وقابلوا الله تعالى بمال حلال قليل، ولا تقابلوه بدرهم ربا فإن الوعيد في حقكم صعب.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾

واحذروا أيها المؤمنون أن تكونوا من أهل النار، بل احذروها واحذروا سبيلها، واسلكوا سبيل أهلِ التقوى من فعل المأمورات واجتناب المنهيات، بنية خالصة لله تعالى، واثبتوا على ذلك، واعلموا أن النار مأوى الكافرين الذين يتساهلون في الربا وفي أكل أموال الناس بالباطل، والذين قست قلوبهم واستحوذ عليهم الطمع والبخل، وكانوا شَرَّ أعداء للمحتاجين والمَعُوزين.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾

من أراد منكم أن يكون ممن تنالهم رحمة الله في الدنيا والآخرة، فليكن من أهل طاعة الله تعالى في اجتناب الربا وسائر المحرمات، ومن أهل طاعة رسوله ﷺ بأداء الزكاة والإنفاق وسائر الطاعات.

ولا تلتفتوا إلى طريق يصدكم عن ذلك، فإنه من تمسك بالقرآن والسنة نجا ورشد وكان من أهل الفلاح، وإلا فلا.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

يُقبل المؤمن على خالقه وفي نفسه حاجات كثيرة، ولعل أعلاها عنده أن يكون ممن ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، وغفر له ما اكتسبته جوارحه من آثام، وعلامة صدق المؤمن مع خالقه فيما يرجوه أن يسارع في أسباب هذه المغفرة ولا يسير إليها بِبُطْء وتَؤُدة وتراخٍ، فهو يعلم أن توبة الله عليه طريق الفوز بجنة عرضها السماوات والأرض، ولذلك نادت الآيةُ أصحاب القلوب السليمة من الشرك والأمراض، ونادت أولئك الذين يحملون على ظهورهم ذنوبًا لا طاقة لهم بها، وطلبت منهم أن يتسابقوا في الأعمال الصالحة، ويسارعوا في طريقهم إلى المغفرة والجنة التي أعَدَّ الله فيها لأهلها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الآية فيها تهييج للسائرين إلى الله ممن حاسبوا أنفسهم على الذنوب، وأرادوا أن يسترها الله عليهم ولا يؤاخذهم بها، تهييجٌ ليبادروا إلى التوبة بشروطها، ويفوزوا بدار الرضوان التي أعدها الله وهيأها وخلقها لهم.

ولسائل أن يقول: وكيف أسارع إلى جنة ربي ؟ والجواب أن نتتبع أوامر الله ونواهيه، فنقبل بأبداننا وقلوبنا على ما أمر، ونجتنب نواهيه ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

فإذا ابتلي الواحد منا بذنب ضعفت نفسه فيه، فليجدد العهد وليُقبل على من يفرح بتوبته، وليجعل إقباله هذا ورجوعَه السريع دَيْدنه وطريقتَه في العبودية، فإن الله تعالى يقبل توبة العبد وإن تكرر الذنب منه.

ولا ننسى في مسارعتنا أبوابَ النوافل والإكثارَ منها، فإنها سياج عظيم للفرائض يحفظها من النقصان.

تأملوا كيف أراد الخطاب الرباني أن يغذَّ خطانا إلى الجنات، عن طريق بيان سعتها وعِظَمِ خلْقها، وأنها كعرض السماوات والأرض.

ومعلوم لديكم أن السماوات والأرض مخلوقات عظيمة، فهذه سبع سماوات وسبع أرَضِين يأتيك العلم الحديث بخبرها وخبر ما فيها مما علمه الناس ومما لم يعلموه.

أثبت العلم الحديث أن قُطر السماء التي تعلونا يبلغ ملايين السنين الضوئية، أي: بسرعة الضوء لا كالسنين التي اعتدناها، وسرعة الضوء تبلغ ٣٠٠ ألف كم بالثانية الواحدة، أو ٨٦ ألف ميل، وهذا إن دلك على شيء فإنما يدل على أن خلق الله تعالى عجيب وعظيم، وأن سعة الجنة يصعب تصورها وربما لا تبلغها الأرقام التي بين أيدينا، خاصة إذا علمت أن مسيرة ما بين كل سماء وسماء تبلغ مقدار خمسمائة عام، وهكذا ما بين السماء السابعة والكرسي، وما بين الكرسي والماء، وإذا علمت أن كل ما وصل إليه العلم حتى اللحظة من أرقام ما زال في السماء الدنيا، فكيف بما بعدها! قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

أخرج الطبراني وغيره أثرًا موقوفًا على ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال فيه: «مَا بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». قال أهل العلم: وكلامه هذا له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، لأنه لا يقال بالاجتهاد.

وأخرج ابن حبان والبيهقي في الأسماء والصفات حديثًا فيه ضعف، عَنْ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله!، أَيُّ آيةٍ نَزَلَتْ عَلَيْكَ أَفْضَلُ؟، قَالَ: "آيَةُ الْكُرْسِيِّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ (أي: صحراء)، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ".

قلت: إن ذكر الجنة الذي جاء في الآية هنا دار حوله خطاب نبينا ﷺ في مواطن كثيرة، كما هو عهد القرآن وطريقته في الترغيب، ولكم أن تتأملوا أثر ذِكر الجنة في حياة أصحاب محمد ﷺ، في الحديث الذي أخرجه مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال لأصحابه في غزوة بدر لَمَّا دَنَا الْمُشْرِكُونَ: "قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ"، قَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ الله، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: "نَعَمْ"، قَالَ: بَخٍ بَخٍ (هذه كلمة تُقال عند تفخيم الأمر وتعظيمه والرضا عنه)، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟" قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: "فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا"، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ (أي: من جعبته التي يضعها خلف رأسه ويكون فيها سهامه)، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ.

وفي معنى هذا النداء العظيم في الآية هنا، جاء قول الله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]، وجاء ما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا".

واعلموا أن ما أخبرت به الآية هنا من سَعة الجنة، كان محطَّ سؤالٍ وصل نبيَّنَا ﷺ من هرقل ملك الروم ومن غيره، فقد أخرج أحمد وغيره، أَنَّ هِرَقْل كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ دَعَوْتني إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "سُبْحَانَ الله! فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟".

وأخرج ابن حبان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَرَأَيْتَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَرَأَيْتَ هَذَا اللَّيْلَ قد كان ثُمَّ لَيْسَ شَيْءٌ، أَيْنَ جُعِلَ؟" قَالَ: الله أَعْلَمُ قَالَ: "فَإِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ".

وجواب النبي ﷺ هنا، له معنيان محتملان:

١- أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ مُشَاهَدَتِنَا اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَلَّا يَكُونَ فِي مَكَانٍ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُهُ، وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ حَيْثُ يَشَاءُ الله عَزَّ وَجَلَّ.

٢- أَنَّه إذا كانَ النَّهَارُ في جانبِ الْعَالَمِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ يَكُونُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، فَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَعَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالنَّارُ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ، اللهم أجرْنا منها.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾

جاءت الآية بآداب شرعية تهدف إلى تحقيق التراحم والتآلف بين أفراد المجتمع المسلم، وصرف البغضاء والعداوة عنهم، عن طريق إبداء محاسن الأخلاق، واجتناب قَوْلِ السوء في الآخرين وفعلِه معهم، والإعراضِ عن الإساءة إلا استثناء.

جاء قول الله بعدد من صفاتِ المُتَّقين الذين أعد الله لهم جنته، وهي:

١- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾، أي: لا يشغلهم حالٌ عن الإنفاق في مرضاة الله، حتى أصبح البذل والعطاء بالنسبة إليهم سجيَّة وطبعًا وجزءًا من حياتهم، فتجدهم يبذلون من

أموالهم لقرابتهم ولغيرهم في جميع أحوالهم من يُسْرٍ وعُسْرٍ، ومنشط ومكره، وصحة ومرض، وفرح وحزن. قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٤].

ينفقون في تفريج الكربات عن الناس، وقضاء ديونهم، وإطعامهم وكسوتهم، ويَذْكرون أهل الجهاد بنفقتهم، ويَخْلُفونهم في أهليهم بخير، ويَذكرون أهل القرآن والدعاة إلى الله بالوقوف معهم في مشاريعهم في نشر الخير والمعروف في البلاد والعباد. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ".

إن الذين ينفقون في السراء قد سبقوا غيرهم من أهل الحظ والغنى، ويسبقون أولئك الذين تكثر فيهم الغفلة عن الإنفاق ذات اليمين وذات الشمال، وترى الواحد منهم يمسك عن تفريج كربات الناس خشية نقصان ثروته التي بلغت ما لم يكن يحلم به، وغالبهم يكثر فيه البطر والطغيان وشدة الطمع وبُعد الأمل.

أخرج البخاري عن حكيم بن حِزَام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله".

وإن الذين ينفقون مع الضراء وضيق الحال وقلة المال، يضربون مثلًا عجيبًا في رسوخ عقيدتهم، وفي فهمهم لحقيقة الدنيا، وفي استحضار الجنة نصب أعينهم والعيش في ظلال ذِكرها وإن كانوا من أهل الدنيا، فهؤلاء بذلوا مالًا هم أحوج ما يكونون إليه، وتصدقوا بما هو غال على نفوسهم، وغالبهم وإن كان فقيرًا فإنه يجد ما ينفق ولو كان قليلًا.

صحيح أن الفقير يحجم عن الإنفاق لظنه أنه ممن تجب له النفقة وتجوز عليه الصدقة، وصحيح أنه يقول في نفسه: كيف أنفق وأنا بحاجة إلى مزيد من المال، ولكن الشريعة أرادت من هذا الفقير أن تكون نفسه كريمة، وأن يعودها الخير وإن كان الأمر عسيرًا، ولذلك نجد صدقة الفطر واجبة عليه إذا كانت عنده زيادة عن الطعام الذي يحتاجه ليلة العيد ويومه ليأكل منه هو ومن يُنفق عليهم.

ولكم أن تنظروا في ثمرة إنفاق الجميع على المجتمع من تحصيل تآلف الناس وتعاونهم ومحبتهم لبعضهم، ومن تحصيل مبالغ كبيرة وإن كان الإنفاق يسيرًا.

ولقد مر معنا ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ (أي: أوقدي ونوري)، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ (أي: جائعين)، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: ضَحِكَ الله اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ، مِنْ فعالِكُمَا، فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾".

ولا يُفهم من هذا التوجيه أن ينفق الواحد منا ماله جميعًا وإن احتاجه لينال رضا الله، فإن هذه الآية تفهم مع غيرها من الأدلة التي أرشدت إلى التوسط في الإنفاق، والأدلة التي أخبرتنا أن نفقة الإنسان على نفسه ووالديه وعياله وأهله وقرابته مقدمة على غيرها، بل هي أفضل النفقات. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وأخرج مسلم عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ الله، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ الله".

وأخرج مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال في توجيهه لمن أراد أن ينفق: "ابْدَأْ بِنَفْسِكَ، فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ، فَهَكَذَا، وَهَكَذَا، يَقُولُ: فَبَيْنَ يَدَيْكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ".

٢- ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، أي: عندهم حِلْمٌ واحتمال لأذى الآخرين، وينتصرون على غضبهم ويكتمونه في صدورهم، ولا يبادرون بالانتقام لأنفسهم ولا لرغباتهم، ولا يظهر من ذلك شيء على جوارحهم، بَلْ يَكْفُّونَ ويُمسكون، وَيَحْتَسِبُونَ ذَلِكَ عِنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ. قال بعض أهل العلم: الغيظ أشدُّ الغضب.

وهذا التعامل النفيس مع حالة الغضب، إنما يدل على قدرة من يكظم غيظه على قيادة نفسه بالعلم والفهم لقهر شهوة النفس، وترويضها لتنقاد، ولئلا يستسلم لنزواتها ورغباتها، يفعل كل ذلك لينال رضا الله. أخرج أحمد وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ الله، مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله".

وانتبهوا إلى أن الذي كظم غيظه كان قادرًا على الانتقام لنفسه وأخذ حقها، ومع ذلك لم يفعل لأنه يريد ما عند الله. أخرج أحمد والترمذي وأبو داود عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ؛ دَعَاهُ الله يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الخَلاَئِقِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الحُورِ شَاءَ".

لما اتهم إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أخاهم بالسرقة وهم لا يعلمون أنهم أمام أخيهم الذي اتهموه، تحمَّل نبي الله أذيَّتهم، ولم يُظهر غضبًا أو رغبةً في الانتقام السريع منهم، ولم يعاقبهم على ما قالوه مع علمه بأنه مَحضُ افتراء وكذب، وهذا ما أسَرَّه في نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

كان نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قويًّا قادرًا على أذيَّتهم حين قالوا عبارتهم المؤلمة، وكان ذا منصب عالٍ، وكانت كلمته نافذة على الجميع، ولكنه آثر طريقًا نحتاج أن نقفَ معه ولا نتجاوَزَه دون أن نتعلم منه، وهو طريق الصبر الذي يصعب على كثير من النفوس مع أن ثمرته عظيمة وكبيرة، فبالصبر يندفع كثيرٌ من الشرور، وينال صاحبُه الدرجاتِ العلا عند الله، بل يجد لذته وثمرته الطيبة ولو بعد حين.

واعلموا أن ثمراتِ كظم الغيظ ومنافعَه متعددة، منها: أن صاحبه ينتصر على شيطانه الذي ينفخ فيه ليفعل ويفعل، وأنه ينال محبة الله وأجر من صبر، وأنه يغلق باب شَرٍّ عظيم لا يدري الواحد منا إلى أين ينتهي، فكثير من جرائم القتل والتشويه والإيذاء البليغ والانتحار قد وقعت بسبب الغضب، وكثير من الحسرات والندامات التي تعيش مع أصحابها سنين طويلة، كان سببها عدم القدرة على إدارة الغضب.

انظروا في حال كثير ممن لا يستطيع كظم غيظه كيف يخرج عن الحد المعتدل في أخذ حقه والمطالبة به، وكيف يبغي ويتكلم عن أعراض الآخرين، ويصفهم بصفات السوء وُجدت أم لم توجد، ويطلق شتائم السوء في الناس فيؤذيهم بدون حق ويؤذي من يستمع، وقد يتساهل بوصف أحدهم بأنه ظالمٌ أو بخيلٌ أو كذَّابٌ.

ولذلك تعددت وصايا الشريعة بهذا الأدب وهذا الخلق، وأرشدت إلى عدد من الأحكام المتعلقة به لتعين المكلفين على تحصيل ثمرات كظم الغيظ.

أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: "لاَ تَغْضَبْ" فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: "لاَ تَغْضَبْ". وعند أحمد قَالَ الرَّجُلُ: "فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ".

وأخرج أبو داود عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَنَا: "إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ".

وأخرج البخاري عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلاَنِ يَسْتَبَّانِ، فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ" فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ: وَهَلْ بِي جُنُونٌ؟!

انظروا في ردِّ هذا الرجل المُغضَب على رسول الله ﷺ، وكأنه لم يعجبه ما قال، فكان كلامه كلامَ من لم يفقه في دين الله، ولم ينتفع من كلام رسول الله، وقد ظن أن الاستعاذة من الشيطان خاصة بالمجنون، ولم يعلم أن الغضب من لعب الشيطان بالعبد ومن نزغاته ليخرجه عن اعتدال حاله ومقاله وفعاله. قال غير واحد من أهل العلم: ويُحتمل أن يكون هذا القائل من المنافقين، أو من الجفاة أصحاب القلوب الغليظة.

يظن كثير من الناس أن إظهار الغيظ وسرعة الانتقام في جميع المواطن علامة من علامات الرجولة، وسببٌ من أسباب تحقيق الهيبة والاحترام أمام الجميع، ولكن الصحيح أن الرجولة في ميزان الشريعة والقوة لم ترتبط بذلك، بل ارتبطت بالمساجد والدعوة إلى الله والتطهر وكظم الغيظ. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ".

٣- ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، أي: لا يقتصرون على كظم غيظهم وعدم الانتقام ممن ظلمهم أو أساء إليهم، بل لا يلتفتون إلى ما حصل معهم، ويعفون ويتجاوزون ويُسامحون، ولا يندمون على ذلك، ولا يلتفتون إلى تحريش الآخرين وتهويلهم، خاصة إذا كان إنفاذ العقوبة سهلًا عليهم، و قدرتهم على ذلك موفورة وموجودة، كما لو كان مديرًا أو عنده خدمٌ أو كان قويًّا، أو غير ذلك.

يصعب على المرء أن يقابل إساءة الغير بالإحسان وأن يتنازل عن حقِّه، ويصعب عليه أن يقهر نفسه التي تأمره بالانتقام والتشفي وإظهار الغيظ والحنق، فكيف لو كان سبب الإساءة هو الحسد والغَيْرة؟ وكيف لو حصلت الإساءة عن طريق القتل أو الإبعاد عن الأهل والوطن؟ وكيف لو كان مصدرُ كلِّ تلك الإساءات القرابة أو الشراكة أو الصداقة ؟

هل تأملتم تلك الكلمات التي أطلقها نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في حق إخوته بعد أن فعلوا معه ما فعلوا ؟ لقد أطلق كلمات تدل على أنه يحمل قلبًا كبيرًا، قال الله تعالى على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، وعبارة "لا تثريب" تعني: لا تأنيب، ولا عَتَب، ولا لَوم، ولا ذِكر لذنبكم بعد اليوم، ولن أنتقم منكم بشيء، إنما هو العفو والصفح والتجاوز والوئام والحب، مع أنه في موقع القوة وهم في موقع الضعف.

قال الله تعالى في وصف أهل الجنان من أهل الإيمان: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ الله". أي: بالعفو عن الناس، يسود الواحد منا ويعظم في القلوب، ويزداد عزه واحترامه، فضلًا عما ينتظره من أجر وزيادة في الآخرة.

فإن قال قائل: ماذا لو تعرضت لظلم ظاهر وبيِّن من أحدهم، أليس لي أن أطلب مظلمتي، وأن أرد إليه وعليه ؟

والجواب أن الشرع لا يحب الظلم ولا يرضى به، وقد أباح للمظلوم أن يطلب حقه، وأن يرد الإساءة بشروط، وإليكم شيءٌ من البيان في ذلك:

١- جاءت نصوص الشريعة ببيان عاقبة ظلم الآخرين، ودلَّت على أن جزاء الظالم لا يقتصر على الدار الدنيا، ولكنه مُمتدٌّ إلى حياة البرزخ، بل إلى يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ».

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنِ اقْتَطَعَ

شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ الله إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

ومن عجيب حال الظلم أن الظالم إذا مات ولم يتب من ظلمه، ولم يُرْجع الحقوق إلى أصحابها، فإن محكمة العدل في أرض المحشر ستقتص منه بالحسنات والسيئات، وتفصيل ذلك فيما أخرجه مسلم عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ».

٢- أذِنَ الله تعالى للمظلوم أن يجهر بمَظْلمته، وإن كان في قوله كلامٌ سوء في حق من ظَلَمه، فلعلَّ جهره بذلك يشفي شيئًا من غِلِّه، ويُهوِّنُ عليه غضبه، ويمنعُه من البطش الذي لا تُحمد عاقبَتُه غالبًا، وربما يعينه في تحصيل حقِّه ورفع الظلم عنه. قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٨].

علَّمنا ديننُا أنَّ صاحب الحق له مقال يَرْضاه الله ولا يَسْخَطُه، ومعلوم لديكم أننا لو منعنا المظلوم من أن يذكرَ ظالمه بسوء ويطلبَ حقَّه منه، لتجرَّأ كثير من أصحاب النفوس المريضة على الظلم، وعلى أخذ ما ليس لهم، ولضاعت حقوق الناس واضطربت أحوالهم ونظامهم، ولذلك رفعت الشريعة العقوبة عمن ردَّ الإساءة على من أساء، وأذنت للمُعتدَى عليه أن يردَّ عن نفسه وينتصرَ لها. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤١-٤٢].

وقد كانت تربية نبينا ﷺ تقوم على هذا المعنى، أقصد: أن نستمعَ لصاحب الشكوى، وننظرَ في مقالته، ونصبرَ عليه فيما يقول. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ حَقٌّ (في الروايات أنه استدان منه إبلًا صغيرة في السن)، فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ (يعني: أرادوا أن يؤدبوه)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا»، فَقَالَ لَهُمْ: «اشْتَرُوا لَهُ سِنًّا (أي: ناقة أكبر سِنًّا وأحسن)، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ»، فَقَالُوا: إِنَّا لَا نَجِدُ إِلَّا سِنًّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «فَاشْتَرُوهُ، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً».

ومن أمثلة المطالبة برد المظلمة ما أباحه الشرع للدائن الذي امتنع المَدِينُ عن إرجاع الحق إليه، مع أنه يملك المال وقادر على سداد الدَّيْن، فقد أذن له أن يشكوَ على المدين، ويذكرَ ما حصل معه للغير، وأن يطالبَ بعقوبته لأنه واجدٌ للمال ولكنه يؤخر السداد لحاجة في نفسه ويعتذر بأعذار واهية.

وفيه أخرج أحمد وأبو داود والنسائي، بسند حَسَّنه جمْعٌ من أهل العلم، عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لَيُّ الْوَاجِدِ (أي: تأخير سداد المال لمن هو قادر عليه) يُحِلُّ عِرْضَهُ، وَعُقُوبَتَهُ". وعبارة "يحل عرضه" أي: يبيح للدائن أن يجهر بالسوء في حقه من الشكوى والحديث عن سوء خصاله.

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ» الحديث. أي: مماطلة القادر على سداد الدين حرام، وظلم، واعتداء على ملك الغير.

٣- هنا مسألة يكثر سؤال الناس عنها، وهي: هل يجوز أن أدعوَ على من ظلمني؟ والجواب أنه يجوز ذلك، والدعاء عليه يعني أن المظلومَ رفع شكواه إلى من لا يضيع عنده حقٌّ. أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى اليَمَنِ، فَقَالَ: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»، وأخرج أحمد وغير واحد من أصحاب السنن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ذكرَ أَنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ".

وقد كان نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعو على من ظلمه من أهل الكفر، ويَذْكُرهم في صلاته، ويَقْنت بعد الركوع الأخير من كل صلاة يشكوهم إلى من لا يرضى بالظلم ولا يحبُّ أهله، أو قد يدعو عليهم في السجود. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ (أي: اجْعَلْهَا صعبةً عليهم وفيها قَحْطٌ وَغَلَاءٌ)». ومُضَر: قبائل كثيرة كقريش وهذيل وأسد وتميم ومزينة وغيرهم، والمراد: الكفار منهم.

قال أهل العلم: وخير ما دعا به المظلوم على الظالم ما أخرجه أحمد وأصحاب السنن، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَدْعُو: "رَبِّ أَعِنِّي وَلا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ".

وأخرج الترمذي والنسائي عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسولَ الله ﷺ كان إذا قام من مجلسه يدعو ويقول: "وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَىٰ مَنْ عَادَانَا" الحديث

وأخرج البخاري في الأدب المفرد عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَيْنِ مِنِّي، وَانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَنِي، وَأَرِنِي مِنْهُ ثَأْرِي".

والتأمُّلُ هنا فيما كان يدعو به ﷺ يجد فيه استعانةً بالله تعالىٰ علىٰ الظالم، وطلبًا للحق من القوي القادر، ورجاءً لاتباع الصواب في أخذ الثأر منه، دون اعتداء في هذا الدعاء علىٰ غير من ظلم، ولا سؤال لما لا ينبغي من الإثم وقطيعة الرحم.

ومما يجدر بالداعي أن يفقهه في دعائه علىٰ من ظلمه، أن دعوته هذه فيها استعجال لأخذ الحق من الظالم، وفيها تخفيف عنه، فقد أخرج أحمد وأبو داود وغيرُهما بسند ضعيف، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُرِقَتْ مِخْنَقَتِي (أي: قلادتي) فَدَعَوْتُ عَلَىٰ صَاحِبِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا تُسَبِّخِي عَلَيْهِ، دَعِيهِ بِذَنْبِهِ".

والمقصود: إذا دعوتِ عليه فإنك ستخففين عنه عقوبة ذنبه، وتُنْقصي أجرك في الآخرة، وهذا يدل علىٰ أن الدعوة علىٰ الظالم قد تُستجاب في الدنيا، وتكونُ سببًا لسقوط العقوبة عنه في الآخرة أو تخفيفِها.

٤- ومن مقامات التعامل مع الظالم ما أسماه أهل العلم مقامَ العدل، وقصدوا به أن يسيء المظلوم إلىٰ الظالم كما أساء إليه، أي: بنفس اللفظ أو الفعل، فإذا اعتدىٰ أحدهم بسباب أو شتيمة فللمُعْتَدَىٰ عليه أن يرد عليه كما قال، ومن آذىٰ غيره في بدنه متعمدًا فالقصاص مشروع إن أمكنت المماثلة.

ومن أمثلة ذلك: أن يلعن من لعنه، أو يقول: قبَّحك الله فيقول: قبَّحك الله، أو أخزاك الله فيقول: أخزاك الله، أو يقول: يا كلب يا خنزير، فيقول: يا كلب يا خنزير، وهكذا.

ومن أمثلة ذلك أن يتعمَّد قطع يد أو كسر سِنٍّ فتُقطع يده ويكسر سِنَّه.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورىٰ: ٤٠].

ويتبع هذا الحكمَ إباحةُ أن يسعىٰ المظلوم في استرجاع حقه في الدنيا برفع شكواه إلىٰ القضاء، أو إلىٰ من يقدر علىٰ إعانته من ذوي الجاه الذين يسعون في تخليص الحق وإرجاعه لأهله، ويشفعون.

ومقام العدل الذي أذنت به الشريعة موافق للعقل والفطرة، فإن المظلوم له حقٌّ، وقد يكون دوام سكوته عن حقِّه سببًا في تعريض نفسه وأهله لما هو أسوأ وأصعب.

ثم إن الشرع يحب أن يكون الواحد منَّا عزيزًا، ولا يحب أن يكون ذليلًا. قَالَ أحد التابعين: "كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يُسْتَذَلُّوا فَإِذَا قَدَرُوا عَفَوْا".

وقد ذكر أهل العلم أنَّ اختيارَ المظلوم لمقام العدل، وسَعْيَه في ردِّ الإساءة بنفسه على من ظلمه، له أحكام وفقه يجدر به أن يقف معها، فمنها: أن يأمَنَ حصول فتنة أكبرَ إذا أخذ الحقَّ بنفسه، ومنها أن يعلم أنه استعجل أخْذ حقه في الدنيا، ومنها أن يرد الإساءة كما هي بدون تجاوز منه أو اعتداء أو افتراء، فلا يجوز قتل غير القاتل إذا كان القتل عمدًا، وليس للمظلوم أن يتَّبع هواه ويسترسلَ في قول السوء ويتمادىٰ في فعله، ولكنه يراقب نفسه ليكون صادقًا، ويبذلُ ما أذن به الشرع لتحصيل حقه، ولعل هذا من عدل الإسلام الذي قامت عليه أحكامه، ومن رُقيِّ الشريعة التي تربَّعت بسببه في قلوب أهلها.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِئِ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ». أي: إن إثم السباب الواقع من اثنين يكون على البادئ فقط، إلا أن يتجاوزَ الذي شُتم في ردِّه ويقولَ أكثر مِمَّا يجوز له، فيكون الإثم عليهما.

ومن أحكام رد الإساءة ألا يعتدي المظلوم على غير من ظلمه، كأن يسب والد من ظلمه ووالدته وأهله وعرضه.

فإن قال قائل: ماذا لو اعتدىٰ هو عليَّ وشتم والديَّ وأهلي؟ فالجواب أنه لا يباح لك أن تفعل مثله لأن أباه أو أمه لم يشتموك، ولكن لك أن تشتمه هو، وأن تطلب حقك منه وفقًا للقوانين والأنظمة، أو وفقًا لأعراف الناس في ذلك.

ومن أحكام مقام العدل ألا يكون القصاص بفاحشة أو أمر محرم في ذاته ولا يباح بحال، كالزنا والقذف، فمن اعتدىٰ بالزنا على أحد فليس للمظلوم أن يزني بعرض المعتدي وأهله، وكذلك حال القذف الذي هو اتهام بالزنا.

٥- ومن مقامات التعامل مع الظالم ما أسماه أهلُ العلم مقامَ الفضل، ولعله المقام المحمود والمطلوب في الآية التي معنا، ومقام الفضل هو أن تصبرَ على إساءته وتعفوَ عنه. قال الله تعالىٰ بعد آية سورة النحل التي ذكرت مقام العدل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

وقال سبحانه في آية سورة الشورى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وربنا جل وعلا يعلم أن هذا العفو قد يكون ثقيلًا على النفس، وقد يكون صعبًا أمام الغير، ولذلك بينت نصوص القرآن أن هذا الأمر لا يطيقه إلا الذين صبروا، وهم أصحاب الحظ العظيم عند الله تعالى. قال ربنا جل وعلا: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

وفي مقام الفضل جاءت كلمات النبي ﷺ لذلك الذي طلب الفتوى في ردِّ الإساءة إلى قرابته التي تؤذيه، فندبه إلى الصبر مُبيِّنًا فضله وما ينتظر صاحبه. أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ (يعني: يتعمدون الإيذاء)، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ (أي: تلقي في وجوههم الرماد الحار كناية عن إثمهم وأجرك عند الله)، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ» أي: ناصر ومعين.

وهنا مسألة: هل الأفضل أن أعفوَ أو أردَّ الإساءة؟ والجواب أن العفو أفضل وأحسن، وهو أعلى مقامًا وقدْرًا وأجْرًا، فإنه يؤدي إلى أثر جميل، وانتصار على النفس وشرورها، وإغلاق لأبواب لا تُحمد عاقبتها.

ولكن ثمة أحوال لا يصح العفو فيها ولا السكوت عن الظلم، كمن يسرق أموال الناس في مؤسسة ما، أو كمن يعطي عدونا أسرارنا.

وقد يكون الأولى ترك العفو كمن يغلب على ظنه أن عفوه عن المجرم الظالم سيعينه على ارتكاب مزيد من الجرائم.

٦- والمظلوم له أن يمسكَ عن مقام العدل ومقام الفضل ليلقى الظالم جزاءه عند ربه، في يوم يكون القصاص فيه بالحسنات والسيئات، ويود المجرم لو يفتدي من سوء ما ينتظره بأحب الناس إليه، يعني: يود لو أنه يقدم والديه وأولاده وجميع أهله ليأخذوا العذاب عنه وينالَ الرضا.

٧- ولقائل أن يقول: وماذا أفعل إذا وقعت في ظلم الغير؟ والجواب أن تبادر إلى التوبة بصدق، وأن تتحلل من المظلمة في الدنيا قبل أن يفجأك الموت.

أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ».

٨- فائدة يعلمها من خالط الناس واستمع إلى مظالمهم، فإنهم ليسوا جميعًا على الحق في دعواهم، فقد يدخل الوهم إلى أفهامهم بأنهم أصحاب حق وليسوا كذلك، أو قد يقودهم الحقد أو الحسد إلى أن يطلبوا ما ليس لهم، ثم يزعموا وقوعهم تحت الظلم، أو قد يكون أحدهم هو البادئ في الظلم ولم يحتمل انتصار المظلوم لنفسه، أو قد تصنع حكايات آبائهم وأمهاتهم المنقوصة آلامًا وأحزانًا وشعورًا بالظلم والاضطهاد في مُخَيلاتهم، أو قد يقودهم جهلهم بأحكام الشريعة والتفريق بين الواجب والمندوب فيها إلى ما قالوه وما زعموه.

ومثلُ هذا الصنف من الناس له حقٌّ علينا، يقضي بأن نمنعه من الظلم، ونحولَ بينه وبين أمراض نفسه ونعينَه عليها.

٩- ومن المسائل النفيسة في الباب أن الجهر بالسوء مأذون به للمظلوم فقط ولمن لحقه شيء من ضرر الظلم، أما غيرهم من القرابة والأصحاب فليس لهم أن يؤذوا ويتجاوزوا الحد إلا إذا كان ذلك في معرض الشهادة، أو كانت لهم سلطة تنفع في ردع الظالم وإيقافه عن ظلمه، ولذلك قالوا: الدعاء من غير المظلوم ظلم.

١٠- ولا يفوتني أن أُذكِّر أن ثمة صنفًا من ألوان الظلمة، اعتَدَوا على ديننا وأبنائنا وعقولنا وأعراضنا، وسعوا في تفكيك أسرنا وتدمير تربيتنا عن طريق ما يبثونه من سموم الأغاني والمناظر القبيحة حال عرض أغانيهم، وعن طريق المشاهد التمثيلية التي لا تحتكم للشرع وتحمل مخالفات كثيرة، وعن طريق سعيهم في تغيير القوانين التي انطلقت من شريعة رب العالمين، وغير ذلك من قبيح فعالهم.

هؤلاء: مجاهدتهم باللسان وبالقلم واجب شرعيٌّ على كل غيور على هذا الدين، والتشهير بهم وفضحهم ليس من ظلمهم ولا من الغيبة المحرمة، ولا من المقام الذي يطلب فيه العفو عن الناس، إذا كان ذلك بالضوابط الشرعية المعتبرة.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أَعْلمُ أنَّ كثيرًا منكم يدرك أن المقامات التي ذكرتها الآية ليست يسيرة على أكثر الناس، ولكنه مقام الإحسان الذي يكتمل باجتماع هذه الخصال، ويفوز صاحبُه بحب الله عز وجل.

ما أجمل تلك العبارة التي أطلقها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حق إخوته يوم قال: ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، يعني: لم يقتصر على مسامحتهم، وعلى عدم تعييرهم بالذنب السابق، ولكنه تجاوز ذلك ولم يؤاخذهم عليه، ودعا لهم بالمغفرة والسِّتر والرحمة، وتوسل لهم بسعة رحمة الله من أجل ذلك، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يَتَأَتَّى إلا من خواصِّ الخلق وخِيارِ المصطفين، أيُّ قلب يحمله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

ولعلي أستحضر في هذ المقام موقفًا من المواقف العظيمة لأبي بكر، وما أكثرها، أستحضره لننظر كيف يعيش الإنسان مع نفسه وكيف يخالف هواها وما تريد، فإنه لمَّا أوقفَ النفقةَ على قريبه مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لخوضِه في عِرضِ ابنتِه عائشةَ الطاهرةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فيما عُرِفَ بحادثةِ الإفكِ، أنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فما كان منه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلا أن رجعَ إلى الإنفاق على من آذاه في ابنتِه، راجيًا مغفرةَ الله وفضلَه.

أخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: "ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ الله لَكُمْ".

وأخرج أحمد عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "مَا مِنْ رَجُلٍ يُجْرَحُ فِي جَسَدِهِ جِرَاحَةً فَيَتَصَدَّقُ بِهَا إِلَّا كَفَّرَ الله عَنْهُ مِثْلَ مَا تَصَدَّقَ بِهِ".

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

ما أعظمَها من آية تلامس قلوب المنيبين لربهم والمخبتين، الذين ذهبت راحتهم مع الذنوب التي اقترفوها، والذين يشعرون كأنهم يجلسون تحت جبل، يوشك هذا الجبل أن يقع عليهم لما يحملونه من تعظيم لأمر الذنوب التي تجرؤوا عليها. أقول: ما أعظمها من آية، وكل القرآن عظيم.

ينطلق السياق القرآني ليبشرَ هؤلاء، ويُعْلمَهم أنَّ الجنة التي عرضها السماوات والأرض ستكون وطنًا للذين يسارعون في التوبة، وأن مسارعتهم هذه من علامات تقواهم وإيمانهم وحبهم لخالقهم، وخوفهم منه.

تخبرنا الآية أن من تمام صفات المتقين، أنهم إذا فعلوا فاحشة أقبلوا على الله تعالى راجين رحمته، والفاحشة هي الفعلة القبيحة الشديدة القبح، التي تجاوز فاعلها أوامر الله، كالزنى وكبائر الذنوب.

وكذلك إذا ظلموا أنفسهم بترك واجب أو فعل محرم، فظلم النفس يقع بكل ذنب صغيرًا كان أو كبيرًا، أقول: إذا ظلموا أنفسهم سارعوا إلى طلب المغفرة، وفرُّوا إلى الله.

وقول الله ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني: أنهم حال انتهائهم من فعل المعصية لا تغيب عنهم مراقبة الله عز وجل، فيتذكرون ما أمرهم به وما أوصاهم، ويتذكرون وَعْد الله ووعيده ويندمون، ويسألون الله أن يستر عليهم ويتجاوز عنهم ولا يؤاخذهم، ويسألونه أن يرضى عنهم، ويعاهدونه على عدم الرجوع إلى الذنب.

أقول: فكأن الواحد منهم حال تلبسه بالمعصية لا يكاد يهنأ فيها، بل هو التنغيص والشؤم والنكد.

أقول: التوبة إلى الله تعالى من شعار الصالحين، فهم الذين لا تقر لهم عين إلا بها، ولا يهدأ لهم بال إلا بالعيش في ظلالها.

وأقول: لا يستطيع أحد أن يغلق باب التوبة على أحد، وهي مقبولة عند الله تعالى إذا كانت بشروطها حتى تطلع الشمس من مغربها أو تخرج الروح من بدن صاحبها.

والتوبة إلى الله تعالى أصل من أصول العبودية التي تنفع صاحبها، ومن معالمها أن تكون صافية نقيَّة، يهجر صاحبها ذنبه، ويندم على فعلته، ويعزم على عدم الرجوع إلى الحرام، ويردُّ المظالم إلى أهلها إن كان في معصيته اعتداء على حقوق غيره.

واعلموا يرحمكم الله أن التائبين لهم أحوال مع خالقهم يعجز البيان عن وصفها، ولعل ما تحمله قلوبهم من خير هو سِرُّ تركهم للذنوب المُحَبَّبة إلى نفوسهم، وثباتهم على الطريق مع صعوبة السير فيه.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أَيْ: لَا يَغْفِرُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ، وليس للعبد أن يظن أن غير الله ينفعه في مغفرة الذنب والعفو عنه، وإن كان نبيًّا أو وليًّا. قال الله تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء: ١١٠].

وأخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ". أي: مادمت تذنب ثم تتوب غفرت لك.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ والتوبة الصادقة التي يحبها الله ويقبلها، لا تكون مع إصرار على الذنب واستمرار وإقامة عليه، أو مع نيَّة معاودة فعله كلما أمكن.

هؤلاء المتقون: لا يصرون على الذنب وهم يَعْلَمُونَ سُوءَ فِعْلِهِمْ، وَعِظَمَ غَضَبِ الرَّبِّ على جرمهم، وأَنَّه مَنْ تَابَ تَابَ الله عَلَيْهِ.

وهكذا: كلما أذنب، علم أن له ربًّا يغفر، فأحسن الإنابة والرجوع، ولم يملَّ من طَرْق أبواب التوبة وتتبعِ أسبابها، والاستغاثة برحمة الله تعالى وفضله.

وقبل أن ننتقل إلى عظيم فضل الله الذي ينتظرهم إذا تابوا وصدقوا كما في الآية التي بعدها، لا يفوتنا أن نقف مع فوائد وَعْظية وعلمية في الآية هنا:

١- العاقل لا يقترب من الحرام، فإن ابتُلِيَ بشيء من ذلك سارع في الندم ومفارقة الذنب وطرائقه، واجتنب مواطن الفتن، وعاهد الله على الثبات. أخرج أحمد والترمذي بسند حسن عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ". يعني: ما لم تبلغ روحه حَلْقه لتخرج، فلا تقنط من رحمة الله ولا تيأس من رَوْحِه، وتذكَّر أنَّ من علامات أهل التقوى عدمَ اغترارهم بشبابهم أو صحتهم أو سِتْر الله عليهم، أو تتابع نعم الله مع إقامتهم على المعاصي، نسألُ الله العافية والسداد.

واعلم أن من علامة الإيمان الحرصَ على اجتناب الذنوب، والابتعادَ عن مواطن الفتن، والمسارعةَ إلى التوبة إذا حصل البلاء بذنب يُسْخط الربَّ جل وعلا.

ومن علامات أهل التقوى عدم اغترارهم بستر الله، وعدم اغترارهم بشبابهم أو صحتهم أو تتابع نعم الله عليهم مع إقامتهم على المعاصي، هم يعلمون أن الموت قد يفجأ صاحبه ويحول بينه وبين التوبة.

٢- الذين يتوب الله عليهم عملوا السوء بجهالة، والجهالة هنا لا تعني عدم العلم بحرمة هذا الفعل، أو غياب العقل عن الفهم، ولكنه جهلٌ بعظمة العظيم حال فعل المعصية، وجهلٌ بالإقبال على لذَّة محرَّمة تزول ويبقى ضررها وإثمها، وجهلٌ بفعل الفاحشة دون رَوِيَّةٍ وتفكير صحيح ونظرٍ في المآلات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٧].

والجهل وصف لازم لكل من أكبَّ على الذنوب وأسرف فيها، فهو جاهل ما دام مصرًّا عليها، وجاهل حال تلذذه بها وغفلته عما ينتظره بعدها، وأحيانًا يأتي جهله من حيث ظن النفع بفعل المعصية، يعني: أقبل على الحرام ليرتاحَ ويطمئنَّ، ولكنه الشقاء وربي.

لكنهم مع فعلهم السوء بجهالة ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم وتابوا من قريب، أي: لم يصروا على ذنبهم، بل بادروا في توبتهم كلما أذنبوا، وسارعوا فيها يبتغون رضوان الله وجنته ويخافون سخطه وعذابه، ويحرصون على دوام توبتهم قبل أن يفجأهم الموت وهم على شر حال، وكأني بقلب هذا العاصي يتألم حُرْقة على ما فعل، وكأني به قد امتلأ بعظمة الله تعالى ولم يستخف بنظره إليه؛ هؤلاء هم الذين يتوب الله عليهم، ويسعدهم في الدارين.

٣- صحيح أن التوبة يبقى بابها مفتوحًا لمن عمل السوء بجهالة، ولكن الخشية أن يدركه الموت قبل توبته من قريب.

وليست الخشية فقط على صاحب هذه الطريقة في التفكير من الموت، ولكن يُخشى عليه كذلك من أن يُحالَ بينه وبين التوبة ولا ينشرحَ صَدْرُه لها ولا يُوفَّق، وقد تَجُرُّه المعصية إلى أخرى حتى يصبحَ القلبُ أسودَ لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٤- الآيات والأحاديث التي جاءت في قبول توبة التائبين وسعة رحمة الله لهم كثيرة جدًا، وهي تفتحُ أبوابَ الرجوع إلى الله عند من شرح الله صدورهم لمراقبته، ولا تفتح عليهم أبواب التجرؤ على المعاصي، يعني: من الغرور بالله أن تتفنَّنَ بالمعاصي تحت شعار: لي رب يغفر، ومن الغرور أن تستخف بسخط الله وعقوبته حال إقبالك على المعصية، فالمؤمن يجري حاله بين الخوف من العقوبة وبين رجاء الرحمة والمغفرة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وأخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ". والمقصود أن توبة العبد مقبولة متى كانت الحياة مأمولة.

٥- لا يقبل الله تعالى توبة من عصاه ولم يبادر إلى الرجوع إليه، ولكنه بقي مصرًّا على الحرام ويتقلب فيه حتى حضره الموت وبلغت روحُه مبلَغها لتخرج، فبادر إلى التوبة لمَّا يئس من بقائه في هذه الدار وأصبح في حكم أهل الآخرة، فكانت توبته في هذا الموطن توبةَ المضطرين الذين تركوها واستخفوا بها حال السعة والاختيار، ولذلك لا يقبلها الله ولا يرضى عن صاحبها.

ومثله يبقى في مشيئة الله تعالى في عقيدتنا ما لم يصدر منه كفر وخروج عن الدين، والمقصود بمشيئة الله تعالى أنه سبحانه إذا شاء عذَّبه ثم أدخله الجنة، وإذا شاء عفا عنه، بخلاف من يموت على توبة صحيحة مقبولة وطِيب حال فإنه من أهل الجنة فيما نحسبه والله حسيبه. قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

٦- الذنوب صغائر وكبائر، وفعل الصغائر أيسرُ من فعل الكبائر، والله عز وجل يغفر الصغائر ما دام أصحابها مجتنبين لكبائر الذنوب وعظامها، وفي ذلك ترغيب عجيب لهجر الكبائر وعدم الاقتراب منها. قال الله تعالى في صفات من أعد لهم جنَّاته: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم: ٣٢].

ولا يَفهم العبد من ذلك أن يُقبل على فعل الصغائر ولا يخشى ضررها على الدين، فإنها إذا اجْتَمَعت أتْعَبت، والعبد الموفق حريص على اجتناب صغائر الذنوب وكبائرها لأنه يستحضر عظمة من يعبد على الدوام.

وتُغفر الصغائر بدوام العبد على الطاعات، فصيام رمضان وصيام عاشوراء يكفران سنة، وصيام عرفة سنتين، والصلوات الخمس والعمرة إلى العمرة وصلاة الجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينها ما اجتنب الكبائر، وهناك عدد من الأذكار يغفر الله تعالى بقولها اللَّمَم، كقول: "سبحان الله وبحمده" مائة مرة، والتسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين مرة لكل واحد منها بعد صلاة الفريضة، ثم ختمها بكلمة التوحيد، وغير ذلك.

وغفران الصغائر يكون كذلك بتعرض العبد للبلاء في نفسه وأهله وماله وصبره على ذلك واحتسابه ورضاه، هذا الصبر فيه تكفير للخطايا، ومحو للذنوب، وتعرُّضٌ لرحمات الرب ورفعة الدرجات.

فدوام العبد على الطاعات المذكورة وتعرضه للبلاء يغفر صغائر الذنوب إن صادفها وكانت موجودة، وإلا رفعت صاحبها الدرجات العلا عند ذي الملكِ جل جلاله.

٧- أما كبائر الذنوب فالوقوع في شَرَكها ليس كالصغائر، وقد حذَّر منها ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ (يعني: المهلكات الموجبات لدخول النار)" قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: "الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ".

وهذه السبع المذكورة ليست على سبيل الحصر، فقد جاءت أحاديث تصف غير المذكورة هنا بأنها من الكبائر، منها:

ما أخرجه البخاري عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ" قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: "يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ".

وأخرج البخاري عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ". وفي رواية: "وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ".

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ". قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

فهذه الأحاديث تدل على أن الكبائر أكثر من سبعة، وأنها تتفاوت في العظم والدرجة، وقد يؤثر في تفاوتها كثرةُ مفاسدها، وما يحمله قلب صاحبها.

وقد اجتهد أهل العلم في وضع ضابط نعرف به الكبائر من الصغائر وتعددت أقوالهم في ذلك، فمنهم من قصر الكبائر على كل معصية جاء فيها عقوبة الحد من الشرع كالزنا والسرقة وغيرهما، ومنهم من قال: هي الْمَعْصِيَةُ الَّتِي يَلْحَقُ صَاحِبَهَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ بِنَصِّ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ، ومنهم من قال: الْكَبَائِرُ كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ الله بِنَارٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ لَعْنَةٍ أَوْ عَذَابٍ.

والقول الأخير مال إليه عدد من محققي المسألة، فشملت الكبائر معصية شُرْبِ الْخَمْرِ، وَالسَّرِقَةِ، وَأَخْذِ الْمَالِ غَصْبًا، وَالْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ بِلَا عُذْرٍ، وَقَطْعِ الرَّحِمِ، وَالْخِيَانَةِ فِي الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ، وَتَأْخِيرِ الصلاةِ عَنْ وَقْتِهَا بِلَا عُذْرٍ، وَالْكَذِبِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عَمْدًا، وَسَبِّ الصحابة، وَمَنْعِ الزَّكَاةِ، وَتَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ الْقُدْرَةِ، وَنِسْيَانِ الْقُرْآنِ بَعْدَ تَعَلُّمِهِ، وَامْتِنَاعِ الْمَرْأَةِ مِنْ زَوْجِهَا بِلَا سَبَبٍ، وخروجِ المرأة متبرجة، وَالْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ الله، وَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ الله، وغير ذلك.

ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن مرتكب الكبيرة مسلم وليس كافرًا، وأنه إن مات على معصيته فإنه يكون تحت مشيئة الرب جل وعلا: إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

وبطريقة أخرى: مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار وإن عُذِّبَ فيها، ويكون مآله إلى الجنات كباقي من مات على التوحيد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ولقائل أن يقول: وكيف تُغفر الكبائر؟ هذا سؤال يراود كلَّ من ابتلي بها وأراد التوبة منها بعد أن استحضر عظمة الله، وعادت إليه روح العبودية، وتذكر غاية خلقِه ووجودِه، واعتصر قلبُه ألَمًا على ما فعل.

والجواب: اتفق أهل العلم على أن الكبائر لها التوبة الصادقة التي استجمعت شروطها وأحكامها، من مفارقة الذنب، وحصول الندم، والعزم على عدم الرجوع، ورد المظالم إلى أصحابها إن وُجدت.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٦٨-٧٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَرِ: ٥٣].

وأخرج أحمد والترمذي عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً".

وأخرج البخاري ومسلم عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدِ اسْتَيْقَظَ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: "مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ" قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ" قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ" قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: "وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ" وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ.

ومعلوم لديكم قصة الذي قتل مائة نفس، ثم صدق الله في توبته فتاب الله عليه، وقبضت روحَه ملائكةُ الرحمة.

واختلف أهل العلم في مسألتين:

الأولى: هل إقامة العقوبة التي أمر بها الشرع في الدنيا تُكفر الذنب، وذلك فيما لو كانت الكبيرة لها عقوبة شرعية كالقصاص من القاتل المتعمد، وقطع يد السارق، ورجم الزاني أو جلده، وغير ذلك من الحدود؟

جمهورهم على أنه لا بد من توبة مرتكب الكبيرة مع إقامة العقوبة لتكون كفارةً له، ومنهم من ذهب إلى أن إقامتها يُسقط عقوبة الآخرة وإن لم يكن ثمة توبة.

وقد أخرج البخاري ومسلم عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ العَقَبَةِ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى الله، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ الله فَهُوَ إِلَى الله، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ".

الثانية: هل تُغفر الكبائر بالحج؟ القولان موجودان عند أهل العلم، فمنهم من ذهب إلى الغفران لأن الحاج الذي أدى حَجَّه كما يحب الله ويرضى يرجع من حجه كيوم ولدته أمه، ومنهم من اشترط مع ذلك توبته الصادقة من فعل الكبيرة.

٨- يا طلاب العلم وطالباته: هنا لفتة نفيسة تعيننا في طريق دعوتنا وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وهي أن وجود الصغائر لا تخلو منه حياة الناس، والداعية إلى الله يحرص على دعوتهم إلى اجتنابها، ويفتح لهم أبواب التوبة منها، ويذكرهم بمكفراتها.

أما أصحاب الكبائر فنذكرهم بأن يستروا على أنفسهم ولا يفضحوها، وأن يجاهدوا أنفسهم ويغلقوا أبوابها وطرائقَها، وأن يتذكروا وقوفهم بين يدي الرب جل وعلا.

ومن الضرورة التي لا تخفى عليكم أنهم أحوجُ ما يكونون إلى إحسان الظن بالله ليُحسنوا في أوبتهم ورجعتهم، ومما يفتح لهم أبواب حسن الظَّنِّ ما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرُهم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي".

٩- تنبيه أذكره خشية أن يَهُون الذنب على قلب أحدنا، ويغترَّ بستر الله عليه، ويغتر بما ذكرنا من عظم فضل الله بكثرة مكفرات الخطايا، ونجاة أهل التوحيد من الخلود في النار.

أقول: في مثل هذا المقام: تذكروا عظمة الرب ولا تستهينوا بالذنب، واعلموا أن أمامنا سفر طويل، وأن خير عدة لما ينتظرنا بعد الموت أن نتقلب في عبوديتنا بين الرجاء والخوف، فكما أن رحمة الله وسعت كل شيء، فإن عذابه شديد وإن الواحد منا لا يدري بم يختم له.

ثم انظروا في أمر الكبائر على وجه الخصوص، وتلمسوا إفسادها لقلوب أصحابها، بل إفسادها لدينهم ودنياهم، ولا أظن أحدكم يجهل ضرر الزنا أو الربا أو السحر أو غير ذلك من الموبقات.

اسألوا الله العافية، ورحم الله امرأً حفظ الله عليه دينه، ولم تكن مصيبته فيه.

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

الذين امتثلوا أوامر الله فأنفقوا في السراء والضراء، وكظموا غيظهم وعفَوا، وكانوا من التوابين، لهم كرامة عند الله ليس كمثلها كرامة، لهم أن يتقبل الله توبتهم، وأن يدخلهم جنات تجري بين أشجارها ومن تحت مساكنها أنهارٌ من ماء ولبن وخمر وعسل، وهم في هذا النعيم خالدون لا يتحولون عنه ولا يتبدلون.

ونِعْم ما ينتظرهم من الجزاء العظيم، والفضل الكريم، في جنة رب العالمين.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

لا تحزنوا أيُّها المؤمنون على ما أصابكم يوم أحد، من هزيمتكم أمام المشركين وقتْل سبعين منكم، ولا تنْكسر خواطركم، فإن الدائرة ستكون لكم عليهم، وستعلو كلمة الحق والدين والإيمان، واعلموا أَنَّ قُوَّةَ الظَّالِمِينَ وَعُتُوَّهُمْ عَلَى الضُّعَفَاءِ أَمْرٌ زَائِلٌ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ الْمُحِقِّينَ.

فإن أردتم علامة ذلك، فتذكَّروا ما حصل مع الأمم التي خلت وانقضت من قبلكم، من قوم عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ممن تشاهدون آثار هلاكهم ودمارِهم في أسفاركم، وتدركون كيف كانت الغلبة أخيرًا لأهل الحق والإيمان، لا لمن كذَّب برسل الله وآياته، ولا لمن خالف أمرهم ونهيهم، ولا لمن سلك طريق العزة من غير طريقهم، فاسْترشِدوا واعْتبروا بذلك، واصنعوا من آلامكم آمالًا، والله معكم. قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وكذلك احذروا معصية رسول الله فيما يأمركم وينهاكم في أمر دينكم وقتالكم لعدوكم، فإن لله سننًا لا تتخلف فيمن عصاه وعصى نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ألا ترون ما حصل بعد مخالفتكم الأمر في غزوة أحد من الهزيمة، وتعرض نبيكم ﷺ لخطر الموت، ونزول دمه الشريف بأبي هو وأمي ﷺ، وموت عدد كبير من الصحابة قارب السبعين، وغير ذلك.

إن سنن الله تعالى في خلقه تنير للحائرين طريقهم، وتُرْشد المُتَتبعين لها إلى ما فيه عِزهم وصلاحهم، وهي كثيرة ومجالاتها واسعة، ولا يليق بمن يشتغل لمشروع الأمة الحضاري إلا أن يرسخ فيها وفي فهمها، ويجعلها نصب عينيه في بنائه وبلاغه وجميع عمله.

والمطلوب: أن تسيروا في الأرض لتنظروا في آثار القوم الذين أُهلكوا وعُذِّبوا، وأن تتعلموا تاريخ هذه الأمم من مصادرها المعتبرة لتفقهوا شيئًا من سنن الله، وأن توقنوا أن التمكين لا يحصل لهذه الأمة إلا بإيمانها وعملها الصالح، ولا يحصل إلا بتوحدها على مدافعة أهل الباطل، وإعداد ما استطاعت من قوة، ولا يحصل إلا بفقهها لأولوياتها وتدرجها في العمل لخدمتها.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

هذه آيات الله تعالىٰ في القرآن مما تقدم ومما سيأتي، تحمل تِبيانًا وإيضاحًا للأمور من حولكم، وتدركون بها معالم التفكير النافع والعمل الصالح، وتعرفون بها الحق من الباطل والهدىٰ من الضلال.

وهذه آيات الله فيها هداية لقلوبكم وإرشاد إلىٰ طرائق الخير والمعروف، وفيها كذلك تخويف وزجرٌ لكم عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ، ينتفع بها أهل التقوىٰ فيسلكون سبيل النجاة ويفلحون.

ومن تأمَّل السياق الذي جاءت فيه الآية هنا، وجد أنها بينت أتمَّ بيان وأرشدت ووعظت، أما البيان فكان للناس جميعًا كما في الآية، وذلك لتقوم الحجة علىٰ الجميع بإرشادهم وتبيين الطريق لهم، وأما الهدىٰ والموعظة فهي للمتقين الذين يقومون بحقوق إيمانهم، لأنه لا ينتفع بها إلا هم، ولا يأخذ الموعظة والهدىٰ منها إلا هم، ولا ينقاد ويذعن ويتبع إلا هم، اللهم اجعلنا منهم.

وحتىٰ لا يقتصر عملنا علىٰ الدعاء بأن يجعلنا الله منهم، تعالوا لنعرض أنفسنا في هذا الزمان علىٰ هذه الآية بما تحمل من كنوز لا تنتهي، وتعالوا لننظر في أمرنا ونتدبَّره قبل فوات الأوان، وتعالوا لنعذر إلىٰ الله في أنفسنا وأهلينا وأُمَّتنا وديننا ونقوم بواجب المرحلة من لَمِّ الشمل، ونشر العلم، وتربية النفوس علىٰ معاني التوحيد والتوكل واليقين والصبر، ومجاهدة الكافرين والمنافقين.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

تسْليةٌ لأصحاب محمد ﷺ، ودعوةٌ لهم ليكونوا أقوياء، فإن هذا الدين أمانة عند المؤمنين تحتاج في إيصالها للناس إلىٰ بذل وعطاء وتضحية، ولا ينفع معه وهْنٌ أو حُزن.

والوَهن هو ضعف الإرادة والعزيمة والرأي، ويكون معه شعور باليأس.

وأما الحُزْن فهو شدة أسفٍ تصل بصاحبها إلىٰ حد الكآبة والانكسار إن لم يتدارك نفسه. وهذان الأمران قد يحصل بسببهما الاستسلام والقعود عن الجهاد.

ولذلك نَهَتْهم الآية عنهما، بل بشرتهم بنصر الله وعونه وتأييده لهم، وبشرتهم برفعتهم وعلوِّهم علىٰ غيرهم، وأنهم هم الغالبون إن بقوا علىٰ إيمانهم بنصر الله ويقينهم، وإن أخلصوا لله في علمهم وعملهم، وبذلوا ما استطاعوا من أسباب، وإن تابوا إلىٰ الله توبة صادقة من تنازعهم في غزوة أحد وتركهم لمكانهم علىٰ الجبل.

يا أصحاب محمد ﷺ: إن انتصار المشركين عليكم في أحد لم يكن تامًّا، فقد رجعوا إلى مكة بلا أسرى ولا غنائم، وإن ما حصل معكم كان فيه تربية عظيمة لكم وللأمة من بعدكم، وإن الذين قتلوا منكم في الجنات يسرحون ويمرحون، فلا تضعفوا عن القتال والتدبير، وقوموا من جديد وتسلحوا بالثقة والعزيمة وعلو الهمة.

انظروا كيف وصفهم القرآن بأنهم الأعلون مع أنهم هُزموا في أحد، ولعل هذا الوصف يحمل أبعادًا علمية ونفسية واجتماعية عليهم، ولعله يحمل رسائل لنا في زماننا لنتعامل مع ضعف الأمة بحنكة ومهارة، ولنقضي على الوهَن الذي تسلل إلى نفوس الكثيرين من أبناء القرآن والسنة.

ولعل مفتاح النصر في أيامنا، موفور في الآية القرآنية هنا لمن أراده؛ إيمان بالله تعالى، مع ثقة ويقين، بلا حُزن ولا ضعف، مع استحضار أن الأيام ليست كلها لك، بل ربما يكون منها يومٌ عليك.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

ومِنَ الأمُور التِي تسليكم وتُعينُكم على طردِ الحزن والوَهْنِ ودفْعِهما عنكم، أن تتذكروا أنَّ الجراحاتِ أصابت عدوَّكم كما أصَابتْكم، وحصل فيهم قتْلٌ وإيلامٌ لا تستهينوا به.

وَالْقَرْحُ هو الْجُرْحُ، والمقصود به هزيمتهم في أحد وما حصل معهم من جراحات وقتْل. وَالْقَوْمُ هُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَمَنْ مَعَهُمْ.

ومعلوم لديكم أن الجهاد في سبيل الله تعالى فيه تعريض النفس للجراح والقتل، وفيه من المصاعب ما فيه، وقد جرت سنة الله تعالى أن يؤلم العدو فينا ويبذل وسعه في إضعافنا، وربما يقتل أحب الناس إلينا وأعزهم علينا، وقد يتعرض لأبنائنا وأموالنا وأعراضنا، وهذا ما قد يوهن من عزائم المجاهدين ويسبب لهم حُزْنًا مُقْعدًا عن غايتهم وذروة سنام دينهم.

أيها المجاهدون الصادقون: لَا تَضْعُفُوا فِي مدافعة عَدوِّكُمْ، ولا تقعدوا عن طلبهم وبدء قتالهم والإثخان فيهم وإيلامهم، واعلموا أنَّ عدوكم يألم كما تألمون، ويحزن كما تحزنون،

ويصيبه من الجراح والقتل كما يصيبكم، فلا تتخلفوا عن حمل راية الحق ورفعها، ولا ترضوا أن يكون عدوُّكم أصبرَ منكم على القتال وهو يحمل الباطل، هم أجدر بالخوف منكم وأحق به، فتأملوا. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤].

وتذكروا أن ثمة ما تتميزون به عن عدوكم الذي ستنتصرون عليه قَطْعًا في آخر الأمر إذا تتبعتم سنن الله في النصر، أنتم تتميزون بأنكم ترجون من الله تعالى أمرًا لا يخطر لهم على بال، ولا يستحضرونه حال قتالهم بل لا يعرفونه، إنكم ترجون من الله تعالى جنة أعَدَّ الله فيها للمجاهدين ما ليس لغيرهم، وترجون من الله تعالى أن يرضى عنكم ويغفر لكم ذنوبكم، ويُؤَمِّنكم من فتنة المحيا والممات والقبر والحساب، وترجون من الله تعالى أن يرتفع اسمُكم عندَه في عليائه، ويرضيَكم في أنفسكم وأهليكم.

ولعل هذا التمايز هو سِرُّ حفظ الله لكم ونصركم عليهم، وهو سر قوتكم وغلبتكم على من هو أكثر منكم عددًا وعدة على الغالب، فكونوا كما أرادكم الله تعالى أهل عزيمة وشجاعة وإقدام وصبر، وخذوا بأسباب النصر المادية والمعنوية.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: قدْ ينصر الله عدوكم عليكم في مرحلة من مراحل الصراع معه، لحِكَمٍ ومنافع ترجع عليكم، فلا تحزنوا.

لا تتعجبوا من هزيمتكم في أحد، فطبيعة الحروب تقوم على أن تكون منتصرًا تارةً، وغير منتصر تارة أخرى، وقد سبق لكم أنْ هزمتم أعداء الله في غزوة بدر، والأيام دُوَل.

وهذه السنة الكونيَّة في حياة الرسل والمؤمنين والمجاهدين، كان هرقل ملك الروم يفهمها ويَعِيها، ويستدل بها على صدق نبينا ﷺ، فقد أخرج البخاري ومسلم في حديث هرقل الطويل، أنه قال لأبي سفيان لما قابله ليسأله عن رسول الله، وذلك قبل أن يُسلم أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال هرقل: "وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ".

ولعل من أعظم الحِكَمِ التي جعل الله بسببها الأيام دُولًا بين المسلمين والكافرين، أن يعلموا أن النصر ليس دومًا حليفهم، وأن يحرصوا على أسباب النصر ويحصلوها، بدلًا من التواكل والخلود إلى الراحة، وهو ما نفعهم من هزيمتهم يوم أحد.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ ومن هذه الحكم: معرفة صدق إيمانكم بمجاهدة الأعداء، والثبات في صفوف المواجهة معهم، وعدم الانتكاس أو الفرار، ليظهر إيمانكم الذي تربيتم عليه وعشتم في ظلاله مدة من الزمن.

ولكم أن تتأملوا ما فعله المنافقون قبل بدء المعركة، لتعلموا منافع الجهاد قي سبيل الله.

وكذلك من الحكم، أن يصطفيَ الله عددًا من أحْبابه وأوليائِه، ويكتبَ لهم كرامة الشهادة في سبيله، والتضحية بأنفسهم من أجل مرضاته، فينالوا حظًّا مما أعده لهم، سبحانه.

وبمثل هذه الآيات تدرك شيئًا من فضل أصحاب النبي ﷺ، كحمزة بن عبد المطلب ومصعبِ بن عمير، وغيرهم ممن كتب الله لهم الشهادة في أحد، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والله لا يحب من ظلم نفسه وعادىٰ دينه في الأرض، ولا يحب من ظلم نفسه ونكل عن الجهاد وأكبَّ علىٰ الذنوب المُهلكات، ولا يحبُّ النفاق الذي يطعن في خاصرة هذه الأمة ما بقي عزمها فيها.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

ومن منافع ما حصل، تمحيصُ المؤمنين، أي: تخليصهم وتنقيتهم من العيوب والذنوب، واختبار عقيدتهم وإيمانهم، ثم محقُ الكافرين، أي: إهلاكهم وهزيمتهم.

ومع أن كلا الفريقين أصابه القرح، إلا أن ثمرته علىٰ أهل الإيمان ليس كحسرة أهل الكفر به، فأهل الإيمان ينتفعون من أخطائهم ويرجعون ليكونوا سادة الأمم، وأهل الكفر والخذلان ستذهب ريحهم وسطوتهم لسرعة وصول اليأس إلىٰ قلوبهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

خاطبت الآية أصحاب رسول الله ﷺ، وأرادت منهم أن يفقهوا عن الله تعالىٰ مراده من فرض الجهاد وتحريم الفرار يوم الزحف، ومراده من البلاء العظيم الذي حلَّ بهم في غزوة أحد، ومراده من تمحيص أهل الحق بالشدائد، وأرادت منهم أن يعلموا كيف ينال العبد كرامة الله وشرف المنزلة عنده، وألا يصيبه الوهن أو القعود عن الجهاد، فليست كل أيامهم كغزوة بدر، وأرادت أن تعاتبهم علىٰ عدم صبر بعضهم عن الغنائم، حتىٰ نزل من علىٰ تلَّة الرماة، وحصل ما حصل.

يا أصحاب محمد ﷺ، ويا كلَّ من تقرؤون القرآن وتحبون العيش معه: لا تحسبوا أن دخول الجنة يكون بدون جهاد وصبر، واعلموا وتذكروا دومًا أن الجنة لا تُنال براحة الأجساد ولا بالتشهي، ولا يدخلها أصحابها إلا بمصابرة الشدائد والأهوال، وبَذْل النفس والمال والولد، ذاك أن الله تعالى كتب البلاء على أهل الإيمان ليميز الخبيث من الطيب، وليَظْهر صدقُ الصادقين من غيره، ومن ظنَّ غيرَ ذلك، فقد أخطأ وجهل. قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٤]، وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العَنْكَبُوت: ١-٣].

والآية تحمل هداية وإرشادًا وتسلية، وفيها بيان لطريق الأنبياء والرسل ومن اصطفاهم ربنا ليكونوا في عليين، وفيها بيان لحقيقة طريق الاستقامة والدعوة لأولئك الذين أحبوا ربهم ولقاءه، وفيها إشارة لأهل الغرور الذين ظنوا أن دخول الجنة يكون بالتشهي والتمني، وهي تعيد البناء العقائدي والعلمي لمن ضل أو زاغ عن دين الله تعالى، خاصةً في هذا الزمن.

ومن تأمل سيرة نبينا ﷺ في حياته وجهاده، وتأمل سيرة صحبه، بل وسيرة الصادقين من هذه الأمة عبر التاريخ، وجد هذه الآية الكريمة تعيش معهم وتصف حالهم، فلله دَرُّهم من قدوات ربانية، ولله درُّ من سار على خطاهم وثبت حتى لقياهم.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: ولم يظهر منكم من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا، ولم يظهر أولئك الذين صبروا على جراحاتهم وآلامهم ومكروهاتهم في ذات الله، فإن فعلتم ذلك فقد أظهرتم صدقكم وكنتم من أهل الفلاح الذين سبق علم الله فيهم بأنهم من أهل الجنة.

والجهاد المذكور في الآية هنا هو الجهاد في سبيل الله، وهو مما أوجبه الله تعالى على الأمة المُحَمدية، حفاظًا على هويتها، وتحقيقًا لرسالتها الموسومة والمعلومة بنشر الإسلام والقضاء على الظلم في الأرض.

ومعلوم لديكم أنَّ الجِهَادَ فيه مَشَاقُّ متعَدِّدَةٌ، وفيه شِدَّةٌ لا تَخْفَى، وفيه تركٌ للرّاحةِ والطّمأنينةِ والمالِ والأهلِ والوَطَنِ، وفيه تعريضٌ للنّفسِ للمَوتِ أو الجِراحَةِ، ولذلك كان الجهادُ ثقيلًا على النُّفُوسِ، وربّما كَرِهَتْهُ بطَبْعِهَا. قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن

تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧]، ولذلك جاءت الآية تبين أن دخول الجنة لا يكون إلا بالثبات في وجه الأعداء، حتى يرى الله جهادنا وصبرنا على مقارعتهم وقتالهم.

أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ". والمكاره هي المشاق والمتاعب في التكليفات، والنفس بطبعها لا تحب المتاعب ولا المشاق، فالباذل لماله ربما يكره نقصان ماله بطبعه، والقائم للصلاة والحج والجهاد ربما يكره التعب وتعريض النفس للقتل أو الجراحات، ولذلك كانت سلعة الله غالية.

والسياق القرآني لمن تأمله يُظهر كرامة أهل الجهاد الصادقين عند الله، ويحمل أمرًا إلهيًّا يسعى إلى تثبيت حب الجهاد من أجل كلمة التوحيد في قلوب المؤمنين، ويهدف إلى تمكين ذروة سنام الإسلام في الأفئدة، لعل القارئين لكتاب الله تعالى يسيرون على خطى المجاهدين ليكونوا معهم في الجنات وإن ماتوا على فراشهم.

طلابَ العلم وطالباته: المعركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر مما كتبه الله تعالى قَدَرًا، فالخير والشر لا يجتمعان أبدًا، وجنود الحق يعلمون أن دوام نصرتهم لدينهم، والعملَ لذلك هو مفتاح تحجيم الشر ومحاصرة أهله.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

كان عدد من أصحاب رسول الله ﷺ ممن لم يشهد بدرًا، يتمنى لو حصل قتال بينهم وبين أهل الكفر ليقدموا أرواحهم، ويظفروا بما ظفر به أهل بدر من الشرف والفضل والمغفرة والقبول، مع أنهم لم يُعاتبوا في عدم حضورهم لغزوة بدر لأن المسلمين إنما خرجوا فيها من أجل القافلة لا من أجل القتال.

هؤلاء الذين كانوا يتمنون ذلك حضروا غزوة أحد، وقد فرَّ بعضهم لما التفَّ خالد بجيشه عليهم، وصبر بعضهم وصدق الله فيما عاهده عليه، فجاءت الآية تعاتب الذين لم يثبتوا.

جاءت الآية تقول لهم: هؤلاء أعداء الله فقاتِلوهم واصبروا، وهذا هو الموت الذي أردتموه، يظهر في لَمَعان السُّيُوفِ وَحَدِّ الأَسِنّة وَاشْتِبَاكِ الرِّماح، وَصُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ.

وتأملوا كيف يحمل هذا السياق موعظةً لهم ليفقهوا حقيقة الطريق، ويحمل عتابًا جديدًا وملامة على نزول الرماة وانهزام الجيش وفرارهم. أخرج البخاري ومسلم عن عَبْدِالله بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ، يَنْتَظِرُ حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ (يعني: ينتظر إلى ما بعد زوال الشمس ليبرد الوقت على المقاتلين، ولتهب الريح ويكون ذلك أمكن للقتال، وأنشط للنفوس)، فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا الله الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ".

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

أُشيعَ في غزوة أُحد وقتَ قتال المسلمين للمشركين، أن رسولَ الله ﷺ قُتل، فوضعَ عدد من المسلمين أسلحتهم، وتوقفوا عن القتال واضطربوا في مواقفهم، حتى انقلب بعضهم عن القتال وعن نصرة هذا الدين، وحتى جاءت الروايات بأن عددًا منهم حدَّث نفسه بالردة عن الدين بموت صاحب الرسالة، فحصل بذلك وهَنٌ وضعف في الجيش المسلم، وكان الأمر عسيرًا على الجميع.

تُنكر الآية عليهم وضْعهم للسلاح، وتُعاتبهم على ما فعلوا، وتذكِّرهم أن محمدًا ﷺ بشرٌ، وأنَّ الموتَ أو القتلَ جائز عليه كما هو حال الرسل من قبله، وقد مات الرسل من قبله، ومنهم من قُتل.

وتذكرهم الآية أن العبودية تقتضي أن يمضيَ أصحابُها في دعوتهم وجهادهم، وإن مات نبيُّهم، وهذا ما انتفع منه المسلمون، لمَّا مات رسول الله ﷺ حقيقةً، ووقَفَ بهم أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تاليًا لهذه الآية التي كان قد مَرَّ على نزولها قرابة سبعةِ أعوام، وثبَّت بها غالب أهل المِلَّة وإن ارتد من ارتد.

أخرج البخاري عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ

﴿ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، وَقَالَ عبدالله بن أبي أوفى: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا". قال: فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ، أَنَّ عُمَرَ قَالَ: "وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ (أي: تحيَّرتُ ودُهشتُ)، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَيَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ".

﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ أمْرُ الله عز وجل ماضٍ، وقدَرُهُ نافذٌ، وإن تخلى من تخلى، والذين انقلبوا على أعقابهم بردتهم أو بتخلفهم عن القتال، لن يضروا الله شيئًا، ولن يُحدثوا في دينه ومُلْكه نقصًا ولا خللًا، ولكن الضُّرَّ كله واقع عليهم بتعريض أنفسهم لخطر العقوبة وسخط الرب جل وعلا.

وكأني وأنا أقرأ هذه الآية، وأعيش ظلالها، أذكر إخوة لنا تركوا طريق الدعوة، لما استعجلوا التمكين لها فلم يرَوه، بل رأوا شدَّة بلاء عليهم، فأساؤوا الظن بالله وانقلبوا على أعقابهم، أسأل الله أن يردَّهم.

وكأني أذكر حال إخوة كانوا من أهل الصلاح، فلما مات مربوهم ومعلموهم، أو لما ابتعدوا عنهم إلى بلاد أخرى، أو لما دخلت الدنيا على القدوة والشيخ والأب ففُتن عن دينه، أقول: رأينا أقوامًا من هؤلاء تركوا حياة الالتزام محتجين بذهاب القدوة أو ضياعه، ونسي الجميع أن هذا الدين دينُ مبادئ لا دين تقاليد، وأن العبد منا عبد لله وحده وإن كفر كل الناس، وأنه سيأتي ربه يوم القيامة فردًا ولن ينفعه من اعتذر بحاله عن الضلال.

وكأني بفكرة عميقة أرادتها الآية، تقوم على سؤال النفس: هل ارتباطي بمحمد ﷺ ارتباط متعلق بوجوده معي ببدنه ؟ أم متعلق بطاعته التي هي من طاعة الله، ومتعلق بحبه الذي هو من حب الله، ومتعلق بسيرته وهديه وسمته وعلمه؟

وتقوم كذلك على سؤال آخر أترك جوابه لكم: هَبْ أنني وقفت في معركة أرفع فيها شعار الذَّبِّ عن دين الله، سواء كانت هذه المعركة بالأسلحة أو كانت بالفكر والدعوة، ثم إن قائدي في المعركة وافته المنية أو أصابته جراح عظيمة، أتُراني وضعت سلاحي واستسلمت ؟ أم كنت من السابقين لحمل الراية من بعده ؟

﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وَلَكِنَّ الشَّاكِرَ الثَّابِتَ عَلَى الْإِيمَانِ وعلى الجهاد والعمل الصالح يُجَازَى بِالشُّكْرِ، لِأَنَّهُ سَعَى فِي صَلَاحِ نَفسه وَصَلَاحِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّلَاحَ وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وربنا أعدَّ للشاكرين الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا، أجرًا عظيمًا، وجناتٍ ينسىٰ أهلُها كلَّ بؤس في الدنيا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾، أي: كتب الله عز وجل عنده زمن قبضِ روحِ كل واحدٍ منَّا، ولن يموت أحد قبل أن يستكمل أجله ورزقه وعمله، لن يموت بكيد كائد ولا بحيلة محتال إلا بإذن الله، ولا يتحكم في سلطان الله أحد وإن كان من كان. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ [فَاطِر: ١١].

وهذه العقيدة تُعين من ابتُلي في حياته بالجُبْن والخور والضعف، وتبعث في نفسه الحماسة والإقدام كما أمر الشرعُ، فإنَّ العمر مكتوب، لا يَزيدُه مزيدُ حرصٍ.

والآية في سياقها القرآني، تُذكر الذين لم يتقبلوا فكرة موت رسول الله ﷺ، وقعدوا عن القتال في أحد، والذين أصابتهم الدهشة وتزعزع إيمانهم، بأن الآجال بيد الله، وأنه يقبض أرواح البشر جميعًا إذا جاء أجلها المكتوب عنده، يعني: لم هذا الهلع وهذا الخوف كله ؟ اثبتوا وقاتلوا لنصرة شريعتكم، وإن مات من مات.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ﴾

صنف من الناس لا يطلب إلا الدنيا وكفىٰ، ولا يسعىٰ إلا إلىٰ إرضاء شهواته، ولا يريد الموت في سبيل الله، ومع ذلك فإن الله تعالىٰ يؤتيه منها، أي: يعطيه من متع الدنيا ولذائذها بِالْمَقَادِيرِ الَّتِي شَاءَ الله إِعْطَاءَهَا؛ المال والصحة والقوة والجمال والولد وغير ذلك، ولكن لا حظَّ له في الآخرة، كما قال الله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢٠].

ولا يُفهم من هذا أن المسلم لا يبتغي شيئًا من دنياه، بل حثَّ الإسلام علىٰ عمارتها بما ينفع أهلها من خير، ولا حرج بأن يكون للمسلم نصيب وحظ في غنائم الجهاد ورزقه، والمذموم في ذلك هو الغفلة عن الدار الآخرة وأهوالها.

ولقد ذكرت الآية صنفًا آخر جعل همه الدار الآخرة، يعني : رضا الله والجنة، هذا الصنف علم أن الفوز العظيم لا يكون إلا بدخول الجنة، فأرادها بصدق، وسعىٰ لها بالإيمان والعمل.

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أَيْ: سَنُعْطِي الفضل والرحمة والثواب لمن عرف نعمة الله، وأحسن شكره عليها.

والشاكرون هم الذين ثبتوا على إسلامهم وجهادهم، فاعتُبر ثباتُهم شكراً لله، وقد أعدَّ الله لهم نعيمًا مقيمًا في جنته.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞۚ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾

الرِّبِّيُّون: هم الجمع والأتباع من الناس، أو هم نسبة إلى الربِّ جل وعلا المُتَّبِعون لشريعته، وهم صنف من الناس لا يأتمر إلا بأمر الله، ولا يرجو من دنياه إلا أن يرضى ربه عنه، وكفى.

ولفظة "وكأين" تعني، وكم، أي: وكم من نبي قاتل معه ربيون كثير.

يا أهل الصدق والتقوى من أصحاب محمد ﷺ وممن جاء بعدهم: تسلحوا دومًا بالثبات والقوة، واعلموا أنه قد كان لأنبياء الله من قبلكم أتباع وأنصار وقفوا معهم، وبذلوا الكثير لدين الله بلا خور ولا ضعف ولا استكانة، ولا استسلام ولا خضوع ولا مَذلَّةٍ للعدو، فهلَّا كنتم مثلهم.

هؤلاء الربيون قاتلوا مع أنبيائهم، ولم يتوقفوا عن طريقهم الذي ارتضوه لأنفسهم وإن قُتِل نبيُّهم أو مات، بل صبروا على قتال عدوهم، وقاتلوا على ما قاتل عليه.

أخرجَ البخاريُّ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو الله لَنَا؟ قَالَ: "كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ" .

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ صِدْقُهم وبذْلهم سببٌ عظيم من أسباب حب الله لهم، فلْتقرَّ أعينُهم، فإن الله يحبهم ولا يحب أولئك الذين ارتدوا أو نكلوا عن الجهاد، أو أصاب الخور قلوبهم فاستسلموا.

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

يدرك الرِّبِّيُّون المؤمنون أصحابُ البصيرة في دينهم، ضرورة التوجه إلى الله تعالى بالدعاء في أحلك المواقف وأصعبها، بعد أن يبذلوا ويقدموا ما يستطيعون من أسباب، ويدركون كذلك خطر الذنب والمعصية على تحصيل عون الله لهم، فيطلبون من الله أن يعاملهم بإحسانه ويغفر لهم إسرافهم في أمر دينهم وإصرارهم على الذنوب، وربما اقترافهم لبعض الكبائر.

المجاهدون المخلصون يطلبون من الله أن يعينهم على الصبر في أرض المعركة، ويسألونه ثبات الأقدام بألا تزل فيخافون ويفرون ويهربون، والدعاء في مثل هذه المواطن له قدره وقيمته، وقطعًا لا يكون كدعاء المطمئن بين أهله. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

الدعاء عند الجهاد له أثر عظيم، واستحضارُ الذنوب والصدق مع الله في التوبة منها في تلك اللحظات أدعى للقبول والنصر، ولقد أكرم الله أولياءه بأن وعدهم أن يستجيب لهم دعاءهم في تلك اللحظات التي تستكين فيها القلوب وتتعلق بخالقها. أخرج أبو داود والدَّارِميُّ والحاكم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثِنْتَانِ لَا تُرَدَّانِ، أَوْ قَلَّمَا تُرَدَّانِ الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ، وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا (أي: عندما يلتحمون في القتال)».

وأخرج ابن ماجه وابن حبان بسند حسَّنه بعض أهل العلم عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْغَازِي فِي سَبِيلِ الله، وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ، وَفْدُ الله، دَعَاهُمْ، فَأَجَابُوهُ، وَسَأَلُوهُ، فَأَعْطَاهُمْ».

ولقد كان نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يلحُّ على الله تعالى في الدعاء وقت جهاده، كما دل على ذلك فعله في غزوة بدر، فقد أخرج مسلم عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ الله ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ. فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ".

ومن دعائه كذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْأَحْزَابِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم".

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨ ﴾

أكرمهم الله على نياتهم ودعائهم بالنصر والتمكين والفتح والغنيمة في الدنيا، ولهم كذلك أحسن الثواب في الآخرة من الرضوان والجنات، ويكفيهم في ذلك حبُّ الله لهم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ١٤٩ ﴾

تتابعت آيات القرآن العظيم للتأكيد على شدة عداوة أهل الكفر لأهل الإيمان، وتنوعت في بيانها للتحذير من اتباع أمرهم، وطاعتهم فيما يقولون، وهذه واحدة منها.

ملة الكفر في الأرض بِشِقيها من المشركين والمنافقين، قديمًا وحديثًا تتربص بالإسلام وأهله على الدوام، وتسعى لفساد حال المؤمنين والإيقاع بهم، فطبيعة الباطل لا يهنأ، ما دام الحق وأهله يتنفسون، وينشرون خيرَهم في الأرض.

تؤكد الآية على ما يريده أهل الكتاب وغيرهم من ملل الكفر منا، وما يريده أهل النفاق منا، الذين تكاد تُجمع كلمتهم على نصب العداء لنا، والذين لا يرضيهم إلا أن يروا رِدة أهل الإيمان عن دينهم، وانقلابهم إلى طريق أهل الضلال، كما مر معنا في نفس السورة قولُ الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَـٰنِكُمۡ كَـٰفِرِينَ ١٠٠ ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

والمطلوب ممن صدقوا الله ورسوله، وساروا على طريق العلم والعمل: لا تطيعوهم فيما يأمرون، واحذروا من الدخول تحت حكمهم، وإن أظهروا لكم النصح والإرشاد إلى ما فيه صلاحكم، فإنكم إذا فعلتم ذلك عرَّضتم أنفسكم للردة عن دين الله، أو الولوج في كبائر الذنوب، وعرَّضتم أنفسكم لأن تكونوا عبيدًا لهم ويكونوا أسيادًا لكم، وعرَّضتم أنفسكم للخوف بعد الأمن، فاحذروا والزموا.

إن غاية أهل الكفر فيما يفعلون أن يردوكم عن دينكم، فتارة يَظْهر هذا منهم في صورة القوة الظالمة القائمة على القتل والتشريد، وتارة في صورة القوة الناعمة في عالم الأفكار والسياسة والإعلام، وفي كلا الحالين: عليكم بطاعة الله، والتمسك بدينه ووحيه، وإياكم وطاعتهم.

ومجيء الآيةِ في سياقِ الحديث عن غزوة أحد، يُعْلمنا بأنَّ ثمة توجيهًا خاصًّا بسبب ما حصل مع المسلمين من الهزيمة، وهو أنه رغم آلام الهزيمة، احذروا من إظهار ضعفكم أمام عدوكم من المشركين، ولا تتبعوا خطواتهم في إضلالكم وإرجاعكم إلى الكفر، ولا تطلبوا الأمان منهم وتتولوهم، فإنكم إن فعلتم ذلك، أرجعوكم إلى باطلهم، فخسرتم ولاية الله لكم ونصره وعونه، وكنتم ممن استحق نقمة الله وعذابه.

ومثل هذه المعاني، نحتاجها في صراعنا مع الباطل وأهله، فإن المعركة معهم صولات وجولات، وقد نُغلبُ في بعضها، فلا نيأس، ولا نستسلم، ولنأخذ العبر والمواعظ، لتكون أقدامنا أثْبتَ في مدافعتهم ومجاهدتهم.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

ما أجمل موقع هذه الآية لمن تدبرها، فإن التوجيه في الآية السابقة كان نهيًا عن طاعتهم واتباع أمرهم، وهذا يُفهَم منه عدم موالاتهم وإن كانوا أقوى منا عُدَّةً وعتادًا، لأنهم في حقيقتهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا لغيرهم، ولكن يبقى في النفس شيء بعد هذا التوجيه الرباني، من يكون مولانا وناصرُنا؟

الجواب هنا في هذا التوجيه النفيس: لا يَصْلحُ حالُنا، ولا يستقيم أمرنا، ولا نصل إلى عزتنا إلا إذا كان الله مولانا، أي: هو ناصرنا ومعيننا فلا نتوكل تمام التوكل إلا عليه، ولا نستعين في عمارة الأرض وحُسن الاستخلاف فيها إلا به، وهو الذي نوقن ونستحضر على الدوام أن النفع والضر، والموت والحياة، والنصر والتمكين بيده وحده لا شريك له، وهو خير من يدْفَع عنا كيد أهل الكفر وينصرنا عليهم، وهو الذي يُفْرِغُ علينا صبرًا ويثبتُ أقدامنا، ويؤتينا العزيمة والسداد في الرأي. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

ومن أعظم ما يستحضره من اتخذ ولاية الله تعالى عقيدة ومنهجًا، أن ولايته سبحانه لا تنقطع عن عبده قبل الموت، ولا تنقطع بعده، بخلاف ولاية غيره التي لا تكاد تستقر على حال في الدنيا، بل تنقطع بالموت على كل حال. قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

تسلية عجيبة للمؤمنين، وتطمين لهم بأن جنودَ الله معهم، وبشرىٰ لأهل التوحيد الحق والخالص، بأن الله سيجعل شِدَّة الخوف والفزع والرعب في قلوب أهل الكفر الذين يعادون المؤمنين.

هذا جزاؤهم في الدنيا؛ لأنهم اتخذوا من دونه أولياء فأشركوا، وهؤلاء الأولياء ما أنزل الله تعالىٰ بهم من سلطان، أي: لا دليل لهم ولا برهان من ربهم علىٰ ألوهيتهم، وعلىٰ استحقاق أن يكونوا شركاء، بل لا دليل لهم من العقل أو العلم أو الفطرة.

وسبحان الله كيف نجد هذا المعنىٰ موفورًا في قلوب غير المسلمين، فإنهم ما يزالون في اضطراب وشك، وضعف يقين بمعبوداتهم التي عبدوها من دون الله وتعلقوا بها.

وسبحان الله كيف ينزل الرعب بقلوب أعداء الملة إذا شاء الله، وإذا نظر في قلوب المؤمنين فوجدها كما يحب، وإذا تمت معاني اليقين والتوكل والثقة وحسن الظن كما يريد.

انظروا إلىٰ عظمة هذا الجندي الذي يجعله الله سيفًا مسلولًا علىٰ عدوه وعدو المؤمنين، ألا وهو سيف الخوف والرعب، وهذا الجندي هو الذي قصدته آيات غزوة الأحزاب في قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ [الأحزاب: ٢٦]، وقوله في حقِّ بني النضير من اليهود: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر:٢]، وقوله ﷺ عن غزوة تبوك، فيما أخرجه البخاري ومسلم، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ" .

والذي حصل في غزوة أحد، أن المشركين مع كثرتهم، انهزموا أولًا أمام من يقاتل عن عقيدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فكان النصر أولًا للمسلمين، ثم قويت عزيمتهم لما خالف الرماة أمر قائدهم، وتركوا مواقعهم.

ثم لمَّا انتصر المشركون، رجعوا مسرعين إلى مكة دون أن يغنموا الغنائم، أو يَسْبوا النساء، وقد ثبت بذلك أن الخوف أحاط بهم، مع أنهم منتصرون ظاهرًا. أخرج النسائي في السنن الكبرى، عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لَمَّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أُحُدٍ وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ، قَالُوا: لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمُوهُ، وَلَا الْكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ (يعني: لم تسبوا النساء)، وَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ، ارْجِعُوا، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَنَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ وَبِئْرَ أَبِي عِنَبَةَ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]" .

فالحديث يدل على أن المشركين هَمُّوا بِالْعَوْدِ والرجوع إِلَى الْمَدِينَةِ، لكن الله تعالى قذف في قلوبهم الرعب، خاصّةً بعد أن وصلهم خبر خروج الرسول ﷺ وأصحابه لِلَّحاق بهم حتى وصلوا إلى مكان اسمه حمراء الأسد، كما تذكر كتب السيرة، وكما سيأتي دليله معنا.

ثم إن الآية ذكرت في ختامها أن جزاءهم لا يقتصر على الخوف من المؤمنين في الدنيا، وإنما سيمتد إلى اليوم الآخر لتكون النارُ مثواهُم ومكانَهم ومستقرَّهم، فإنهم ظلموا أنفسهم بشركهم وعداوتهم لدين الله تعالى وحَمَلته.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

نصر الله المؤمنين أول الأمر في غزوة أحد فصدقهم وعده، وكانت الغلبة لهم أول النهار. قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أَيْ: تَقْتُلُونَهُمْ، ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أَيْ: بمشيئته وإرادته وعلمه، وبتسليطكم عليهم، وبتيسير أسباب ذلك.

ولكنَّ الرماة خالفوا أمر قائدهم عبدالله بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنهم، واستعجلوا النزول من على تلة الرماة لأخذ الغنائم، وقد وصف الله ما حصل معهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: لم تنجحوا في الثبات في مواقعكم، وضعف رأيكم وعملكم، ولم تقووا على حبس أنفسكم عن الغنيمة، ثم تنازعتم فيما بينكم حول النزول أو الانتظار، ولكن صنفًا منكم أصابه ما يصيب النفس البشرية، فعصى واستعجل ونزل.

﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ أي: وعصيتم نبيكم ﷺ الذي أمركم بالثبات وعدمِ النزول حتى يأذن لكم، وذلك بعد ما أراكم الله ما تحبون من النصر والغنائم، فكان نزولكم هذا وعصيانكم لقادتكم سببًا في هزيمتكم.

وهذا ينفعنا في فهم حقيقة ما جرى، فإن الذين كانوا يحمون ظهر المسلمين في قتالهم، ثم نزلوا من على تلة الرماة، إنما كان سبب فشلهم وتنازعهم وعصيانهم استعجالَهم أمر الغنائم، ولم يكن ذلك جُبنًا، أو نفاقًا وضعفًا في الإيمان، ولذلك عفا الله عنهم كما أخبرت الآية هنا.

أخرج البخاري عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَقِينَا المُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ الله، وَقَالَ: "لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا"، (وفي رواية عند أحمد: إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ)، فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا (أي: المشركون) حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ، قَدْ بَدَتْ خَلاخِلُهُنَّ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ (أي: بعض الرماة): الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ، فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لا تَبْرَحُوا، فَأَبَوْا، فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا (أي: من المسلمين)".

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ المقصود بهم من نزل من على التلة يريد الغنائم لما رأوا هزيمة المشركين أول الأمر.

وهذه الطبيعة البشرية عند أصحاب النبي ﷺ، أشار إليها عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيما أخرجه البخاري، قَالَ: "مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ يُرِيدُ الدُّنْيَا، حَتَّى نَزَلَتْ فِينَا يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ﴾".

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ﴾ وثمة صنف ثبتوا ولم يستعجلوا النزول، وأدركوا ببصيرتهم مخاطر نزولهم، فأطاعوا أيَّما طاعة، ولم تفعل رؤية الغنائم في قلوبهم شيئًا.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾ أي: ثم إنَّ الله تعالى قدَّرَ هزيمتكم، وأبعدكم عن النصر عليهم، ليتحقَّق البلاء والامتحانُ الذي يُعرف به الثابتون على إيمانهم، من غيرهم.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ﴾ بعد كل هذا، عاملكم ربكم بإحسانه ورحمته فغفر لكم صنيعكم وفعلتكم، وتجاوز عن نزولكم، وعن فراركم من أرض المعركة بعد ذلك، وحفظكم من عدوِّكم، وحفظ أهليكم، فلْتهدأْ نفوسكم، ولْتنتفعوا بما جرى معكم، ولتجعلوه عُدَّةً لكم في قادم أيَّامكم.

وهذا فيه دلالة على صدق إيمانهم، وأنَّ ما صدر منهم إنما كان زلَّةً نفعتهم، بل نفعت كل من جاء بعدهم من حَمَلة راية الجهاد في سبيله.

أخرج الْبُخَارِيُّ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مَوْهَب قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ حَجَّ الْبَيْتَ، فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقُعُودُ؟ قَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ. قَالَ: مَنِ الشَّيْخُ؟ قَالُوا: ابْنُ عُمَر. فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ شَيْءٍ فَحَدِّثْنِي. قَالَ: أَنْشُدُكَ بِحُرْمَةِ هَذَا الْبَيْتِ أَتَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَتَعْلَمُه تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فتعلم أَنَّهُ تَخَلَّفَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوان فَلَمْ يشهَدْها؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَبَّرَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَ لأخبرك ولأبيِّن لَكَ عَمَّا سَأَلْتَنِي عَنْهُ. أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ فَأَشْهَدُ أَنَّ الله عَفَا عَنْهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُه عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَ تحته بنتُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: "إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَه". وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ عثمانَ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: "هِذِهِ يَدُ عُثْمَان". فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: "هذه لعثمان. فقال له ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اذهب بها الآن معك".

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ومن فضله أنه عفا عمن نزل من على التلة، وعمَّن فرَّ من أرض المعركة.

ومن فضله أنه حفظ نبيه ﷺ وغالبَ أصحابه من القتل، بل حفظ دينه من الضياع بحفظ المؤمنين وتثبيتهم في ذلك الموطن الصعب.

ومن فضله أنه أعانَ أهل الإيمان الحقِّ من أصحاب محمدٍ ﷺ، وقدَّر لهم خروجهم إلى حمراء الأسد، ويسَّر لهم سرعة استجابتهم لأمر قائدهم ونبيهم محمدٍ ﷺ بالذهاب إلى هناك، مع أن الجراحاتِ كانت فيهم عظيمةً وكبيرةً، كما جاءت بذلك الآثار.

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَابَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾

لما التف خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم كان قائدًا من قادة المشركين في غزوة أحد على المسلمين، وذلك قبل إسلامه، أصاب جيشَ المسلمين حالةٌ من الذُّعرِ والخوف، وهربت طائفة منهم جهة سلسلة جبال أحد، وطائفة جهة المدينة، وتركوا نبينا ﷺ يقاتل، وكان حوله عددٌ من أصحابه يدفعون عنه ويقاتلون بثبات.

جاءت الآية لتصف هذا المشهد، وتحمل في ثناياها عتابًا لهم على ذلك، وتوجيهًا لهم وإرشادًا في قادم أيامهم، ثم بيانًا لكرم الله تعالى وفضله عليهم بأن عفا عنهم، مع كل ما حصل.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أَيْ: تذهبون وتركضون فِي الأرض وفي الجبل هاربين من أعدائكم.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ أَيْ: من شدَّة الدهْشِ والْخَوْفِ وَالرُّعْبِ الذي أصابكم، لم يلوِ منكم أحدٌ رأسه ويلتفت إلى إخوانه، وإلى من معه من جند المسلمين.

والآية هنا تذكر حال غالبهم، لأنَّ عددًا منهم ثبت في أرض القتال، وقاتل حتى أثخن في الأعداء، وأحدث فيهم جراحات، وقُتل في سبيل الله مقبلًا غير مدبر. أخرج البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ عَمَّهُ أَنَسَ بْنَ النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَابَ عَنْ بَدْرٍ فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ رَسُولِ الله ﷺ، لَئِنْ أَشْهدني الله مَعَ رَسُولِ الله ﷺ لَيَرَيَنّ الله مَا أُجدّ، فَلَقِيَ يومَ أُحُدٍ، فهُزم الناسُ، فَقَالَ: اللهُمّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ – يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ –، وأبرَأ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلقي سعدَ بْنَ مُعَاذ فَقَالَ: أينَ يَا سَعْدُ؟ إِنِّي أجدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ. فَمَضَى فَقُتِل، فَمَا عُرف حَتَّى عَرَفته أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ بِشَامَةٍ، وَبِهِ بِضْعٌ وثمانون من طَعْنة وضَرْبة ورَمْية بسَهْم.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي: فررتم والنبي ﷺ، يناديكم من خلفكم، ويطلب رجوعكم وثباتكم، إلا أنكم لم ترجعوا.

ومعلوم لديكم أن عددًا من المشركين حرصوا على قتل نبينا ﷺ في هذه الغزوة، وكان القتال حوله قد حمي، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: «جُرِحَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ (جزء من أسنان المقدمة)، وَهُشِمَتِ البَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ، تَغْسِلُ الدَّمَ وَعَلِيٌّ يُمْسِكُ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الدَّمَ لاَ يَزِيدُ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ حَصِيرًا فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْزَقَتْهُ فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ».

وقد كان النبي ﷺ، يجاهد بنفسه في هذه المعركة، وقتل أبيَّ بنَ خلف، الذي لحق نبينا ﷺ ليقتله. أخرج البخاري ومسلم عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِنَبِيِّهِ، يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَتِهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ الله فِي سَبِيلِ الله".

وقد أكرم الله تعالىٰ ثلة من الصحابة بالالتفاف حول نبيهم ﷺ، في هذا الموقف الصعب، وفي هذه الزلزلة العجيبة، فقد أخرج الْبُخَارِيُّ عَنْ قَيْس بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: "رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَّاءَ؛ وَقَىٰ بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ".

وأخرج البخاري: عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ أَبَوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَإِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ: "يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي".

وممن كان حول النبي ﷺ ولم يفارقه، أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد أخرج البخاري عَنِ البَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث ذِكْره لما جرىٰ يوم أحد، قال: وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاَءِ قُتِلُوا، فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءَ لَأَجَابُوا، فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللهِ، أَبْقَىٰ اللهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: " قُولُوا: اللهُ أَعْلَىٰ وَأَجَلُّ " قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا العُزَّىٰ وَلاَ عُزَّىٰ لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَىٰ لَكُمْ» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي (يعني: ستجدون في جثث المسلمين تمثيلًا وتشويهًا، وأنا لم أطلب ذلك، ولست أُنكره).

بل إن الله تعالىٰ، أكرم نبيه ﷺ من فوق سبع سماوات، وحفظه بملائكة تحرسه ممن أراد قتله، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ، عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ، يُقَاتِلَانِ عَنْهُ أَشَدَّ الْقِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قبلُ ولا بعدُ، يَعْنِي: جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ".

﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: كان من جزائكم الذي أصابكم في هذه المعركة، أن اجتمعت عليكم أسباب متعددة أصابتكم بغم شديد وكرب عظيم، وقلق في النفس، وضيق في الصدر لا يعلمه إلا الله، فلما انتصر العدو عليكم وكانت الهزيمة، أصابكم الغم، ولما أُشيع مقتل رسول الله ﷺ ورأيتم قتل إخوانكم وجراحاتهم، أصابكم غم آخر.

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ أي: أشغلكم وألهاكم بهذا الغم ولم يعجل لكم عقوبته، حتىٰ تؤمنوا بما قدَّره الله لكم وترضوا به، وتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم.

وهذا أمر ينفع كل من أراد النجاح في حياته بعد السقوط، فإنه يلزمه ألا يلتفت إلى الوراء كثيرًا إلا بقدر انتفاعه منه وأخذ العبر، وأن يعلم أن الغم الذي أحاط بقلبه لا ينبغي أن يحول بينه وبين معاودة الكرة والمحاولة، وأن يمضي في قراره واستعادته لعافيته مستحضرًا أن التوفيق بيد الله وحده، وأن الخير ينتظره وإن تعرض للبلاء.

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ لا يخفى على الله شيء من أعمالكم ولا من نياتكم، فلا تخادعوا أنفسكم ولا تعتذروا عنها، واعلموا أن الله سيجزيكم بفضله وجوده وكرمه على إنابتكم إليه ورجوعكم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾

ومن مِننِ الله تعالى ونعمه التي أكرم بها جيش المسلمين في غزوة أحد، أن أنزل عليهم النعاس الذي اطمأنت به نفوسهم وسكنت وحصل لها الأمن.

وقد أكرمهم الله تعالى بذلك، بعد أن أحاط بهم الغم والكرب على هزيمتهم ومقتل من قُتل منهم، وبعد أن ذهب الخوف من قلوبهم من هجوم أعداء الله على المدينة، فكان في إنزال النعاس عليهم إشارة إلى أن الله تعالى حفظَهم بحفظه، وقدَّر أن لا يصيبَهم أكثرُ من ذلك.

ثم إن هذا النعاس نفعهم في تجديد نشاطهم، واستعادة قواهم، وتسهيل لحاقهم بالمشركين حتى وصلوا إلى حمراء الأسد.

والنعاس أول النوم، وربما يكون معه نومٌ خفيف، وقد أصاب طائفةً منهم، وهم طائفة الصادقين المؤمنين، أَهْلِ الثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الحقِّ، الذين يوقنون بأن الله تعالى حافظٌ دينه ونبيه والمؤمنين.

وهذا النُّعاس أكرم الله به أهل بدر كذلك، كما دل عليه قول الله تعالىٰ: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال: ١١].

أخرج البخاري عَنْ أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاهُ النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّىٰ سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ فَآخُذُهُ".

وأخرج الترمذيُّ وغيره عَنْ أَبِي طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ، وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النُّعَاسِ" (أي: يميل ويتحرك تحت تُرسه الذي يدافع به عن نفسه)، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ﴾ هذه طائفة أهل النفاق، الذين أساؤوا الظن بالله كما هي عادتهم في مثل هذه المواطن. قال الله تعالىٰ عنهم حين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ في عمرة الحديبية: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢].

أما في غزوة أحد، فقد اهتمت هذه الطائفة واغتمت، وأصابها الجبن والجزع لِمَا سيُصيبُها بعد هذه الغزوة، ولم تهتم لشأنِ الإسلام وأهله.

وطريقة تفكيرهم القائمةُ علىٰ ضعف اليقين في قلوبهم ودخول الشك عليها، وسرعة وصول اليأس والقنوط إليها، أصابت نفوسهم بالهم والقلق الشديد، حتىٰ إن النعاس لم يغشاهم من شدة ما أصابهم من خوف.

وقد ذكر أهل السير أن عددًا منهم بدأ يتواصل مع أهل مكة ليؤمن نفسه.

أما ظنهم الذي ظنوه بالرب جل وعلا، فهو أنه لن ينصرهم ويحفظهم، ولن يعينهم علىٰ عدوهم، وهذا ظنٌّ باطلٌ، كظن أهل الجاهلية الذين لم يكونوا يعتقدون أن النفع والضر بيد الله وحده، بل كانوا يشركون معه في ذلك آلهتَهم.

وفي هذا دليل ظاهر علىٰ أن طائفة المنافقين لم يُخلصوا دينهم لله، وإن كان بعضهم في صفوف جيش المسلمين.

ومن تخذيلهم وإرجافهم بالمؤمنين، أنهم كانوا يقولون ليس لنا من أمر النصر شيء، ولم يُؤخذ برأينا، ولو كان الأمر لنا ما خرجنا ولا قاتلنا ولا أصابنا الذي أصابنا، كأنهم أيقنوا باستئصال المسلمين وقوتهم، وأن الإسلام قد انتهى.

وكلامهم هذا، يشيرون فيه إلى أن النبي ﷺ أخذ برأي من أراد قتال المشركين خارج المدينة لا داخلها، وأنه أخطأ بذلك هو ومن معه من أصحابه ممن أشار بذلك.

وهذا أمر نراه في زماننا مع الذين يسارعون في أهل الكفر، ويجعلون لهم يدًا عندهم، خوفًا من بأسهم إذا انتصروا علينا، فهم في شك وريبة ومرض دائم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد ﷺ لهؤلاء المنافقين: إن أمر النصر والتأييد والحفظ بيد الله وحده، أما رجاؤكم لأهل الكفر وخوفكم منهم، وخروجكم لقتالهم خارج المدينة أو عدمُه، فلن يقدم في عمركم شيئًا أو يؤخر. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ يُظْهرون كعادتهم خلاف ما يُبطنون، ويقولون فيما بينهم سِرًّا: لو أطاعنا محمد ومن معه ما هُزموا ولا قُتل منهم من قتل، بأبي هو وأمي ﷺ.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ قَدَرُ الله الذي قدَّره عليكم لا مناص منه ولا هروب، ولا يدفعه حرص حريص.

واعلموا أن الله تعالى قدَّر الموت على خلقه جميعًا، وإذا قضى سبحانه أن يكون بأرض ما، فستبرزون وتخرجون إليها، لتُقبضَ أرواحكم في مصارعكم ومَضَاجِعِكُم الَّتِي كتبها الله لكم.

الخوف من الموت هو أكثر ما يجعلنا نُحجم عن الجهاد في سبيل الله، وهو الذي يمنعنا من كثير من أنواع الإنكار على الظلمة وأعوانهم، وهو الذي يُضْعفنا عن نصرة إخواننا المستضعفين في بلائهم.

القرآن يسترسل في بناء العقيدة في القلوب لتحيا بها خير حياة، ولتنعم بالأمن والأمان بدلًا من الخوف والقلق.

الآيةُ تُذَكِّر الناس وتناديهم وتقول لهم: الموت حق، ولن ينجوَ منه أحد أو يفِرَّ أو يهربَ، ولن ينفع حَذَرٌ من قَدَرٍ، وإذا جاءت سكرة الموت جاءت بحق، والمرء له أجل مكتوب ومحتوم، جاهد أم لم يجاهد، وقف مع أهل الحق أم كان ممن ينصر الباطل، كان في بيته الصغير أم كان في بروج مشيدة، أي: قصور محصنة منيعة عالية. قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

والمطلوب: جاهد في سبيل الله ولا تجبن عن الاستجابة لأمر الله تعالىٰ، فَشِدَّةُ حرصك علىٰ الدنيا لن تطيلَ بقاءك فيها، وإنك أن تلقىٰ الله تعالىٰ علىٰ مراده خير لك من أن تلقاه مُدْبِرًا، ولِأهل الكفر والظلم والفسق ناصرًا.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ هذا من ثمرات ما حصل مع المسلمين في أحد، فقد ظهر في هذه الغزوة أهل الحق من أهل الباطل، وأهل الإيمان من أهل النفاق، وظهرت لأهل الإيمان تلك الأمراض التي كانت كامنة في صدور أهل النفاق كالشك والبغض للإسلام، بعد أن اختُبروا أيَّما اختبار.

كما ظهرت لهم بعض علامات ضعفهم، وما يغلب من المطامع علىٰ نفوس عدد منهم، ليعالجوها ويحذروها لأيامهم القادمة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وليُظْهر ما في قلوبكم من التوحيد والاتباع، وليُظهر صدقكم في ولائكم للمؤمنين وبراءتكم من المشركين.

ومن أهل العلم من قال: إن التمحيص كذلك كان لقلوب المؤمنين بأن طهَّرها من وساوس الشيطان، ومحَّصها مما قد يعتريها من صفات النقص للبشر، وأرَاها فَضْلَه وكرَمَه وجودَه، ليكونوا من أهل الثبات علىٰ الطريق، ولا يلتفتوا إلىٰ إرجاف أهل النفاق وتخذيلهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ والله سبحانه عالم بسرائركم، وما تخفونه في صدوركم من خير وشرٍّ، وإيمان وكُفْر، لا يخفىٰ عليه شيء من أموركم، وهو حافظها عليكم وسيحاسبكم عليها، فراقبوه واستقيموا خيرًا لكم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

عفا الله تعالىٰ عن أولئك الذين فرُّوا وهربوا وانهزموا بعد أن فاجأهم المشركون بالتفافهم عليهم، مع أنهم من المؤمنين المصدقين بهذا الدين، المُحبين له والباذلين.

وعفوُ الله تعالىٰ عن خطئهم هذا، فيه تأنيسٌ للمؤمنين، وإظهارٌ لفضلهم وصدقهم وإيمانهم، وهو إخبارٌ يُظهر عِظَمَ فضلِ الله تعالىٰ وكرمِه وجودِه، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.

وفيه دلالةٌ علىٰ أن فرارهم إنما كان زلَّةً من الشيطان، الذي سلطه الله عليهم ببعض ذنوبهم التي كان منها عِصْيَانُ أَمْرِ الرَّسُولِ، وَالتَّنَازُعُ، وَالتَّعْجِيلُ إِلَىٰ الْغَنِيمَةِ.

وهذا فيه إبطالٌ لما زعمه المنافقون، من كونِ خروجهم للقتال خارج المدينة، هو سبب ما حصل معهم.

وتأملوا أثر المعصية فيما يحصل مع أهل الإيمان من بلاء ، فلنبادر دومًا إلىٰ التوبة الصادقة، والإلحاح علىٰ الله تعالىٰ في الدعاء بالثبات والرحمة.

بل تأملوا أن الجزاء كان ببعض ما كسبوا لا بجميع ما كسبوا، وهكذا لطف الله بعباده، فإنه لو أخذهم بجميع ما كسبوا لتحقق فيهم قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ سبحانه، لا يعاجل بالعقوبة من عصاه، ويعاملهم بحلمه وكرمه وجوده ورحمته، ويتجاوز عنهم، ويغفر ذنوبهم إذا رجعوا إليه وصدقوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

نداءٌ لا يسارع للاستجابة إليه إلا أهلُ الإيمان الذين وُجه الخطابُ إليهم هنا، نداءٌ فيه توجيه نفيس يأمرهم فيه ربنا بألا يتشبهوا بأهل الكفر الذين تختلف نظرتهم إلىٰ الأمور من حولهم عن نظرة أهل الاعتقاد الحق.

أهل الكفر إذا ضرب أحد إخوانهم وأقاربهم وأحبابهم في الأرض، أي: إذا سافر للتجارة أو للرحلة وطلب العيش، أَوْ كَانُوا غُزًّى، أي: خرج للغزو والقتال، ثم مات في طريقه، تبدأ ألسنتهم في توجيه اللوم إليه عن طريق اعتقاد فاسد ملأَ قلوبهم، وهو أنه لو أطاعهم وبقي في ديارهم، ولم يسافر ولم يذهب للقتال، فلن يدركه الموت، وسيبقى بين أهله وأحبابه.

وقد مارس أهل النفاق هذا بين المؤمنين في غالب غزواتهم، وكانوا على الدوام يُخَذِّلون ويُرْجفون في المؤمنين، كما فعلوه في غزوة أحد. قال الله تعالى في ذكر هذه الخَصلة فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، وقال جل وعلا: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، وقال عَزَّ من قائل: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٢].

المنافقون إذا أصابت المؤمنين المجاهدين مصيبةٌ في جهادهم، كأن يُهزموا أو يُقتلوا، أو تصيبهم جراحات، أو يقعوا في الأسر فإنهم يفرحون لعدم شهود المعركة وتعريض أنفسهم للخطر.

والعجيب أنهم يعدُّون ذلك من نعم الله عليهم لأن طريقة حكمهم على منافع الأشياء تنطلق من الدنيا ومتعها فقط، أما الآخرة فهم في غفلة عنها، ومن غفلتهم في هذا المقام أنهم لم يستحضروا ثواب الجهاد وكرامة أهله عند الله، سواء هُزموا فصبروا، أم اسْتُشهدوا فأُكْرموا، أو انتصروا فغَنِموا، فالخير كل الخير في جهاد عدو الله ورسوله والمؤمنين. المنافقون كما قال أهل العلم: أعداء في صورة أولياء.

وفرح المنافقين لا يقتصر على أنهم سَلِموا في أنفسهم وأموالهم، ولكنه مُمْتدٌّ إلى الشماتة بالمسلمين لانتصار أهل الكفر عليهم. قال الله تعالى عنهم: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

وتعالوا لنعرضَ أنفسنا على هذه الآية ونتساءلَ عن حالنا نحن مع نصرة دين الله تعالى والدعوة إليه، والحرصِ على تواجدنا في الصفوف الأولى في كل ذلك، وتعالوا نتساءل عن حال صنف منا يتثاقل عن مدافعة الباطل وأهله لاعتبارات موهومة وخوفٍ استقر في قلبه، ودنيا أخذت عقله، مع أن هذا الصنف ربما يحب دينه ويعبد خالقه، ولكنه يراقب الحدث من بعيد ويلتزم الصمت حتى يرى النصر فيقبل، أو يرى خسارة مرحلة من مراحل الصراع فيفرح لأنه سَلِم، أو يلدغ إخوانه بلسانه، وليت شعري: متى تغضب لدينك وتنصره ما دمت ستقطف الثمار جاهزة، هذا لا يليق بمن امتلأ قلبه بالإيمان الحق.

أيها المؤمنون: لا تكونوا مثلهم، ولا تقولوا لمن قتل في سبيل الله: لو بقي ولم يخرج للقتال لكان حيًّا بيننا يفرح به أهله وأحبته، ولا تضعفوا عن الجهاد في سبيل الله، أو عن السفر لنشر الدين إذا مات رفيق لكم أو صاحب أو قريب.

يا أهل الإيمان: خذوا بالأسباب، وتتبعوا أمر الشرع، فإن وقع شيءٌ مع أحدنا أو مع غيرنا، سلَّمنا أمرنا للقدر، ورضينا بحكمه، وحمدناه عليه وثبتنا ومَضَيْنا.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ كلامهم هذا واعتقادهم لا ينتفعون منه بشيء، وإنما هو حسرة وحزن شديد في قلوبهم، زيادة على حسرةِ فقْدِهم من أحبُّوا.

فإذا تشبهتم بهم وقلدتموهم في كلامهم واعتقادهم، أصابكم مثل ما أصابهم من الحسرة والضعف عن القتال والقيام بما لزم.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ الله تعالى بِيَدِهِ الْخَلْقُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يُزَاد فِي عُمُر أَحَدٍ وَلَا يُنْقَص مِنْهُ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم، ولا من حالكم، فراقبوا أقوالكم وأفعالكم، وتعاملوا مع قدر الله وأمره كما أمركم.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

هذه الآية تُظهر طريقة تفكير أهل الإيمان الحق، وهي طريقةٌ تدل على ثباتِ العقيدة الطيبة في قلوبهم ورسوخها، فأهل الإيمان يتتبعون أمر الشرع، ويعلمون أن الخير كله فيه، وإن فقدوا أحب الناس إليهم.

نؤمن بأنه من قتل في سبيل الله لم يمت، بل هو حيٌّ عند ربه يُرْزق، وأن الموعد معه جنةٌ عرضها السماوات والأرض.

ونؤمن بأنه من مات على فراشه أو في سفره لم ينفعه بين يدي خالقه إلا أن تناله مغفرة الله وعفوه.

ومن جميل المواعظ التي تلامس قلوب المنيبين إلى ربهم، والتي جاءت بها الآية الكريمة، أنها أشارت إلى أكثر ما يَشغَل بال الذين عظَّموا ربهم، ورجوا رحمته وخافوا عذابه، ألا وهو طلب مغفرة الله لهم وستره عليهم، إنه أعظم سُؤْلٍ يرجونه في حياتهم، وهو بالنسبة إليهم خيرٌ مما يجمع أهل الدنيا لدنياهم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ثم من أركان عقيدتنا أن نؤمنَ بالحشرِ الذي سيكون إلى الله تعالى بعد موت الخلائق جميعًا، وهناك يحاسب الله الناس، وينظر فيما قدموا وأعدوا.

وفي تلك اللحظات نرى رِفعة الذين بذلوا أرواحهم من أجل الله تعالى، ونرى جزاء من ماتوا على أسوأ حال.

الآيتان السابقتان تريدان أن يَرْسخ في قلوبنا حبُّ الدار الآخرة، وتريدان أن نفقه عن الله كيف نفكر في حياتنا الدنيا ونعطيها حجمها الذي يستحق، وأن نستحضر على الدوام أن الموت والحياة بيد الله وحده.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

من رحمة الله تعالى بنبيِّه ﷺ أن ألَانَ قلبَه للمؤمنين الذين اتبعوه وأحبوه من أمته، فعاملهم بالرفق واللطف واللين، بل تلطَّفَ في معاملته مع أهل النفاق الذين كادوا له وللدِّين كثيرًا، مِنَّةٌ عظيمة من مِنَنِ الله تعالى عليه وعلينا.

هذه النعمة نعيش ظلالها في حياتنا كل يوم مع هديه ﷺ، نتفيَّأ طِيبَ كلامه وتوجيهه وخُلُقِه، ونتتبع خطاه لنحيا كرامًا سعداء. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨].

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظُّ هو الخشن الطباع، وصعب المراس والأخلاق. وغليظ القلب هو الذي في قلبه قسوة وجفاء.

تتكلم الآية عن عظم القلب الذي حمله نبينا ﷺ، وعظم جميع أقواله وأعماله، والتي كانت بعيدة عن غلظة القلب والكلام الذي لا يليق، وكانت بعيدة عن قساوة القلب والكره وحب الانتقام، وقد كان هذا من تمام نعمة الله عليه لتأتلفَ قلوب أصحابه عليه وتجتمعَ، ولئلا ينفضوا من حوله ويذهبوا ويتركوا دعوته ورسالته.

أخرج البخاري عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ الله ﷺ فِي التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: "أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ (يعني: حصنًا للعرب)، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ (لا يرفع صوته على الناس)، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ الله حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا".

ومناسبة ذِكر الآية هنا في سياق الحديث عن غزوة أحد، أنَّ نبينا ﷺ لم يكن فظًّا ولا غليظا مع من خالفوا أمره وتركوا مواقعهم التي أوصاهم بالبقاء فيها، ثم فروا من المشركين، ولا حتى مع المنافقين الذين أكثروا من التخذيل والإرجاف والسعي إلى إضعاف المؤمنين، أقول: ما أعظمها من رحمة قذفها الله في قلبه ليكونَ هديُه لمن بعده خيرَ هَدْيٍ، وتكونَ سعة صدره ماثلة لنا في كل حين.

وكأن الآية تنادي على كل من آتاه الله علمًا أو حكمة أو قوة، أو آتاه قيادة أو تأثيرًا، وتقول له: احرص على أن تجمع إلى هذه النعم سَعة الصدر، وجمال المعشر، وطيب اللسان، وإياك أن تفسد علمك وقيادتك بسوء خلقك، وكما قال أهل العلم: الناس لا تصبر على معاشرة صاحب الأخلاق المُنَفِّرة وإن كثرت فضائله.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ هذا من تمام رحمة الله بنا، أن قذف في قلب نبيه ﷺ حب أمته، ثم أرشده إلى أن يعفو عنهم إذا صدرت منهم إساءة، وأرشده إلى أن يدعو الله تعالى لهم بأن يغفر لهم ويتجاوز عن سيئاتهم، كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد: ١٩].

ثم أرشده إلى مشاورتهم في شؤون الأمة التي لم ينزل عليه فيها وَحْي، لتطيب قلوبهم بما يفعلون، وليكون ذلك أدعى لنشاطهم، ويكون تربية لهم للقيام على الأمر من بعده. قال الله تعالى في ذكر صفات أهل الإيمان من الأنصار وغيرهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

والأمر بمشاورتهم والتأكيد على ذلك فيه عون لهم على تجاوز صعوبة الهزيمة في أحد، خاصة أنه شاورهم ﷺ قبل الغزوة وأخذ بمشورتهم في الخروج لقتال جيش المشركين وعدم البقاء في المدينة، فكانت الهزيمة.

ومعلوم لديكم أن مشاورة القائد لجنوده في أمر سياسته وإدارته تطيب معها أنفسهم وتتآلف قلوبهم، ويجعلهم شركاء الرأي واتخاذ القرار، ويجعلهم أقرب للصواب واجتنابِ الميل والهوى، ويُحدث عندهم دافعية للعمل والبذل والتضحية، ويَحسن صبرهم إذا كانت هناك هزيمة أو سقوط.

ومن منافع مشاورتهم في الأمر أن يقتدي المؤمنون به في ذلك، ويستنوا بسنته، ويدركوا عظم مشاورة أهل الفهم والرأي والثقة، وينالوا معونة الله فإن يد الله مع الجماعة.

وقد كان نبينا ﷺ يحرص على مشاورة أصحابه في مواطن كثيرة، كما في غزوة بدر في الخروج للقتال، وفي محل إقامته في بدر، وفي الأسرى، وشاورهم في غزوة أحد للخروج إلى جيش المشركين أو استقبالهم في المدينة، وكذا في الأحزاب في مصالحتهم على جزء من ثمار المدينة، وكذا في حادثة الإفك، وغير ذلك.

وتمثل ﷺ كذلك أمر ربه بالعفو والصفح في مواقف كثيرة اعتنت بها كتب السير والأحاديث، فمن ذلك ما أخرجه البخاري عَنْ أَنسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: "كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ (منسوب إلى نجران) غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً (يعني: جذبه إليه وقرَّبه منه)، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ".

واستطرادًا في الحديث عن الشورى، أقول: اختلف العلماء في حكم مشاورة القائد والحاكم لمن حوله، فمنهم من أوجبها ومنهم من جعلها مندوبة ومستحبة لا واجبة، والندب هو قول الإمام الشافعي وغيره.

واعلموا أن الشورى تكون فيما أشكل من أمور الدين، وفيما أشكل كذلك في إدارة الدولة وشؤون الحياة.

ولا تكون فيما جاء فيه نص شرعي، لأن الشورى ضَرْب من الاجتهاد، ولا اجتهاد إذا جاء الحكم من الله.

وفي أيامنا: نرى كثيرًا من قوى الاستبداد بالرأي، واتخاذ بطانة السوء، لا يتخذون نبيهم ﷺ مثالًا في تقريب القوي الأمين، واستشارته فيما يحتاج إلى المشورة فيه، ولعلهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم أضعف من الاستعانة بأولي الفهم والعقل والصدق، ويعلمون أن اقترابهم فيه خطر عليهم.

واعلموا أن ثمة فروقًا متعددة بين الشورى وبين نظام الديمقراطية الذي جاءنا من غير بلاد الإسلام، والذي يقوم في أصوله على إقرار مبدأ الأغلبية، وعلى أن يكون حكم الشعب للشعب، ولو جاء حكم الشعب وحكم الأغلبية مخالفًا للقرآن والسنة والإجماع، ولا مانع في النظام الديمقراطي من مناقشة ثوابت الدين وقطعياته وأصوله.

ثم إن الصفات المطلوبة في أعضاء مجلس الشورى وفقًا للشريعة مختلفة عن الصفات التي يقر بها النظام الديمقراطي، ولذلك تجدون في مجالس الديمقراطية كثيرًا من الحمقى والمغفلين والفاسدين المفسدين.

وفي الشورى قد يأخذ الحاكم برأي القليل إذا قويت حجته وكانوا راسخين فيما قالوا، بخلاف الديمقراطية التي تقوم دومًا على رأي الأغلب.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بعد المشورة اعزم أمرك، وامض في قرارك، واشرع فيما تراه الأقرب إلى الصواب ولا تتأخر، واجعل توكلك واعتمادك في ذلك على الله، واستعن به فإنَّ قدَرَه كلَّه خير في المآل والعاقبة، وهو خيرٌ حافظًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وربنا يحب من تعلقت قلوبهم به وحده، عالمين ومعتقدين بأن النفع والضر والموت والحياة بيده لا بيد غيره سبحانه.

وصِدْقُ العبد في توكله على الله علامةٌ على حبه لخالقه وسيده ومولاه، ولذلك أحبه الله تعالى كما في ختام الآية.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

يا أهل أحد، لا تحزنوا على ما جرى معكم في هذه الغزوة، وردوا أمركم إلى من بيده النصر والخذلان، إلى من كتب عليكم ما جرى لحكم ومنافع لا تنسوها، وأعدوا دومًا أسباب نصر الله لكم، وتجنبوا أسباب سخطه وخذلانه، وتوكلوا عليه فإنه ناصركم ومعينكم. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

عقيدة لو فقهها أبناء الإسلام، وأعملوها في واقعهم، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولأجرى الله على أيديهم خيرًا كثيرًا لأمتهم ولجميع الأمم من حولهم.

لا تستمدوا نصركم على عدوكم من غير الله تعالى، ولا تظنوا أن ثمة أحدًا من خلقه ينفعكم بشيء لم يكتبه سبحانه لكم، ولو اجتمع كل أهل الأرض على ذلك، ولا تظنوا أن ثمة أحدًا يضركم بشيء لم يُقَدِّره عليكم، ولو اجتمع كل أهل الأرض على ذلك، فإن الأمر أولًا وآخرًا إليه سبحانه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦].

ولعلكم تجدون في زماننا من تعلق بأهل الكفر، وتوكل عليهم، وظن أنهم نافعوه، واغترَّ بهم وبطيب كلامهم ولسانهم المعسول، فلا هو نَصَر دين الله لينصره الله، ولا نفعه أعداؤه بشيء، ولكن هذا الصنف من أمتنا ما يلبث أن يعرف حقيقتهم وما تحمله قلوبهم عليه وعلى دينه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ولا تنسوا أن التوكل على الله لا يكون إلا مع الأخذ بالأسباب، ولا تنسوا أنه يحتاج إلى صبر ومصابرة، لأن المعوقات قد تشتد في زمن ما، وليس لها إلا عظيم التوكل على الملك جل جلاله. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦١﴾

الغُلول هو الأخذ من غنائم القتال، والتعجل في ذلك قبل قسمتها، وهو خيانة وسرقة من المال العام. أخرج أبو داود والترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ فِي قَطِيفَةٍ حَمْرَاءَ (أي: كساء ولباس)، فُقِدَتْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: لَعَلَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَهَا، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ".

تنفي الآية عن أنبياء الله تعالى الغدر والخيانة والخداع، وتنزههم عن ذلك وتبرئهم منه، فهذه خصال عصمهم الله تعالى منها، وما كان لهم أن يفعلوها.

ومحمد ﷺ لا يقسم مال الغنائم والفيء إلا كما أمره الله تعالى، وأوحى إليه فيه، فلا يأخذ ﷺ من الغنائم إلا ما أذن الله له به، ولا يعطي أقوامًا ويمنع آخرين إلا بالعدل والعلم.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

لا يجوز لأحد أن تمتد يده للمال العام، ولْيعلم أن فِعلته تُعد كبيرة من كبائر الذنوب، ولا ينفع صاحبها إلا أن يسارع في توبته، ويُرْجِع الحقَّ إلى أهله وأصحابه.

الآية فيها تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لكل من حدثته نفسه بالغُلول فَفَعل ذلك، فإن هذا من الخيانة للأمة في ضروري من ضروريات حياتها، وهو المال، وجماهير الفقهاء على أنَّ الغالَّ لاتقطع يدهُ، ولكنه يعاقب عقوبة تعزيرية ترجع لاجتهاد الحاكم أو القاضي، وذلك لأنه سرق مالًا له شبهة فيه.

أما يوم القيامة، فسيأتي من يفعل ذلك مفضوحًا بين العالمين في أرض المحشر، سيأتي حاملًا ما غلَّه وأخذه بدون حق، وسيُحاسب عليه أشدَّ الحساب، وسيأخذ جزاءه وافيًا كاملًا.

أخرج أحمد بإسناد حسن، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أَعْظَمُ الْغُلُولِ عِنْدَ الله ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ، تَجِدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارَيْنِ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي الدَّارِ، فَيَقْتَطِعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، إِذَا اقْتَطَعَهُ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".

وأخرج البخاري ومسلم عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ ظَلَمَ قَيْد شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طُوِّقَه يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ".

وأخرج البخاري ومسلم، واللفظ له، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: "لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ (يعني: سرق عبدًا من الغنيمة)، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ (أي: سرق ثيابا)، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ (سرق مالًا من ذهب أو فضة)، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ".

وأخرج أبو داود وأحمد عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ لَنَا عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِنْهُ مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ، فَهُوَ غُلٌّ، يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

وأخرج النسائي وأحمد عَنْ أَبِي رَافِعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا صَلَّى الْعَصْر رُبَّمَا ذَهَبَ إِلَى بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَيَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ حَتَّى يَنْحَدِرَ لِلْمَغْرِبِ، قَالَ: فَقَالَ أَبُو رَافِعٍ: فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ مُسْرِعًا إِلَى الْمَغْرِبِ إِذْ مَرَّ بِالْبَقِيعِ فَقَالَ: "أُفٍّ لَكَ، أُفٍّ لَكَ" ، مَرَّتَيْنِ، فَكَبُرَ فِي ذَرْعِي (يعني: ثقُل علي الأمر)، وَتَأَخَّرْتُ وَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُنِي، فَقَالَ: "مَا لَكَ؟ امْشِ" ، قَالَ: قُلْتُ: أَحْدَثْتُ حَدَثًا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: "وَمَا ذَاكَ؟" ، قُلْتُ: أَفَّفْتَ بِي، قَالَ: «لَا، وَلَكِنَّ هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ بَعَثْتُهُ سَاعِيًا عَلَى بَنِي فُلَانٍ، فَغَلَّ نَمِرَةً فَدُرِّعَ الْآنَ مِثْلَهَا مِنْ نَارٍ".

وأخرج مسلم عن عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ، أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فُلَانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ، فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا (أي: عباءة)" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ، أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ"، قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ.

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾

اتبع صنف من الناس رضوان الله، وتتبعوا أوامره ونواهيه وسارعوا في الاستجابة إليها، وصرفوا أنفسهم عن ذنوب محبَّبة إلى قلوبهم، وحملوا هذه الدعوة في قلوبهم وعلى أكتافهم، وعاهدوا الله على أن يكونوا من أهلها حتى الممات.

لا يستوي هذا الصنف مع أولئك الذي أسخطوا ربهم عليهم بسوء خصالهم، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وتساهلوا في أكل الحرام وأموال الناس، حتى كان مأواهم ومحلُّ إقامتهم ومصيرُهم جهنم، وساءت مصيرًا. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرَّعْد: ١٩].

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

أَهْلُ الْخَيْرِ دَرَجَاتٌ ومنازلُ مختلفةٌ عند الله في الجنات، منهم السابقون ومنهم أهلُ اليمين، ومنهم من يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، ومنهم من يحاسب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يناقَشُ الحساب ويعذب ثم يخرج بالشفاعة، ولذلك كانوا مُتَفَاوِتِين فِي مَنَازِلِهِمْ وَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ.

وكذا أهل النار، منهم من هو في الدَّرْك الأسفل من النار، ومنهم من توضَع تحته جمرة يغلي منها دماغه، ومنهم من يدخل النار بلا حساب، ومنهم من يحاسب ثم يكون من أهلها، ولذلك كانوا متفاوتين في دركات النار ومنازلها.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ والله يرىٰ أعمالهم ويسمع كلامهم في دار البلاء، وسيجزيهم علىٰ ذلك، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾

تسلية أخرىٰ لأصحاب رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد، بتذكيرهم بنعمة عظيمة عاشوها من قبل وما زالت الأمة تعيشها إلىٰ أيامنا، وهي نعمة إرسال حبيبنا وقرة أعيننا محمد ﷺ، إذ جعله الله رسولًا بشرًا من جِنْسِنا لنتمكن من مُخَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وفهم الكلام عنهُ، وَمُجَالَسَتِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ. قَالَ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الْفُرْقَانِ: ٢٠].

والله أرسل إليهم رسولًا يعرفون نسبه بالتمام، فَنَسَبُهُ من نسبهم، ويتكلم بلسانهم ولغتهم العربية، ليكون ذلك أسهل عليهم في فهم ما جاء به. قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: ٢].

إنَّ نعمة إرسال نبيِّ الرحمة والهدىٰ محمد ﷺ إلينا بهذه الصفات، هي من كرم الله تعالىٰ علىٰ سيّدِنا إبراهيمَ وإسماعيلَ عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ، اللذَيْنِ دعوا الله تعالىٰ لِذُرِّيَّتِهِمَا بأَنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا هذه صفاته فاستجاب لهما، كما جاء في قول الله تعالىٰ في حكاية دعائهما: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩].

تأملوا صفات من تحبونه وتقتدون به وتصلون عليه صباحكم ومساءكم:

﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ يقرأ عليهم ما يوحىٰ إليه من آيات القرآن العظيم، والتي حوت دلائل إعجاز ومخاطبة للعقل والروح والفطرة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ يُطَهِّرُهُم من الشّركِ والعقائد الفاسدة، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ويُعَلّمُهُم أعمالَ القُلُوبِ من إخلاصٍ وتَوَكُّلٍ ويَقِينٍ ونحوِ ذلك.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ويعلمهم الكتاب بما فيه من أحكام ومواعظ وتأويلات ومعانٍ، والكتاب هنا هو القرآن.

وكذا يعلِّمُهُم الْحِكْمَةَ، وَهِيَ السُّنَّةُ أو هي العِلْمُ بحقائِقِ الأمورِ والأشياءِ، وحُسْنُ النَّظَرِ في العَاقِبَةِ والمآلِ.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ وإن كانوا قبل هذا الرسول لفي جهالة عظيمة، وحَيْرة عن الهدىٰ، وكانوا لا يعرفون حقًّا، ولا يبطلون باطلًا.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

بيان لحقيقة ما جرىٰ مع جيش المسلمين في أحد، فإنَّ مصيبة هزيمتهم وقتل سبعين منهم، إنما كانت بسبب ما أقبل علىٰ فعله فريق منهم، من النزول من علىٰ تلة الرماة، ثم الفرار من المشركين، فلا تقولوا أيها المؤمنون: من أين جاءتنا الهزيمة ونحن مسلمون ونقاتل في سبيل الله ومع رسوله؟ ولماذا هذا القتل؟ فإنَّ الله تعالىٰ له سنن كونية لا تتبدل ولا تتغير، وقد يبتلي المؤمنين بتسليط الكافرين عليهم مدة من الزمن لغايات وحكم لا تخفىٰ علىٰ أفهامكم.

والمطلوب: اعلموا أن ما حصل معكم إنما جاء من عند أنفسكم، فارجعوا إليها وأصلحوها، وانصروا الله كما أمركم، ترون عجائب قدرة الله وعونَه وتأييدَه علىٰ الوجه الذي تحبون.

واذكروا أيها المؤمنون ما حصل معكم في بدر، وكيف أن الله مكَّنكم من أهل الكفر فأصبتم منهم مِثْلي ما أصابوا منكم في أحد، فقد قتلتم منهم سبعين في بدر، وأَسَرْتم سبعين آخرين، وكان فيمن قتلتم وأسرتم عددٌ من سادات المشركين وكبرائهم، هذا عدا الغنائم التي ظفرتم بها وقد كانت كثيرة، أما هم فقتلوا منكم في غزوة أحد سبعين ولم يأسروا أحدًا، ولم يغنموا شيئًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، سُبْحَانَهُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، ولا رادَّ لأمره، وهو قَدِيرٌ عَلَىٰ نَصْرِكُمْ وَعَلَىٰ خِذْلَانِكُمْ، فَلَمَّا عَصَيْتُمْ وَجَرَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمُ الْغَضَبَ قَدَّرَ الله لكم الخذلان.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾

كما أن الله تعالىٰ يُكرم عباده المؤمنين ويحفظهم وينصرهم، فإنه قد يبتليهم بالضراء والخوف والقتل، ليعلم سبحانه من الذي يتعبد الله تعالىٰ علىٰ جميع أحواله، ويرضىٰ بقدر الله أيًّا كان، ممن يعبده علىٰ حرفٍ وينقلب علىٰ وجهه ويرتد عند البلاء.

الله ربنا لا يعجزه أن يكتب النصر لكم دومًا في كل معاركم مع عدوكم، ولكنه ابتلاكم بالهزيمة والقتل والجراحات في غزوة أحد يوم التقىٰ جَمْعُ المسلمين مع عدوهم من المشركين، ليعلم منكم من قوي إيمانه مِمَّن ضَعُف، ولتدركوا ثمرة الثبات والتزام أمر القائد، وثمرة عدم التولي يوم الزحف، ولتُسلموا لقدر الله ولا تقفوا مع أحزانكم، ولتَظْهر خبايا النفوس عند المنافقين.

والدرس ليس لهم فقط، بل هو لكل من عاش في ظلال هذه الآيات، وأجال فِكره فيها.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۖ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾

تُظْهِرُ الآية الكريمة خذلان أهل النفاق لأهل الإيمان في أصعب اللحظات، وكيف أن من خصالهم أنهم يُرجفون في الأمة وينشرون الخوف، ويُحاولون إضعافها وهزيمة نفوس أبنائها.

ينسحب عبدالله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين في غزوة أحد بثلث الجيش، الجيش الذي قَوامه قُرابة ألف مقاتل، ولم يتبق لقتال جيش المشركين إلا الثلثين، ولكم أن تتأملوا صعوبة الموقف مع قدوم المشركين بجيش قارب ثلاثة آلاف مقاتل.

الآية تذكر أنَّ من حِكم ما قدَّره الله علىٰ المسلمين في هذه الغزوة، أن يظهر حال هؤلاء المنافقين، ويتعرف أهل الإيمان عليهم وعلىٰ حِيَلِهم، وانتبهوا إلىٰ أن المنافق يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وأنه يحتمي بالإسلام إذا كان خائفًا، فإذا تمكَّن من إسقاطه سارع إلىٰ ذلك.

تكاسل أهل النفاق عن نصرة الإسلام، وقعدوا عن جهاد عدو الله، ورجعوا إلى المدينة ولم يقاتلوا، وتخلفوا عن نصرة رسول الله ﷺ، فتبعَهم عددٌ من المؤمنين لتحريضهم على القتال، وثنْيِهم عن الرجوع والفرار، وقالوا لهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ أي: تعالَوا قاتلوا في سبيل نصرة الدين الذي أظهرتم دخولكم فيه، ﴿أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ أي: رابطوا معنا وكثِّروا سوادنا أمام أعدائنا، وادْفعوا عن ديننا وأرضنا وعرضنا كَيدَ المشركين وشرَّهم، ولا تخذلونا.

﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ زعموا أن حصول القتال أمر مظنون، وأن قريشًا لا تنوي القتال، وأنهم لا يريدون تضييع أوقاتهم، وأن الأمر سينتهي بدون قتال.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ حالهم هذا لا يُبشِّر بخير، وفعالهم تدل على أن قلوبهم لم يدخلها الإيمان وإن نطقت ألسنتهم به، وأنهم يبطنون الكفر، وكلامهم بأنهم لا يظنون قتال الأعداء للمؤمنين مع وضوح الأمر وبيانه، يدل على كذبهم فيما يدَّعون، وأنهم إنما أرادوا تفشيل المسلمين، فكانوا أقرب للكفر وأهله، وألصق بهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

نفاق الاعتقاد أمره خطير، وصاحبه يحمل قلبًا دخله الشك والرَّيْب. قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

وتأملوا التعبير القرآني إذْ وصف حقيقة حالهم يوم تخلفوا بأنهم أقرب للكفر وليسوا كُفَّارًا، وهذا المعنى يهمنا في التعامل معهم وإطلاق الأوصاف عليهم، فمن يفعل ذلك منهم لا نتعجل في تكفيره وإخراجه من الملة، ونقبل منه ظاهره ونعامله بِحَسْبه، كما كان ﷺ يعاملهم.

ولو أننا أطلقنا الأحكام في حق كل من فعل ذلك ممن ظاهره الإسلام، لتساهل الناس في تكفير المسلمين وإخراجهم من الملة، ولفُتح باب مفاسد على المجتمع المسلم يصعب أن تضبطه وتعلم نتائجه.

والمطلوب في تعاملنا مع من ظهر منه النفاق أن نتسلح بالإيمان ونسأل الله الثبات، وأن نكون سببًا في تثبيت من حولنا، وأن ننصح أهل النفاق ونجاهدهم بالكلمة والبيان وإظهار خصالهم من الكتاب والسنة ليحذرهم الناس.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هم موقنون بأن المشركين الذي جاؤوا بخيرة مقاتليهم، وجمعوا للنبي ﷺ وصحبه ما استطاعوا من قوة، سيقاتلون جيش المسلمين، وسيسعون لاستئصال هذا الدين من أرضه، لكنهم قالوا بألسنتهم خلاف ذلك، واعتذروا عن بقائهم مع المسلمين بأن أمر القتال بعيد ولا يستحق البقاء والرباط.

المنافقون يكذبون على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين دومًا، وهذه خَصلة معلومة منهم ومعهودة فيهم، ولا ينفكون عنها.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ والله أعلم بما يضمرون في أنفسهم للمؤمنين، وما يكتمونه ويسترونه من العداوة والكفر والكيد والتربص، وهو تعالى ذِكْره محيط بما أخفوه، مطلع عليه، ومحصيه عليهم، وسيهتك أستارهم في عاجل الدنيا ويفضحهم، وسيحاسبهم في يوم تُكشف فيه السرائر، ويُحصَّل فيه ما في الصدور، وسيُصْليهم بما كسبوا الدَّرْك الأسفل من النار في الآخرة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النساء: ١٤٥].

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

هذا كلامهم بعد انتهاء غزوة أحد، يَزيدون به آلام المسلمين، ويعملون على تثبيطهم وكسر عزائمهم، ويلبسون ثوب الناصح المشفق على من قُتل من جيش المسلمين، ويقولون: لو أن قرابتنا وأبناء عشيرتنا أطاعونا وسمعوا مشورتنا، وقعدوا عن القتال ولم يخرجوا له، لَمَا قُتلوا ولا فُقدوا، ولا فقدوا هم أحبتهم.

ولعلكم تستحضرون وأنتم تعيشون مع تفسير هذه الآية، بعض أبناء جلدتنا ممن يتكلمون بألسنتنا، كيف يرددون كلمات هؤلاء المنافقين، عندما يكتب الله تعالى الشهادة لبعض المجاهدين في سبيله، ممن اصطفاهم الله لقتال أعداء الأمة ممن احتلَّ أرضها واعتدى عليها.

ولعلكم تستحضرون كذلك كلام الذين سكتوا عن انتشار الظلم والفسق في أبناء الأمة، وكيف أنهم يظنون أنهم بسكوتهم قد سلموا من الأذية والتضييق والعقوبة، وترونهم يغمزون بالمصلحين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ممن أصابتهم الأذية بسبب دعوتهم، وترونهم يزعمون أنهم أهل حكمة بسكوتهم عن بيان الحرام وإنكاره ومجاهدة رؤوسه.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ليس صحيحًا أن قعود المرء عن الجهاد، سيدفع عنه الموت، ولم يُذكر في تاريخ الأمم منذ خلق الله الأرض، أن أحدًا لم يمت. قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

فكل نفس خلقها الله تعالىٰ ستموت، ولو علىٰ فراشها، وكم ممن أمسىٰ في عافية وأصبح من أهل الآخرة، والعاقل هو من صنع ميتته بنفسه ليلقىٰ الله تعالىٰ علىٰ خير حال، ولا يكون ذلك إلا بالإقبال علىٰ ما أمر الله به ولزوم طاعته. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

قل لهم يا محمد ﷺ: هل نفهم من كلامكم هذا أنكم لن تموتوا ؟! أم إنكم لبستم ثوب الناصح وقلتم ما قلتم من أجل أن تفتُّوا في عَضُدِ المجاهدين وتصدوهم عن العمل للدين ؟! فإن كانت الأولىٰ فادفعوا الموت عن أنفسكم، وهذا ما لا يستطيعونه، فلم تبق إلا الثانية، وهي أنهم قالوا كلمة أرادوا بها غير ظاهرها.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

أصاب جيشَ المسلمين يوم أحد حزنٌ شديد علىٰ مقتل سبعين منهم، وقد كان فيهم كبار الصحابة وأعز القرابة، فجاء هذا الخبر الرباني ليربط علىٰ القلوب، ويُعلمها بأن الذين قتلوا في سبيل الله انتقلوا إلىٰ حياة أحلىٰ وأرقىٰ وأجمل، وها هي أرواحهم تطير في جنة الله تعالىٰ بقرب ربها وفي حفظه وفيما أعده لها.

هنا تصحيح للمفاهيم، وتنوير للبصائر ينتفع منه كلُّ من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا وقائدًا، ولا يكادُ الصادقون مع الله يمرُّون بمثل هذه الآيات إلا وتزداد قلوبهم شوقًا لما يُرضي ربهم عنهم، ويزدادون فهمًا لحقيقة الطريق إلىٰ الله، وما ينتظرهم بعدها.

صحيح أن النفس غالية جدًّا علىٰ صاحبها، وتراه يحرص عليها صُبْحه ومساءه، وتراه يبذل لها ما يحفظها كما أمر الله، ولكن هذه النفس ملك لله أولًا وآخرًا، وقد نادىٰ علىٰ المؤمنين أن يبذلوها لأجل دينهم، ولأجل إخراج العالمين من الظلمات إلىٰ النور، ومن أجل حماية الأوطان والأعراض والأموال، ومن أجل أن تبقىٰ كلمة الله هي العليا، ووعدهم بما لا يخطر لهم علىٰ بال إذا استجابوا لندائه جل وعلا.

يا أهل الإيمان: لا تجبُنوا عن لقاء أعدائكم خشية أن تموتوا، ولا تظنوا أنَّ من قُتل في سبيل الله وهو مُقْبل في أرض الجهاد قد مات، وإن بدا لكم ذلك في ظاهر الأمر وفقًا لمقاييس الحياة الدنيا، لأنه في حقيقة الأمر شهيدٌ عند الله تعالىٰ، والله أعدَّ للشهداء حياةً طيبةً تخصهم في عالم البرزخ قبل قيام الساعة، فضْلًا عما ينتظرهم في الجنات من كرامات، حتىٰ إن الأحاديث الصحيحة أخبرت أن الشهيد يتمنىٰ لو يرجع إلىٰ الدنيا ليُقتل في سبيل الله مرات ومرات لما رآه ووجده عند ملك الملوك. أخرج البخاري ومسلم عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ الله خَيْرٌ، يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدَ لِمَا يَرَىٰ مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَىٰ".

الشهداء ماتت أجسادهم، ولكن أرواحهم تحيا وتسعد عندَ ربِّها، وتتلذذ وتتنعم في حياةٍ لا نشعرُ بها، ولا نعلمُ حقيقتَها. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

جاء في سبب نزول هذه الآية أن الشهداء الذين تقبلهم ربهم سألوا الله تعالىٰ أن يخبر أهل الدنيا عمَّا وجدوه من رب كريم، فأنزل الله هذه الآيات.

أخرج مُسْلِمٌ عن عَبْدِاللَّه بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سبب نزول هذه الآية، أن الله تبارك وتعالىٰ بعد أن تحيا أرواح الشهداء وتنتقل في الجنة، يَطَّلِعُ إِلَيْهِم اطِّلاعَةً فيقولُ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّىٰ نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا".

وعند أحمد وأبي داود بإسناد حسن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ الله سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ "، قَالَ: فَأَنْزَلَ الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ.

وأخرج الترمذي وابن ماجه واللفظ له، بإسناد حسن، عن جابرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه، قال: لَقِيَنِي رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ، أَلَا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ لِأَبِيكَ؟» قُلْتُ: بَلَىٰ، قَالَ: " مَا كَلَّمَ الله أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا (أي: مواجهة ومباشرة ليس بينهما حجاب ولا رسول) فَقَالَ: يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ

فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ، فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي، فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ [آل عمران: ١٦٩] الْآيَةَ كُلَّهَا".

ولقائل أن يقول: وكيف يكون الشهيد حيًّا عند الله وقد ذهب جسده وتحلل على الغالب ؟ وما الفرق بين حياة الشهيد بعد الموت وقبل قيام الساعة وبين حياة باقي أهل الإسلام والإيمان الذين لم يموتوا شهداء ؟

والجواب عن هذا يقع في مسائل، إليكموها:

١- مما جاء في كرامة الشهيد عند الله تعالى حديث أخرجه الترمذي وابن ماجه عن الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: "لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِن الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِن الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الْإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِن الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ".

ومن كرامته أنه لا يتألم إذا قُتل إلا الشيء اليسير، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ الْقَرْصَةِ».

٢- من أحكام الدنيا التي تتعلق بالشهيد أنه لا يُغسَّل عند جماهير أهل العلم، ولا يُكفن ولكن يُدفن في ثيابه، ولا يُصلى عليه عند المالكية والشافعية والحنابلة، بخلاف الحنفية الذين يرون وجوب الصلاة عليه.

٣- الشهيد الذي تنطبق عليه أحكام الشهادة في الدنيا وفضائلها في الآخرة، هو الشهيد الذي مات مقاتلًا في أرض المعركة مُقْبلًا غير مدبر، لتكون كلمة الله هي العليا. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا، فهو في سبيل الله".

وهناك صنف من الشهداء تنطبق عليه أحكام الدنيا فلا يُغسل ولا يصلى عليه، ولكنه في أحكام الآخرة عند الله لا يكون شهيدًا، وهذا صنف من الناس يُقاتل وتكون نيته للدنيا فقط، أو يقاتل ولكنه يسرق من الغنائم قبل توزيعها.

وهناك صنف لا تنطبق عليه أحكام الشهادة في الدنيا، فيُغسل ويصلى عليه كغيره، وله أجر الشهيد في الآخرة وإن كان أنقص ممن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وذلك كمن مات بالطاعون، أو مات غريقًا، أو بسبب الحرق، أو الهَدْم، أو المرأة التي ماتت تحمل ولدها في بطنها أو بسبب الولادة، أو من مات دفاعًا عن ماله أو عرضه، وغير ذلك. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ".

٤- يجعل الله تعالى روح الشهيد في جوف طير خضر، وهذه الطير هي البدن الذي ينعم به الشهيد قبل مجيء يوم القيامة الذي ترجع فيه الأرواح إلى أبدانها، ولا يكتمل النعيم إلا فيه.

أقول: يجعل الله روحه في هذا الطير لينتَقِلَ في الجَنَّةِ حيث شاءَ، ويَسْعَدَ بنعيمِها أكثرَ وأكثرَ، ويفرح برزق الجنة ولذائذها. أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، أنهم سألوا نبينا ﷺ عنها، فقال: "أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ".

٥- أخبرت النصوص الشرعية أن كل من مات على الإيمان سيأكل من ثمر الجنة في البرزخ وإن لم يكن شهيدًا، كما دل على ذلك ما أخرجَه مالكٌ وأحمدُ والنَّسَائيُّ وغيرُهُم، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: "إِنَّ نسمَةَ الْمُؤمن طَيْرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ الله فِي جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ".

والفرق بين حياة الشهداء وحياة غيرهم في البرزخ، أنّ أرواحَ الشّهداءِ في حواصلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تنتقلُ في رياضِ الجَنَّةِ حيث شاءتْ، بخلافِ المؤمنينَ الذين لم يكونُوا من الشّهداءِ، فإنّ أرواحَهُم في أجوافِ طَيْرٍ يَعْلَقُ ويأكُلُ من ثَمَرِ الجَنَّةِ، ولا ينتقلُ في أرجائِها، فكانت حياةُ الشهداءِ أكملَ وأَتَمَّ؛ تشريفًا لهم وتكريمًا.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

إخبار من الله عن السرور والسعادة التي تملأ قلوب الشهداء في سبيل الله، لِمَا يرَوْنه من الكرامة والنعيم المقيم عند الله، وحتى نستحضر هذا المشهد العظيم، تأملوا فرحتنا في الحياة الدنيا بنعم الله علينا كيف تكون، فما بالكم بتلك الفرحة التي تنتظر أولئك الذين صدقوا الله فصدقهم الله!

ومن أسباب استبشارهم وسرورهم، أنهم يذكرون إخوانهم المجاهدين الذين كانوا معهم في الدنيا، وما زالوا من أهلها ولم يُستشهدوا، فيطمئنون وتقرُّ أعينهم بما ينتظر رفقاءهم من أمْنٍ يحيط بهم بعد موتهم حتىٰ يدخلوا الجنة، وانتفاء الحزن عنهم علىٰ مفارقة الأهل والمال، كما حصل معهم بالتمام.

وهذه السعادة التي وجدوها وذكروا بسببها إخوانهم، إنما أحاطت بهم لأنهم أقبلوا علىٰ ربٍّ كريم، واستقبلتهم الملائكة وبشَّرتهم بما يؤمنهم فلم يخافوا، وكذلك لم يحزنوا علىٰ ما تركوا من خلفهم من الذرية والمال، وهكذا تمنَّوا وأرادوا لإخوانهم من بعدهم.

ومما يدلُّ علىٰ رضاهم بما هم فيه، ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ بِئْرِ مَعُونة السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ، الَّذِينَ قُتِلُوا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وقَنَتَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَىٰ الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ من قبائل رِعْلٍ ولِحْيَانَ وعُصَيَّةَ، يَدْعُو عَلَيْهِمْ ويَلْعَنهم، قَالَ أَنَسٌ: وَنَزَلَ فِيهِمْ قُرْآنٌ قَرَأْنَاهُ حَتَّىٰ نُسخ: "أَنْ بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنا أَنَّا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وأَرْضَانا".

صحيح أن الآية جاءت تخبرنا عن حالهم، ولكنها تحمل إغراء وحثًّا وترغيبًا لكل من قرأ الآيات وعلم دلالاتها ومعانيها، وكأنها تقول لنا نحن: هناك من سبق إلىٰ الدرجات العلا، وهناك من ينتظركم ليجتمع بكم ويهنأ برفقتكم، فلا تتخلفوا عن الطريق وإياكم أن تذهب بكم الدنيا ذات اليمين وذات الشمال.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

هم آمنوا وامتثلوا ما أراده الله منهم علىٰ أكمل حال، فكان وفاء الله تعالىٰ بما وعدهم به عظيمًا، فزادهم ذلك بشرىٰ إلىٰ بشراهم، ورأوا فضل الله عليهم يتتابع ولا ينقص ولا ينقطع، ورأوا نِعَمه تزداد وتتجدَّد، وكان فضل الله عظيمًا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا من أسباب استبشارهم كذلك، فإنهم استحضروا ما قدموه بسبب إيمانهم، وما أكرمهم به ربهم، فانشرحت صدورهم، وعلموا أن أعمالهم وأعمال إخوانهم من بعدهم لم ولن تذهب هباء منثورًا.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾

سياق قرآني ممتد في تسلية المسلمين في مصابهم يوم أحد، وبيانٌ من الله تعالىٰ لمواقف عاشها رسول الله ﷺ وأصحابه، أظهرت عزائمهم التي لا تلين أمام الصعوبات، وأظهرت استجابةً لأمر الله ورسوله في أحلك المواقف وأشدها عليهم.

الآية تذكر ما جرىٰ مع المسلمين بعد غزوة أحد، لما بلغ رسولَ الله ﷺ أن المشركين سيرجعون مرة أخرىٰ للمدينة لتحقيق مكاسب وغنائم، بعد أن ندموا علىٰ سرعة رجوعهم إلىٰ مكة، فنادىٰ ﷺ في المؤمنين الذين أصابهم القرح، أي: أثقلتهم الجراح وأثخنتهم وآلمتهم، وندبهم إلىٰ الخروج معه لتَتَبُّع هؤلاء المشركين وردعِهم عن قصدهم وتخويفِهم، فسارعوا للطاعة والامتثال، وخرجوا معه حتىٰ وصلوا مكانًا يسمىٰ "حمراء الأسد"، وأقاموا فيه أيامًا، فلما علم المشركون ذلك عدلوا عن رجوعهم للمدينة، واستمروا في طريقهم إلىٰ مكة.

وهنا لفتة نافعة لنا في طريق دعوتنا وجهادنا: لا تظنوا أنه طريق يسير وسهل، بل ستمر فيه علىٰ المخلصين لحظات عسيرة، تتطلب أن يُسارعوا في استفاقتهم وكَرَّتهم علىٰ الأعداء، وتتطلب مزيد صبر وجلَدٍ ومجاهدة.

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ ما أعظمها من بُشرىٰ لهم من خالقهم، هؤلاء هم خِيار المؤمنين، فقد أحسنوا بصدقهم مع الله ومسارعتهم في الاستجابة لأمره، ثم اتقوا ما يسخطه من النكول والفرار عن واجب المرحلة التي عاشوها، فكان أجرهم عظيمًا عند الله.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾

تَهمنا هذه الآية كثيرًا في التعامل مع المُعوِّقين من أبناء جلدتنا، الذين يبثون الخوف والرعب في قلوب المُصلحين والمرابطين والمدافعين، والذين يعملون علىٰ تهويل قوة الأعداء وعددهم وشدة بأسهم، ويتظاهرون بحرصهم علىٰ مصلحة الأمة.

هناك لحظات حاسمة وفارقة في دعوتنا وجهادنا، لا تقبل هؤلاء الدخلاء، وتتطلب ممن أنار الله بصيرتهم أن يحسنوا في توكلهم واعتمادهم علىٰ ربهم، وأن يتذكروا أن ناصرهم ومعينهم هو الله الذي بيده مقاليد الأمر، ونعم الناصر والمعين والحافظ.

أهل أُحُد وعلى رأسهم نبينا ﷺ، لما أرادوا أن يخرجوا إلى "حمراء الأسد"، جعل البعض يخوفهم من ذلك، ويطلب منهم البقاء لأن المشركين جمعوا حشودًا كثيرة للرجوع إلى المدينة، خوفوا جيش المسلمين بكثرة الأعداء وقوتهم، ولكن أهل الإيمان تختلف طريقة تفكيرهم عن غيرهم، فهم يعلمون أن الله معهم، وأن الاستعانة به والتوكل عليه يكفيهم في نصرهم على أعدائهم وصبرهم على قتالهم، مع أخذهم بما استطاعوا من أسباب.

ولذلك، لم يلتفت محمد ﷺ وأصحابه إلى ما يقوله هؤلاء، ولم تؤثر كلماتهم في عزيمتهم، بل زادهم إيمانًا ومضوا في طريق إعزاز دينهم وحفظه.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، عبارة تعني أن الله قادر على أن يكفيَني شرورهم، فإليه ألجأ وعليه أعتمد وإليه أفوض أمري، ونِعْم خالقي ومدبرُ أمري.

وهذه العبارة يُدرك المؤمنون قيمتها وحاجتهم إليها، فإن فيها اعتمادًا على الله تعالى وحده في استجلاب المنافع ودفع المضار، وفيها تبرؤٌ من الحول والقوة، ثم الثقة بالله جل وعلا، ثم الرضا بما قدره الله ويسره.

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

هذا فضل الله على من توكل عليه ولم يخش الناس، وهذا فضل الله على من ثبت على إيمانه ولم يضعف، وهذه نعمته على من سَلَّم أمره إليه ولم يرتض غير ذلك.

أكرم الله أهل أحد بانقلابهم ورجوعهم من "حمراء الأسد" سالمين من عدوهم، لم ينالهم مكروه ولا أذى، وقد حفظ الله عليهم دينهم وأموالهم وأرضهم، وقذف في قلوب عدوهم الرعب، فكفاهم شرَّهم وكيدَهم وما عزموا عليه.

قال بعض أهل العلم: أما "النعمة" فهي العافية، وأما "الفضل" فالتجارة، و"السُّوء" القتل الأذية.

ومما حصل بعد انتهاء غزوة أحد أن أبا سفيان قائد جيش المشركين، واعد نبينا ﷺ مرة أخرىٰ ليقاتله، وطلب منه أن يكون القتال في المكان الذي حصلت فيه غزوة بدر التي هُزموا فيها، فقبل النبي ﷺ، وخرج إليهم بعدها بعام ولكن قريشًا تخلفت ولم تأتِ.

أخرج النسائي في السنن الكبرىٰ، والبيهقي في دلائل النبوة، وغير واحد من أهل السِّيَر والتفسير، أنَّ أَبَا سُفْيَانَ (وكان قائدًا للمشركين)، قَالَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: مَوْعِدُكُمْ مَوْسِمُ بَدْرٍ حيثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا. فَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: "عَسَىٰ". فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ لموعده حَتَّىٰ نَزَلَ بَدْرًا، فَوَافَقُوا السُّوقَ فِيهَا وَابْتَاعُوا (يعني اشترىٰ الصحابة منها عددًا من السلع لحاجاتهم وحاجات أهليهم)، فَذَلِكَ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ قَالَ: وَهِيَ غَزْوَةُ بَدْرٍ الصُّغْرَىٰ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ استجابوا لأمر الله ورسوله، وخرجوا لتأديب عدوهم علىٰ جراحات أحاطت بهم، أرادوا أن يرضىٰ الله عنهم، وصدقوا في ذلك.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ وقد رضي الله عنهم وأرضاهم بما ذكرت الآيات هنا، فضلًا عما ينتظرهم غدًا بين يديه.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

ذكرنا من قبل أن الخوف جندي من جنود الله تعالىٰ يرسله علىٰ من عادىٰ أولياءه وحزبه، وأن الله تعالىٰ دفع به شرور قريش عن المسلمين.

تأتي الآية هنا لتقول لنا: كما أن الخوف جندي من جنود الله فهو حيلة من حِيَلِ الشَّيْطان يقذفها في قلوب الناس، ويتسلل عن طريقها ليصد المستجيبين له عن الجهاد والطاعة وبذل المعروف، فيستجيب له أولياؤه وأنصاره الذين عظَّمت قلوبُهم البشر أكثر من رب البشر، والذين خافوا الناس، وتعلقت قلوبهم بالدنيا، فكانوا صيدًا سهلًا لمن أقسم بعزة الله ليضلنهم.

وهذا ما أراد فِعله مع أصحاب محمد ﷺ، الذين جاءتهم طائفة من الناس ليُخَذِّلوهم عن الخروج لتتبع المشركين وردعهم، لكنهم لم يخافوا، وكانوا من المؤمنين الذين امتثلوا لتحذير الله لهم من الخوف منهم، وامتثلوا لتوجيه الله لهم بألا يرهبوا جمعهم، ولا يعطوهم أكبر من حجمهم، كما في الآية: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فأكرمهم الله تعالىٰ أيَّما إكرام.

ومثل هذه الآيات التي تحمل توجيهات متعلقة بعقيدة المسلم، نحتاجها كثيرًا في زماننا الذي عظمت فيه البلوى، وانصرف كثير من الناس عن معالم العقيدة النقية الصافية، وأخذتْهم الدنيا وحيل شياطين الإنس والجن ذات اليمين وذات الشمال، ولنتذكر دومًا أن الصدق في توكلنا على الله تعالى منجاة، وأن التعلق به وحده مدعاة لأن يكفينا شرور الآخرين. قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزُّمَر: ٣٦-٣٨].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ: لا تحزن من شدة عناد الكفار ومخالفتهم وشقاقهم، ولا تغتم من نفاق من زعموا الإسلام ممن حولك، ممن كادوا للدعوة وأهلها، ولا تهتم من مسارعتهم في نصرة الكفر والاهتمام به وبأهله، ولا تضعف أمام تَعَجُّلهم في إظهار ما يُظْهرون، فإن قدر الله تعالى فيهم ماضٍ ولن يعطلوه، ولن يضروا الله أو يُنقصوا من ملكه شيئًا، بل الضُّرُّ كله عليهم، وهو واقع بهم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هؤلاء كتب الله عليهم أن يُحرموا من فضله في الآخرة، ومن نصيبهم وحظهم من الجنة والثواب، وكتب عليهم أن يكونوا من أهل النار بما كسبت أيديهم، وبما مكروه في ليلهم ونهارهم بالدين وأهله وحملته.

هؤلاء سبق علم الله تعالى فيهم، ونفذت مشيئته وقدرته سبحانه، فأعدَّ لهم عذابًا عظيمًا.

ما أصعبها يوم يفقد الواحد منا هداية الله وحفظه له، فيتخبط خبط عشواء ويتيه عن طريق الاستقامة، ولا يكون ذلك إلا إذا استحكم الهوى، وامتلأ القلب بتعظيم الدنيا، وأشرك مع الله في المحبة والرغبة والرهبة.

وما أصعبها يوم يُبتلى أحدنا بولد أو زوج تارك للصلاة والصيام، ومُعْتد على حرمات الله، ومقتحم لأبواب الكبائر، مع أننا نبذل معه كل ما بوسعنا من أسباب الهداية والرشاد، ولكن قدَر الله فيه ماضٍ فلا حظَّ له في الآخرة إذا مات على الكفر، وهو في مشيئة الله إذا مات على الإسلام.

والمطلوب: احمدوا الله على نعمة الإسلام والإيمان والتقوى، واعلموا أن هذه علامة خير فيكم فالزموا، واعلموا أن الله أراد لكم خيرًا في آخرتكم فاثبُتوا، واجتهدوا في هداية أحبابكم وإخوانكم وقرابتكم، وسلوا الله من فضله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

هؤلاء اختاروا طريق أهل الكفر، ورضوا به، ونصروه، وكادوا للإسلام والقائمين عليه، فكان حقيقة أمرهم أنهم يحاربون الله ويغالبونه، والله غالب على أمره، وقد أفسد كيدهم وقضى أن يكون ضعيفًا.

تخبرنا الآية عن سبب سُخط الله عليهم وغضبه، وسبب ما أعده لهم من العذاب العظيم والأليم، وهو أنهم استبدلوا طريق أهل الشر بالصراط المستقيم، ورضوا بأن يتولوا الشياطين، فكان جزاؤهم عدلًا بما قدمت أيديهم.

وتؤكد لنا بأن كيدهم ضعيف، وأن مكرهم مردود عليهم، وأن الله محيط بهم، وأنهم أضعف مما نظنهم، فلا نخافهم في الدنيا ولا يشغلوننا كثيرًا، فالله حسيبهم في الدنيا، فضلًا عما ينتظرهم في الآخرة من عذاب مؤلم موجع مهين. قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

لا تغتروا بهزيمة المسلمين وَقَتْل من قُتِل منهم، وانتصار المشركين في أحد وفرحهم، ولا تعدُّوا ذلك علامة خير فيهم، بل إن سنن الله تعالى القَدَرية قد مضت في هذه الدنيا أن يعطي المسلم وغير المسلم، وألا يقطع عطاءه عن أحد، إلا أن عطاءه للذين يصرون على كفرهم وعنادهم، إنما هو استدراج لهم، لتقوم الحجة عليهم على أكمل وجه، كما قال الله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [القَلَم: ٤٤-٤٥].

وكذلك لا يغرنكم تقلب الذين كفروا في البلاد بما رزقهم الله من جمال ومال وذرية، بل

خذوا العبرة كما علمكم ربكم في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٥٥-٥٦]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٥٥].

وتأملوا كيف يَمُدُّ الله في أعمار الذين يكفرون به وبدينه، والذين يسومون أولياءه سوء العذاب، وتأملوا كيف يُمْلي لهم، أي: يمهلهم في الحياة ولا يهلكهم، وما ذاك إلا ليزدادوا إثمًا إلى آثامهم، ثم إذا أخذهم كان أخذه أليمًا شديدًا مُهينًا، وكان انتقامه منهم انتقام عزيز مقتدر.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٩﴾

كان المنافقون قبل غزوة أحدٍ مختلطين بأهل الإيمان، ولم يأت ما يميزهم ويكشف خبث طويَّتهم ونفوسهم، وشاء الله ألا يبقى الأمر على ما هو عليه من اختلاط المؤمن المخلص بالمنافق، فقدَّر سبحانه المحنة والبلاء لكل من نطق بكلمة الإيمان، ليَظهرَ من صدق، ويُفتضحَ من كذب، وليُعلمَ الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ، وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ.

المؤمنون الصادقون أظهروا صبرهم وجلدهم في خدمة دينهم وسعيهم لإرضاء ربهم، والمنافقون فرُّوا وفُضحت نواياهم، وفرحوا بنصر المشركين، وظهرت خيانتهم أتمَّ ظهور.

وما زال هذا التمايز موجودًا إلى أيامنا، فقد مرت أمتنا في زماننا بأحوال صعبة تشتَّت فيها شملها، وتنازعت وافترقت، وتسلط عليها عدوها من اليهود والصليبيين وغيرهم، وساموها ألوانًا من العذاب، وتمايز الناس مع هذه الأحداث، فمنهم من ثبت على إيمانه ودعوته، واستفرغ وسعه في بناء مشاريع تخدم الأمة وتعينها على نهضتها ورجوعها إلى قوتها ومكانتها، ومنهم من ترك الطريق وارتمى في أحضان أعدائها، وأعانهم على بلاد المسلمين، بعد أن شاكلهم في زِيِّهم وهيئاتهم وأعيادهم، وصار أداة لهم عرف ذلك أم لم يعرف.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: لولا هذه البلاءات والاختبارات، لما عرفتم المؤمن من المنافق، والصديق من العدو، والصالح من الفاسد، فالله لا يُطلعكم على جميع غيبه، ولكن يجعل لكم أمارات وعلامات تدركون بها ما يحيط بكم، وتعلمون بها أصحاب القلوب المريضة.

وربنا يصطفي من الناس من يشاء من الرسل فيطلعهم على شيءٍ من علمه، وقد يخبرهم ببعض أهل النفاق. قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦- ٢٧].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ هذا ما أرشدنا الله إليه لصلاح حالنا وفلاحنا، إيمان لله بصدق، وطاعة لله في جميع أحوالنا، وتصديق به وبرسله، وتوكل عليه وحده لا إله إلا هو.

بيان لما يريده الله تعالى من أهل الإيمان بما حصل معهم في أحد، وما ينتظرهم في قادم أيامهم، وما أعده الله لهم من الأجر الكبير الطيب الواسع.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾

يظن مُمسك ماله عن الزكاة وعن النفقات الواجبة أن ذلك خيرٌ له، وأن هذا مما يحفظ المال عليه ويجعله منتفعًا به على أفضل وجه وأتم حال، ولكن الآية هنا تُذَكِّره أنَّ المال مال الله، وهو الذي أنعم به عليه، فليعلم أن منعه لحق الله في المال لا يجلب إليه إلا المضرة في الآخرة، وقد يجلب إليه المضرة في الدنيا.

والآية هنا جاءت في معرض الحديث عن المنافقين، وهو ما يدل على أنهم كانوا يمسكون أموالهم عن الإنفاق في سبيل الله، وفي سبيل حفظ الدين ونصرته، وهو ما دل عليه كذلك قول الله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]، وقولُ الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [التوبة: ٧٩].

والآية ذكرت مضرة الآخرة، وأخبرت أن من بخل بعطائه، سيحيط ماله بعنقه في أرض المحشر حتى يكون كالطوق. أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ آتَاهُ الله مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا (ذَكَر الحَيَّة) أَقْرَعَ (يعني برأسه بياض لكثرة

سمه)، لَهُ زَبِيبَتَانِ (أي: نكتتان سوداوان فوق عينيه وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه، أو هما الزبدتان اللتان تكونان في شدقي الإنسان إذا غضب وتكلم كثيرًا) يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ "ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

وأخرج أحمد والنسائي وغيرهما عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا مِنْ رَجُلٍ لَهُ مَالٌ لَا يُؤَدِّي حَقَّ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ طَوْقًا فِي عُنُقِهِ، شُجَاعٌ أَقْرَعُ وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَتْبَعُهُ"، ثُمَّ قَرَأَ مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ الآيَةَ.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كل الأمور راجعة إلى الله، وسيرث سبحانه السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، والمال مال الله، وَمَا مِنْكم من أحد إِلَّا سَيَذْهَبُ وَيَتْرُكُ مَالَهُ، فلا تتأخروا عن نفع أنفسكم بالإنفاق والصدقة، فإن الدنيا وما فيها زائلة، وعند الله يكون الحساب.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والله عليم بنياتكم وأعمالكم، ولن يضيع منها شيء، وستحاسبون عليها؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فلا يلومنَّ صاحب الشر إلا نفسه.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

الخطاب الرباني في القرآن العظيم إما أن يلامس قلوبًا طيبة نقية مطمئنة بالإيمان، وإما أن يلامس قلوبًا مريضة، ونفوسًا خبيثة.

اليهود الذين كانوا في المدينة، لما سمعوا الآيات التي تدعو إلى الإنفاق والبذل والعطاء، والتي جاءت بصيغة الإقراض، كقول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٥]، وقول الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الحديد:١١]، جعلوا يغمزون ويلمزون كعادتهم، ولكن تجرأهم هذه المرة كان في حق الله تعالى وجنابه، فقد زعموا أن الله فقير، وأنه يستقرض من عباده، وقد قصدوا بذلك الطعن في دين الإسلام وفي النبوَّة، فجاءت الآية تتوعدهم، وتبين أن الله تعالى سمع مقالتهم هذه، وأنها مكتوبة عنده، وأن الله تعالى سيحاسبهم عليها غدًا يوم الدين، وسيُقال لهم غدًا على رؤوس الأشهاد تحقيرًا وتصغيرًا: ادخلوا أبواب جهنم، وكونوا وَقودًا لها، وذوقوا جزاء ما كنتم تقولون وتعملون.

والآية أشارت إلى أن ما فعلوه ليس جديدًا عليهم، فقد تجرأ أجدادهم من قبلُ، واعتدوا على أنبياء الله وقتلوا عددًا منهم، وها هم يتتبعون خطى من سبقوهم، وما زالوا يمضون في طريقهم، ويحملون لواء الإيذاء لله ورسوله ﷺ، ولذلك حمَّلتهم الآية جريرة ما فعله من سبقهم، وكان الخِطابُ عنهم.

قارنوا بين أثر الخطاب الرباني على نفوس اليهود، وبين أثره على نفوس أهل التقوى من أصحاب محمد ﷺ، الذين سمعوا ذات النداء، فتسابقوا في الخيرات، وبذلوا من نفائس أموالهم ابتغاءَ مرضاة من بيده خزائن السماوات والأرض. أخرجَ أحمدُ والترمِذِيُّ وغيرُهما، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران: ٩٢] وَ ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا رَسُولَ الله حَائِطِي (بستاني) الَّذِي بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا (يعني: أريد أن أتصدق به لله)، وَاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُسِرَّهَا لَمْ أُعْلِنْهَا. فَقَالَ ﷺ: "اجْعَلْهُ فِي فُقَرَاءِ أَهْلِكَ". وفي رواية: "اجْعَلْهُ فِي فُقَرَاءِ قَرَابَتِكَ". وعند البيهقي: قَالَ: فَجَعَلَهُ فِي حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ.

وإليكم ما أخرجه البزار وأبو يعلى بسند ضعيف، عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ الله يُرِيدُ مِنَّا الْقَرْضَ؟ قَالَ: "نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ". قَالَ: أَرِنَا يَدَكَ. قَالَ: فَنَاوَلَهُ يَدَهُ قَالَ: قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي حَائِطِي - وَحَائِطُهُ فِيهِ سِتُّ مِائَةِ نَخْلَةٍ - فَجَاءَ يَمْشِي حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ، وَأُمُّ الدَّحْدَاحِ فِيهَا وَعِيَالُهَا فَنَادَى: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ قَالَتْ: لَبَّيْكَ. فَقَالَ: اخْرُجِي فَقَدْ أَقْرَضْتُهُ رَبِّي".

وانتبهوا إلى أن خبث النفوس الذي تدنَّس به اليهود عند نظرهم في آيات الإقراض والإنفاق، موجودةٌ فكرتُه في كثير ممن يغمزون ويلمزون في زماننا في كثير من أحكام شريعة الله، ممن ينتسبون إلى الإسلام ومن غيرهم، ولعلكم لو تتبعتم كثيرًا من الحوارات التي تدور حول معالم شريعتنا لوجدتم ذلك في خطابهم، كحديثهم عن زواج النبي ﷺ بكثير من النساء، وحديثهم عن الحجاب وتعدد الزوجات والجهاد في سبيل الله، وغير ذلك.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

جزاؤكم هذا إنما كان بكفركم وصدكم عن سبيل الله، وقتلكم الأنبياء، واعتدائكم على الربِّ جل وعلا نكاية بالإسلام والمسلمين، فكان جزاءً عدْلًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ ﴾

كَذْبةٌ أخرىٰ مما اعتاده اليهود وألفوه، فقد زعموا أن الله تعالىٰ عهد إليهم في كتبهم بعلامة صِدْقِ أي نبي سيرسله الله تعالىٰ إليهم، وأنهم لا يؤمنون إلا برؤيتهم هذه العلامة، وهي نارٌ تنزل من السماء، وتأكل قربانًا يقدمه هذا النبي وتُحرقه، ليكون ذلك علامة علىٰ قبول الله منه، وعلىٰ أنه نبي، فيشهدون علىٰ ذلك ويؤمنون، وهذا القُربان قد يكون من الإبل أو البقر أو الغنم، أو قد يكون من غير الأنعام.

﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ حتىٰ نعلم أن طلبهم هذا وزعمهم، ضرب من ضروب العناد والمكابرة والتكذيب بدين الله، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، تأملوا كيف أخبر الله عنهم أنه قد جاءتهم رسل بالبينات والحجج والبراهين من قبل، بل جاءتهم بما زعموه في الآية السابقة وطلبوه، أي: بنار تأكل ما تقرب به نبيهم إلىٰ الله من الصدقة، ولكنهم مع كل ذلك جحدوا، ولم يتبعوا الحق، ولم ينقادوا للرسل ولم يؤمنوا بهم وبما جاؤوا به، بل عمدوا لقتلهم، فكانوا كاذبين فيما يقولون ويدَّعون.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤ ﴾

تسلية للنبي ﷺ، وفيها لمن تدبَّر تسليةٌ لجميع المؤمنين علىٰ ما يرَوْنه من جحود الجاحدين وكفرهم، وهذه التسلية تعطي صاحبها القوة والثبات في مواجهة أعداء الدعوة، وتبصِّره بحالهم وطرائقهم.

لا تحزن يا محمد ﷺ علىٰ ما تجده من تكذيب، ولا تهنوا أيها السائرون في طريق الأنبياء ولا تعجبوا، واتخِذوا من سبق من رسل الله أسوة في ذلك، فقد كُذِّبوا أشدَّ تكذيب فصبروا، مع أنهم جاؤوا بالحجج والبراهين، وجاؤوا بالزُّبُر، وهي الكتب التي جاء بها الأنبياء والرسل عمومًا، وجاؤوا كذلك بالكتاب المنير، وهو التوراة التي أنارت لهم طريق عبوديتهم، فحَرَّفوها وجحدوا كثيرًا مما فيها.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

موعظة بليغة في الآية الكريمة هنا، ينتفع بها أهل الإيمان والصلاح، المستحضرون على الدوام وقوفهم بين يدي الرب العظيم، والموقنون بالبعث والجنة والنار.

وفيها تذكرة خاصة لليهود الذين يكذبون على الله ورسله، ولسان حالهم أنهم لن يقفوا للحساب بين يدي الرب جل وعلا، وتذكرة للمنافقين الذين زعموا أنهم نجوا من الموت بقعودهم عن الجهاد ونصر المؤمنين في غزوة أحد وغيرها.

إخبار من الله تعالى بأن الموت قدر الله تعالى على جميع الأنفس، ولن يفلت منه صغير ولا كبير، ولا عظيم ولا حقير، ولا ذو سلطان وجاه ولا غيره.

والجن والإنس يموتون، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ عند جمهور أهل العلم، وَيَنْفَرِدُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ بِالدَّيْمُومَةِ وَالْبَقَاءِ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا مواعظ عدة لا تفوت من تأملها:

١- واظبوا على الأعمال الصالحة، واستعدوا للحظةِ مفارقة الروح للبدن، وأبشروا فإن الله تعالى لا يضيع عمل عامل منكم.

٢- لا تحزنوا على ما فاتكم كثيرًا، ولا تتأملوا البقاء والخلود على هذه الدنيا، فإن فارقكم أحب الناس إليكم ممن هو على طريق الاستقامة، فتذكروا أن الموت قدر الله على الخلائق، وأن الموعد الجنة.

٣- الموت مصيبة تحتاج منا أن نعد العدة للتعامل معها، بالصبر على من فقدنا، وحسن الدعاء له، وكثرة الصدقة عنه، وتتبع أوامر الشرع في الإحسان إليه بتغسيله وتكفينه ودفنه والصلاة عليه.

٤- لما مات رسول الله ﷺ، أحبُّ الخلق إلى أصحابه وأتباعه، أكرم الله الأمة بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فثبَّتها وكان سببًا في الربط على قلبها، فلنأخذ العبرة من ذلك، ولنكن كأبي بكر، رضي الله عن جميع الأصحاب.

٥- أكثروا من ذكر الموت، فإن ذكره يمنع من فعل المعاصي والإصرار عليها، ومعلوم لديكم أن اجتناب الذنوب سبب من أسباب السعادة والطمأنينة، فتأملوا.

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يبعث الله تعالى جميع الخلائق بعد موتها، وتقوم قيامتهم الكبرى بوقوفهم في أرض المحشر، وهناك يحاسب الله الخلائق بأعمالهم جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا، كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا، فيوفي كلًّا حسابه، وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

يا من كذّبتم بهذا الدين وعاديتم أهله، ويا من ظلمتم الناس بأكل حقوقهم والاعتداء على أعراضهم وأنفسهم، ويا من أفلتُّم من عقاب الدنيا لسلطانكم أو لخفاء أمركم: آمنوا وتحللوا من مظالمكم قبل أن يأتي يوم ستلقون فيه حسابكم، وليس ثمة ناصر أو معين.

ويا من شرح الله صدوركم لما يحب ويرضى، ويسر لكم طرائق الخير وفتحها لكم: اسألوا الله الثبات حتى الممات، واصبروا على فوات ما تحبون، فإن أجركم على الله.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ هذا هو الفوز الوحيد الذي لا تعقبه خسارة أبدًا، فإن فيه نجاة من النار، وفيه لقيا لجميع الأحبة في النعيم المقيم، وفيه اجتماع بالأنبياء والرسل والصديقين وأمهات المؤمنين والصالحين والصالحات في محل لا نسمع فيه لغوًا ولا تأثيمًا، وفيه النظر إلى وجه رب العزة جل جلاله، وفيه خلود فلا موت.

هنيئًا لمن عمل في الدنيا، وصبر على التكليف فيها، وجاهد نفسه، حتى أكرمه الله وزحزحه عن النار، أي: أبعده ونجاه منها، ثم أكرمه بالجنة التي لا بؤس فيها ولا شقاء.

أخرج الترمذي والنسائي في الكبرى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "يَقُولُ الله: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] وَفِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] وَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾".

وأخرج مسلم في بيان حقيقة الطريق نحو الزحزحة عن النار، عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، قالت: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: "إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ الله، وَحَمِدَ الله، وَهَلَّلَ الله، وَسَبَّحَ الله، وَاسْتَغْفَرَ الله، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ".

وأخرج مسلم عن عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رَسُولَ الله ﷺ قال: "إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا (أي: يَصِيرُ بَعْضُهَا رَقِيقًا أَيْ خَفِيفًا لِعِظَمِ مَا بَعْدَهُ)، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ" الحديث.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ بيان لحقيقة الدنيا التي حرَفت أهل الكفر وأهل الفسق عن الجادَّة، وأشغلت الأتباع والمتبوعين، وهي التي آثرها أكثر الناس على الدار الآخرة، وعملوا لها ليلهم ونهارهم، حتى ألهتهم عن تأمل دلائل الوحدانية والعظمة.

تخبرنا الآية أن حقيقة هذه الدنيا أنها متاع الغرور، أي: هي متاع يُتخذ للهو وللعب وللهزل، وسيُترك هذا المتاع في آخر الأمر وسيذهب.

وهي غرور، أي تغر أهلها وتخدعهم بظاهر جمالها ومتعها، ثم يعلمون حقيقة ما فيها من ملذات. قال الله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرَّعْد: ٢٦].

والمقصود: لا تقضوا حوائجكم فيها ومتعكم إلا بما أحل الله، واتخذوها دار ممر لا دار مقر، فإنها زائلة لا دوام لها، واجعلوا أعمالكم فيها وعمارتكم لها، وما تُعدونه فيها من قوة، اجعلوه في سبيل الله ولإرضائه ورفع كلمته، وإعزاز دينه.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

مما قدَّرَه ربُّنَا وكَتبَه على عبادِه أنْ يبتَلِيَهُم ويختبرَهُم ويمتَحِنَهُم؛ ليظهرَ الصّادقونَ منهم من القَانِطِين البَائِسينَ اليَائِسينَ، ولِيَعْلَمَ صَبْرَ العِبَادِ وثباتَهُم ورِضَاهُم عمّا كَتبَه الله لهم وعليهم.

ومن صعوبة هذا البلاء أنه سيكون فيما يحبه المرء ويتعلق به، سيكون في ماله بذهابه أو نقصانه، وكذا سيكون في نفسه ونفس من يحب من والدين وولد وزوج وغيرهم بتعرضهم للمرض أو الجراحات أو الموت. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وهذا البلاءُ لا يكادُ ينجُو منه أحدٌ، فقد جاءَ في الحديثِ الذي أخرجَه الترمذيُّ وابنُ مَاجَهْ وأحمدُ، من حديثِ رسولِ الله ﷺ قال: "أَشَدُّ النّاسِ بلاءً الأنبياءُ، ثمّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ على حَسْبِ دِينِهِ، فإنْ كانَ دينُه صُلبًا اشتدَّ بَلاؤُه، وإنْ كانَ في دِينِه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حَسْبِ دِينِه، فما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حتّى يترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خَطِيئةٌ".

وكذا عند الترمذيِّ وابنِ مَاجَهْ من حديثِ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: "إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ".

والمطلوب ممن أصابه البلاء أن يُظهر صبره وشكره أول حصول البلاء وبعده، وأن يستحضر أن هذا البلاء كفارة للخطايا ورِفْعة للدرجات، وأن لا يقول إلا خيرًا، وأن يعين من حوله في صبرهم، وأن يسأل الله الثبات على ذلك.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ﴾ وهذا من البلاء الذي نبَّه إليه القرآن، وأرشد إلى سبيل الثبات أمامه وعدمِ التأثر به.

الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، لن يهدأ لهم بال ما دام دينُنا بخير، وسنراهم يتتبعون كل حيلة ووسيلة لصرف الناس عنه وعدم التمكين له.

تأملوا كيف وصفت الآية حراكهم نحو المؤمنين، بأنهم سيحرصون على أذيتهم، وأن أذاهم سيكون كبيرًا وعظيمًا، فقد قالوا إن الله فقير، وزعموا لله الولد والصاحبة، وآذوا نبيه وحرصوا على قتله.

والآية وإن جاءت في سياق الحديث عن يهود المدينة، الذين كادوا لنبينا ﷺ وللمؤمنين من أول يوم هاجروا فيه إلى المدينة، وتفننوا في إيذائهم قاصدين القضاء على هذه الدعوة وهي في مهدها، أقول: مع أن الآية تَذْكر حالهم، إلا أن العبرة فيها بعمومها، فهي قاعدة متأصلة في الذين أوتوا الكتاب لا تكاد تنفك عنهم، ونراها بأم أعيننا في زماننا.

وهذا الأذى سيكون كذلك من الذين أشركوا، أي: ممن ليس لهم دين سماوي من كفار مكة، ومن عُباد النار والبقر وغيرهما.

والمقصود: فليعلم كل من دعا إلى الله وأمر بمعروف أو نهى عن منكر، أنه سيناله شيء من هذا الأذى، سواء كان الأذى في دينه أو ماله أو نفسه أو أهله.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ هذا مفتاح النصر عليهم حال ضعفنا وقُوَّتهم، نصبر على أذاهم ونتقي الله فيما نقول ونفعل، ونعد العدة لهم، حتى يأذن الله بالفرج من عنده، ولنعلم أن الصبر في هذه الحال يحتاج إلى عزيمة وجلَد وثبات.

وهذه القاعدة هي التي تَمَثَّلها نبينا ﷺ أول ما هاجر، فصبر وعفا، حتى تسلح بالقوة المطلوبة لردعهم عن إيذائهم للمؤمنين وفتنتهم، فأخرجهم من المدينة، وسيَّر جيوشه لتأديبهم وإظهار عزة المؤمنين.

المؤمنون الشاكرون لأنعم الله يصبرون في البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ، ويعلمون حقيقة طريقهم التي اختاروها لأنفسهم، والتي اصطفاهم الله لها، فكل مصيبة وأذيَّة تنالهم من أجل دينهم يكون فيها حلاوة ولذة لا يعرفها إلا من جربها، ومثلها لا يضيع عند الله، ولصاحبها كل الرحمات والكرامات.

أخرج البخاري عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن أبيه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَيه قَطِيفَة فَدَكِيَّة (أي: صنعت في فدك، وهي بلدة مشهورة على مرحلتين من المدينة)، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ يَعُودُ (يزور) سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، فَإِذَا فِي المَجْلِسِ أَخْلاَطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَاليَهُودِ وَالمُسْلِمِينَ، وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ (غبارها)، خَمَّرَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ

بِرِدَائِهِ (غطَّاهُ)، ثُمَّ قَالَ: لاَ تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الله، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا المَرْءُ إِنَّهُ لاَ أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا فَلاَ تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَاليَهُودُ، حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ (يتقاتلون)، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ؟ - يُرِيدُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ - قَالَ: كَذَا وَكَذَا"، قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ الله، اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ الله بِالحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، لَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ البُحَيْرَةِ (المدينة المنورة) عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالعِصَابَةِ (يعني: يكون مَلِكًا عليهم)، فَلَمَّا أَبَى الله ذَلِكَ بِالحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ الله شَرِقَ بِذَلِكَ (أصابته غُصَّة)، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ المُشْرِكِينَ، وَأَهْلِ الكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ الله، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الأَذَى، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ الآيَةَ، وَقَالَ الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩] إِلَى آخِرِ الآيَةِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ العَفْوَ مَا أَمَرَهُ الله بِهِ، حَتَّى أَذِنَ الله فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ الله ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ الله بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الإِسْلاَمِ فَأَسْلَمُوا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

كَتَمَ أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنّصارى دَلَائِلَ صِدْقِ دِينِ محمّدٍ ﷺ، وأَخْفَوْا صِفَاتِهِ وبِشَارَاتِ كُتُبِهِم به وبقرآنِه وبشريعته، مع أنّ الله تعالى أَخَذَ عليهِم المواثيقَ والعهود أنْ يَصْدُقُوا ولا يكْتُمُوا، وأن يبينوا للناس حقيقة الإيمان الذي لا يُقْبل غيره، ولكنهم أخلفوا العهد مع الله، وكتموا حقيقة ما عندَهم، ونبذوا أوامر الشرع وأعرضوا عنها، وأهملوها ولم يبالوا بها، وقدَّموا حظَّ النفس ومتعتها، وتلاعبت بهم الدنيا فكتموا العلم وحرفوه لأجل رشوةٍ نصروا بها الظلمة وأهل الأهواء، وجائزةٍ طلبوها من الْجَبَابِرَةِ، وعِوَضٍ خسيسٍ تمنَّوْه من أسيادهم، واستبدلوا ذلك برضا الله تعالى عنهم وإسعادِهم في الدارين، فبِئْست الصفقة صفقتهم.

توبخهم الآية على ذلك، وتذمُّهم على فعلتهم التي كانت علامة فسقهم وضلالهم، وتنذرهم بأس الله وعقوبته إن لم يؤمنوا ويتوبوا.

وقد جاءت آيات أخر تذكر استحقاقهم لعنةَ الله بطَرْدِهِمْ من رَحمتِهِ مع الإِذْلالِ والغَضَبِ عليهِم بسبب نقضهم عهد الله وميثاقه، وكذا استَحَقُّوْا لعنةَ اللّاعِنِينَ من الملائكةِ والإِنْسِ والجِنِّ بالدّعاءِ عليهِم بالشّقَاءِ والحِرْمَانِ من رحمةِ الله وجَنَّتِهِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

والآيةُ تعنِينَا كثيرًا نحنُ، معاشِرَ طَلَبَةِ العلمِ والمُبَلِّغِينَ عن الله من أهلِ التّوحيدِ والاستقامةِ، فقَدْ ماتَ ﷺ وتَرَكَنَا على المَحَجَّةِ البيضاء، تَرَكَ لَنا إِرْثَه من الكتابِ والسُّنَّة، فكان لزامًا علينا أن نكون صادقين في تبليغ دين محمد ﷺ وبيانه، وأن لا نكتم منه شيئًا، وكلُّ من كَتَمَ من العلماءِ وطَلَبَةِ العلمِ والدُّعَاةِ إلى الله على بصيرةٍ علمًا عن النّاسِ، ولَوَى أعناقَ نُصُوصِ الوَحْيِ، ولبَّسَ على النّاسِ دِينَهُم ابتغاءَ عَرَضٍ من عُرُوضِ الدّنيا؛ كان ممّن استَحَقَّ عقوبةَ اللَّعْنِ من الله ومن النّاسِ. أخرج أحمد وابنُ حبّان والحاكمُ، أن نبينا ﷺ قال: "من كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ الله يومَ القِيامَةِ بِلِجَامٍ من نارٍ".

كِتْمَانُنَا للعلمِ يعني إيقاعَ النّاسِ في الضّلالةِ والغِوَايَةِ، وهذا الصِّنْفُ من أهلِ الإِجْرَامِ لا يَلْعَنُهُم إلّا من عَلِمَ حَقِيقَةَ حَالِهِم، وغَضِبَ للهِ ولِدِينِه، وليس لشهوةٍ في نفسِه.

ولقائل أن يقول: كيف يطيب لمن آتاه الله كلامه، وأعطاه شيئًا من علمه أن يُهمل ما تعلمه، ويلقيه وراء ظهره، ويخرج بفتاوى باطلة، وعقائد فاسدة ؟

والجواب أنه قد يفعل ذلك خوفًا من القادة والحكام، أو ليرضي عامة الناس وجمهورهم، أو ليرضي أصحاب الغنى من أهل الأهواء، أو بسبب جهله وإن لبس ثوب العالم، أو أنه متعصب لمذهبه وشيخه فلا يرى غيرهما وإن كان حقًّا.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

اليهود لم يُقِرُّوا بسوء صنيعهم وكذبهم وتحريفهم، ولم ينكسوا رؤوسهم على دناءة خصالهم، ولكنهم أوهموا غيرهم أنهم حَفَظَةَ الشَّرِيعَةِ وَحُرَّاسُهَا، وأنهم أهل علم بتأويلها، وترقبوا مدح الناس لهم على ذلك وطلبوه.

أخرج البخاري ومسلم أن ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال في تفسير هذه الآية: "إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ، بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ"، ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كَذَلِكَ حَتَّى قَوْلِهِ: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾.

ذكرت الآية أنهم فرحوا بما أتوا، ولقائل أن يقول: وما الذي أتوه وفعلوه؟ والجواب أنهم ربما فرحوا بالعلم الذي كتموه عن نبينا ﷺ لما أخبروه بغيره، وأوهموه أنهم قالوا الصدق، كما في الحديث السابق، أو فرحوا بثباتهم على اليهودية، وعلى توحدهم واجتماع كلمتهم مع اختلاف طوائفهم على أن محمدًا ﷺ ليس نبيًّا.

والخصال الموجودة هنا في الآية لا تكاد تنفك عن أهل النفاق كذلك، فإنهم طلبوا بإظهارهم الإسلام وصلاتهم مع المسلمين المَحْمدة والذِّكْرَ بين المسلمين، وقصدوا أن يُحمدوا على صلاتهم وبعض أعمالهم مع أنهم يتخلفون عن رسول الله ﷺ في غالب قتاله وغزواته.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا"، فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ الآيَةَ.

والآية لا تقتصر على أهل الكتاب والمنافقين، بل هي نافعة بعمومها لصنف من الناس من أمتنا آتاه الله نعمًا، فبذلها وأنفقها لينال محمدة الناس ومدحهم.

والآية نافعة كذلك لمن قصد أن يحمده الآخرون ويشكروه على شيء ادَّعاه ولم يفعله، وربما يسرق إنجازات الآخرين ليُشْبع رغباته وحظوظ نفسه، وربما يفرح بذلك كأنه حقيقة، وما هو إلا فرحُ غرور ومرض، وما هو إلا فرحٌ باطل ومذموم.

وفي مثل هذا الصنف من الناس جاء ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي ضَرَّةً (زوجة أخرى لزوجي)، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي (يعني: تتظاهر أمام ضرتها بشدة عناية الزوج بها وبكثرة عطائه لتغيظها)؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ".

وأخرج مسلم عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "وَمَن ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ الله إِلَّا قِلَّةً" الحديث. قال الله تعالى في حق هؤلاء:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني ربما ينالهم في الدنيا مدح الناس، وينطلي تزويرهم على كثير منهم، ولكن دار الجزاء لهم بالمرصاد، ولن ينجو أحد منهم في الآخرة من سخط الله وعذابه الأليم والشديد، فضلًا عن عذاب الله لهم في الدنيا بالذلة والمهانة والطرد والشتات.

ولا يفوتني أن أبين في معرض الحديث عن المدح على أعمال نعملها، أنَّ ثمة صنفًا من أبناء الدين والدعوة يسارعون في الخيرات والطاعات، وينفعون غيرهم، ويُجري الله على أيديهم خيرًا كبيرًا وكثيرًا، ثم يجدون مدح الناس لهم وثناءهم عليهم، فليستبشروا وليعلموا أن هذا المدح علامة خير لهم، وأنه مقدمة بين يدي جنة عرضها السماوات والأرض، تتزين لهم كل يوم، هم صدقوا الله فكتب لهم القبول.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: "تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ". وما أجمل وصف الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

لا يليق بالعبد أن يقصد غير وجه الله تعالى فيما يقول ويعمل، ولا يحسُن بمن أدرك عظمة الرب أن يتشبَّع ويطلب ثناء الآخرين بما لم يُعط وبما لم يفعل وبما ليس فيه، وأن يظن أن ما كتمه سيخفى على الله ولن يحاسبه عليه، فإن الله تعالى هو مالك السماوات الأرض وما فيهما وما بينهما، وقَدَره ومشيئته نافذة في جميع خلقه، ولا يعجزه شيء، فَعَظِّموه وحده، وخافوه وحده، واحذروه.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

دعوة من دعوات القرآن التي أطلقها في كثير من آياته، إلى أولئك الذين تلاعبوا بدينهم، وجعلتهم يتجرؤون على كتبهم فيحرفون ويكتمون، وإلى الذين ألهتهم الدنيا عن معرفة خالقهم وأداء حق العبودية له، وإلى الذين تاجروا بدينهم واتخذوه غرضًا لتحصيل متاع الدنيا وزينتها.

وهذه الدعوة تحمل موعظة عجيبة لمن يقرؤها ويعيش معها، فإن فيها انكسارًا بين يدي العظيم يظهر في دعاء أولي الألباب كما سيأتي.

وفي السياق القرآني بيانٌ لحال أهل الإيمان، وذكرٌ لصفاتهم التي نالوا بها حب الله تعالى لهم وحفظه وتوفيقه، وتفصيلٌ لما يشغلهم ويشغل بالهم من حرص على نيل رحمة الله ومغفرته ورضوانه.

أخرج ابن حبان أن بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء نبينا ﷺ يُؤْذنه بالصلاة، فرآه يبكي ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ الله لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ : "أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الْآيَةَ كُلَّهَا.

وهذه الآية وما بعدها من الآيات كان يقرؤها ﷺ إذا أفاق من نومه لقيام الليل، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم عن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ نبيّ الله ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَامَ نَبِيُّ الله ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَخَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ في آلِ عِمْرَانَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فَتَسَوَّكَ فتوَضَّأَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى ثُمَّ اضْطَجَعَ، ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ رَجَعَ فَتَسَوَّكَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى".

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سياقٌ قرآنيٌّ يستطردُ في بيانِ عَظَمَةِ الله وحِكْمَتِهِ وقُوَّتِهِ ووَحْدَانِيَّتِهِ في التّصرُّفِ، وفيه ما يفتح آفاق التّفكيرِ لأصحابِ العُقولِ السّليمةِ، فإنّها إنْ تَجَرَّدَتْ عَلِمَتْ أنّ الله حقٌّ، فاهْتَدَتْ وأَسْلَمَتْ دِينَهَا لله، فانْتَفَعَتْ بعَقْلِهَا أَيَّمَا انتفاعٍ كما أشارَ خِتَامُ الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الله ربُّنَا ورَبُّ النّاسِ خَلَقَ السّمواتِ وَالْأَرْضَ خَلْقًا يَدُلُّ على حِكْمَتِهِ وقُدْرَتِهِ ووَحْدَانِيَّتِهِ، كلُّ شيءٍ فيهِمَا يَدُلُّ على جَلَالِ الله وعَظَمَتِهِ، فضاءٌ عظيمٌ متسع ومرتفع فوْقَنَا، تَسْبَحُ فيهِ الكواكبُ والنُّجُومُ والشُّمُوسُ والأقمارُ بنظامٍ مُحْكَمٍ دَقيقٍ لا تجدُ فيه خَلَلًا. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وأرضٌ مبسوطةٌ تحتَنَا، تكادُ تتكَلَّمُ فيها الجبالُ والأَنْهَارُ والبِحَارُ والأشجارُ والحيواناتُ والمعادن والمنافع بعجيبِ تكوينِهَا وصُنْعِهَا. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧-٨].

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يَطُولُ اللَّيلُ ويَقْصُرُ النّهارُ، ويَقْصُرُ اللَّيْلُ ويَطُولُ النّهارُ، أو يعتدِلان، ويَجِيءُ اللَّيلُ ثمّ يَذْهَبُ وَيَخْلُفُهُ النّهارُ وَيَعْقُبُهُ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ لَحْظَةً، ولِلَّيْلِ والظّلام منافعُه، وللنَّهارِ والضّياءِ كذلك. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [الْحَجِّ: ٦١]، وقال سبحانه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وحتّىٰ نُدْرِكَ قِيمَةَ هذه الآيةِ وهذه النِّعْمَةِ، وكيفَ أنّها تقودُ ذَوِي النُّهَىٰ إلىٰ التّوحيدِ الحقِّ، تَخَيَّلُوا لو كانت حياتُنَا كُلُّهَا لَيْلًا، أو كُلُّهَا نهارًا. قال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[القَصَص: ٧١-٧٢].

﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أصحاب الْعُقُولِ التي صَدَقت في تأملها هي التي تنتفع بآيات الله المبثوثة والكثيرة فيما خلق، أمّا أهلُ الهَوَىٰ والزَّيْغ، وأصحابُ النُّفُوسِ الخبيثةِ والمريضةِ، فإنّهم عَطَّلُوا عُقُولَهُم وسَلَّمُوهَا لآبائِهِم وقادتهم الصَّادِّينَ عن دينِ الحقِّ، سَلَّمُوا عُقُولَهم لمعبوداتٍ لا تملكُ لهم شيئًا، فعَبَدُوا الأصنامَ والكواكبَ والنّارَ والبَشَرَ، بل منهم الذي أنكرَ وجودَ الرَّبِّ أصالةً، وأمثالُهُم حقًّا لا يعقِلُون وليسوا من أولي الألباب. قَالَ الله تَعَالَىٰ عن هؤلاء: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يُوسُف: ١٠٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

هؤلاء هم أولوا الألباب الذين لا ينقطعون في حال من أحوالهم عن ذكر الله، يذكرونه صباحهم ومساءهم، وفي الصلوات وأعقابها، وعند دخول المسجد، وعند النوم، وعند الانتباه منه، وعند الفزع فيه، وعند تناول الطعام وبعده، وعند ركوب الدابَّة، وعند السفر، وعند المصيبة، وعند الهمِّ والحزن، قائمين وقاعدين ومستلقين، وغير ذلك من أحوال المسلم وأوقاته المختلفة.

والآية فيها إشارة إلى ما يلزم الذاكرين لله والذاكرات لينتفعوا بذكرهم، وهو أن يحرصوا على كثرة الذكر وأن يعيشوه في حياتهم. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]، وقال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنّه قال: "سبق المُفرِّدون، قالوا: وما المُفرِّدون يا رسول الله ؟ قال: الذّاكرون الله كثيرًا والذّاكرات". (والمفردون أي: المتفردون والمعتزلون عن الناس وعن لهوهم، فكأنه أفرد نفسه بالتبتل والتعبد إلى الله تعالى. ولفظة سبقوا، أي: سبقوا بالدرجات العلى).

وقد وصف الله تعالى المنافقين في كتابه بأنهم قليلو الذكر لله تعالى وغافلون عنه، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ويتأملون عظم هذا الخلق، فيستدلون بذلك على قدرة الخالق وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وقد انتفعوا بتفكرهم وعلموا أن الله حق، وأنهم موقوفون بين يديه، وأنه مَا خَلَقَ هَذَا الْخَلْقَ عَبَثًا ولا لعبًا، وإنما خلقه بالحق ليجزي الذين أساؤوا بِمَا عَمِلُوا، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى.

لا يملك من تأمل شيئًا من عظمة ما حوله، إلا أن يسبح بحمد الله وينزهه عن العبث واللعب، ويعلم أن وراء هذا الكون ثوابًا وعقابًا، كما هو حال أولي الألباب هنا، وذلك بخلاف أهل الكفر الذين ظنوا بالله ظن السوء، وزعموا ما لا يليق بالله تعالى، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧] .

ثم تأملوا جمال ما خُتمت به الآية هنا، وكيف انطلقت ألسنة المؤمنين بسؤال من عظموه بقلوبهم وجوارحهم أن يجيرهم من عذاب النار بحوله وقوته.

أخرج أحمد وابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا اسْتَجَارَ عَبْدٌ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مِرَارٍ إِلَّا قَالَتِ النَّارُ: اللهُمَّ أَجِرْهُ مِنِّي، وَلَا يَسْأَلُ الْجَنَّةَ إِلَّا قَالَتِ الْجَنَّةُ: اللهُمَّ أَدْخِلْهُ إِيَّايَ".

والدعاء بالنجاة من النار كان شغل نبينا ﷺ الشاغل، وكان يكثر منه في صلاته، كما دل على ذلك ما أخرجه أحمد وابن ماجه وأبو داود وغيرهم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لِرَجُلٍ «مَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: أَتَشَهَّدُ، ثُمَّ أَسْأَلُ الله الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ النَّارِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ، وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ».

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾

أولو الألباب يعلمون أن النار دار الهوان والذل والقهر والخسران المبين مما لا تطيقه الأنفس، وأنه لن يفلح أهلها أبدًا، وأن خزيهم سيكون على الملأ والأشهاد، وأنه لن يكون لهم مجير ولا ناصر، ولذلك كانت دعوة أولي الألباب بالنجاة من النار صادرةً ونابعةً من قلب عَلِمَ وأيقن، فكانت مستجابة مقبولة.

إن الناظر في صفات أهل النار وأحوالهم في الكتاب والسنة يعلم تمام العلم عظم الخزي الذي ينالهم بدخولهم إلى النار، سواء كانوا من الخالدين فيها، أم ممن يُعذبون ثم يخرجون بالشفاعات، ولكم أن تستحضروا في هذا المقام كيف يكون شرابهم وطعامهم ولباسهم، وكيف توصد عليهم أبواب جهنم ولا يجيب استغاثاتهم ولا نداءهم أحد، وكيف تتبدل جلودهم كلما احترقت، وكيف تُغلَّظ أجسامهم، وكيف تكون النار في حرارتها وسعتها، وغير ذلك مما نسأل الله تعالى العافية منه.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾

الذي نادانا ودعانا للإيمان هو نبي الرحمة محمد ﷺ، سمعه أصحابه رضوان الله عليهم فآمنوا، وسمع الذين جاؤوا من بعدهم دعوة التوحيد والإيمان في الكتاب والسنة المحفوظَيْن بحفظ الله تعالى، فاستجابوا واتبعوا.

﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ يا رب، استر علينا ذنوبنا ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد، فإنا آمنا وصدقنا.

﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ تأكيد على طلب رحمة الله تعالى والحرص عليها بدعائهم: يا رب، لا تحاسبنا على خطايانا، وامحها عنا.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ يا رب، أكرمنا بقبض أرواحنا على حالة البر والطاعة، واكتب لنا أن نلحق بالأنقياء الأتقياء الطائعين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، فنموت ميتتهم الطيبة، ونكون معهم في الدار الآخرة في جنات النعيم.

وهذا النداء نحتاجه في دعائنا لعله يكون للاستجابة أقرب، فالتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة كان سببًا لانفراج الصخرة عن أولئك الثلاثة الذين أغلقت الصخرة باب الغار الذي باتوا فيه.

والواحد منا يدرك ضعفه عند وقوفه مع مثل هذه الآيات، ويعلم أنه لولا مغفرة الله ولطفه ورحمته لما نجا، ولما كان من الصالحين، ولسان حال الواحد منا: يا رب، سمعنا مناديًا للصلاة فصلينا، وسمعنا مناديًا ينادي للزكاة والصيام والحج فأقبلنا، وسمعنا مناديًا ينادي للحجاب واللباس الشرعي فامتثلنا، وسمعنا مناديًا ينادي بتحريم أكل أموال الناس بالباطل والغش والخداع، وتحريم الغيبة والنميمة والكذب، فتسابقنا فيما يرضيك عنا وانتهينا عما يسخطك علينا، اللهم فارض عنا.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

ومن دعاء أولي الألباب كذلك، أنهم يسألون الله من فضله الذي وعدهم إياه على ألسنة الرسل، وما جاؤوا به في كتبهم.

والرسل وَعَدَتْهم بالتمكين لأهل الإيمان منهم في الدنيا، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النُّور: ٥٥]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والرسل جاءتهم كذلك بالوعد بالمغفرة في الدار الآخرة، وحسن الثواب على ما قدموا.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ولا تجعلنا من أهل الذل والصغار في أرض المحشر بين الأشهاد.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وعدك بنصر المؤمنين في الدنيا والتمكين لهم حق، والوقوف بين يديك حق، والجنة حق، والنار حق، فأكرمنا بكرمك يا كريم.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾

عَلِمَ الله تعالىٰ صِدْق أولي الألباب في دعائهم، فأكرمهم بالاستجابة، وبشَّرهم بأن ثواب أعمالهم سبقهم إلىٰ أرض المحشر، لينالوا به الدرجات العلىٰ، ذكورًا كانوا أو إناثًا.

ولا تتوهموا أن الإناث لا حظ لهن في الفضل والثواب لأن مباشرتهن للجهاد والهجرة أقل، بل قد يؤدين أعمالًا في ذلك لا يستغني عنها المسلمون، وتكون أجورهن فيها مضاعفة وعظيمة.

أخرج أبو يعلىٰ في المسند، والحميدي والحاكم عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا، أنها قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، لَا أَسْمَعُ الله ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ بِشَيْءٍ. فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ الآية.

وتأملوا التعبير القرآني الذي جاء بحرف الفاء في قوله ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾، وهو يدل علىٰ سُرْعَةِ الْإِجَابَةِ بِحُصُولِ المطلوب.

وربنا يتفضل علىٰ كل من دعاه مستجمعًا شروط الدعاء، ومجتنبًا لموانعه، ويُعطيه سؤله كما وعد سبحانه في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وتأملوا لفظ الربوبية هنا في الآية في قوله ﴿رَبُّهُمۡ﴾، والذي يدل علىٰ اللطف ومحبة الخير والرحمة، ويدل علىٰ التعظيم من جهة العبد، فإنهم لما دعوه قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾.

وتأملوا كيف ساوت الشريعة بين الذكر والأنثىٰ في الأجر والثواب في الدار الآخرة، وكيف جعلت ميزان التفاضل ورفعة الدرجات قائمًا علىٰ التقوىٰ والخشية، والإيمان والعمل الصالح، وذلك بخلاف الدنيا التي قامت أحكام شريعة الله فيها علىٰ التساوي في أحكام، والاختلاف في أحكام، نظرًا إلىٰ طبيعة كلٍّ منهما، وحرصًا علىٰ التكامل المنشود بينهما لعمارة الأرض وصلاح الإنسانية.

لقد أفسدت منظمات الأمم غير المسلمة حال المرأة، وانطلقت من قواعد تخالف الدين والعقل والعلم والفطرة، كقاعدة المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، وقاعدة محاربة الأسرة والأخذ بالمرأة إلىٰ حال التوهان والضياع، وجعلت تطالب بإلغاء كل فرق بين الرجل والمرأة زاعمة أن هذا هو طريق إعزاز المرأة وتحقيق مكانتها.

وليست المشكلة الكبرىٰ فيهم، ولكنها في أبناء جلدتنا الذين تقبَّلوا هذه الأفكار، وغرسوها في مناهجنا التعليمية وقوانيننا وإعلامنا، وجعلوا يهاجمون بها الأحكام الشرعية التي فرقت بين الرجل والمرأة كالميراث والقوامة والولاية والزواج وغير ذلك، وجعلوا يُغْرون عقول كثير من بناتنا وأخواتنا لبناء حياة يُقلدْنَ فيها المرأة الغربية وغيرها من النساء غير المسلمات.

يكفينا أن شريعتنا نزلت من عند خالقنا، ويكفينا أن المرأة مرفوعة القدر في حياتنا أُمًّا وبنتًا وأختًا وزوجةً، وأن القرآن سماها بشرىٰ، وأنزل لها سورة النساء، ودافع عن عرض أمنا مريم وأمنا عائشة عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وأخبرنا أن الله تعالىٰ استمع إلىٰ شكوىٰ المرأة علىٰ زوجها كما في أوائل سورة المجادلة.

ويكفينا أن شريعتنا جعلت بناتنا وأخواتنا سِترًا لنا من النار إن أحْسنَّا إليهنَّ، ويكفينا أن المرأة كانت وصية رسول الله ﷺ في حجة الوداع، ووصيته وهو علىٰ فراش الموت، وغير ذلك.

نوقن أن ثمة ظلمًا واقعًا علىٰ المرأة في بلادنا، كما أن ثمة ظلمًا واقعًا علىٰ الرجل، وعلىٰ الصغير والكبير، وعلىٰ الغني والفقير، ولكن هذا الظلم لا يُرفع إلا بالإسلام، وإلا بتحكيم شريعة الملك الحكيم الخبير، لا بشريعة دول الكفر والإلحاد.

ونوقن أن الجهل بهذه الشريعة سهَّل علىٰ رؤوس الشَّرِّ عملهم في بلادنا، فضْلًا عن التمكين لهم عن طريق سياسات بعض الأنظمة المنبطحة للغير، فضْلًا عن انشغال صنف من طلاب العلم والدعاة بالكيد لبعضهم ومحاولات إسقاط الآخر، والتزلف للظلمة لتحقيق مصالح موهومة.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أَيْ: الجميع في حصوله علىٰ الثواب والجزاء الحَسَن سواء، وأنتم سواء في تحقيق وعد الله لكم، والعبرة بالتقوىٰ وكفىٰ. قال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٣٢].

﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ هذا ما حصل مع النبي ﷺ وأصحابه الذين هاجروا من مكة للمدينة فرارًا بدينهم، وسعيًا لإعزاز الإسلام وإقامة الدولة، وكما حصل مع أصحابه الذين هاجروا إلى الحبشة قبل ذلك رضوان الله عليهم.

النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لم يقتصروا على الدعاء بعد إيمانهم، ولكنهم تركوا دار الكفر التي كانت عبادة الأصنام فيها تملأ القلوب والمكان، وكان أهل الشرك يحاربونهم بأصناف شتى وألوان مختلفة من التضييق والعذاب، حتى ألجؤوهم إِلَى الْخُرُوج مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، ومفارقة الأحبه والجيران والقرابة؛ كل ذلك في سبيل الله، ومن أجل إظهار دعوة التوحيد في الأرض. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ [الْمُمْتَحِنَة: ١].

قلت: ونحن على طريقهم حتى نلقاهم في جنات ربنا، ولعل كثيرًا منا لم يُجرِّب ما جَرَّبوه، ولم يعش ما عاشوه، ولكن أهل الصدق منا يتتبعون الأثر، ويكملون المسيرة، ولن يصدهم شيء عن نصرة دينهم وإعلاء كلمة الله في الأرض.

﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ وصفٌ لأحب الأعمال عند الله، وأكثرها مثوبةً، وأثقلها في الميزان: رجل خرج للقتال في سبيل الله، وقُتل مُقبلًا غير مدبر.

أخرج أحمد والنسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلْتُ فِي سَبِيلِ الله صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيُكَفِّرُ الله عَنِّي سَيِّئَاتِي؟ قَالَ: "نَعَمْ" ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ آنِفًا؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: هَا أَنَا ذَا، قَالَ: "مَا قُلْتَ؟" قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله صَابِرًا مُحْتَسِبًا مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، أَيُكَفِّرُ الله عَنِّي سَيِّئَاتِي؟ قَالَ: "نَعَمْ، إِلَّا الدَّيْنَ، سَارَّنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفًا".

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾

هذا جزاؤهم الذي ينتظرهم من ربنا: مغفرة لذنوبهم، ومساكن طيبة في الجنات، تجري من بين أشجارها وتحت مساكنها أنهار مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعت، وَلَا خطر عَلَى قَلْبِ بَشَر.

أكرمهم ربهم بما أكرمهم به ثوابًا من عنده، وجزاءً وفاقًا على ما كان منهم من العمل الصادق، والإيمان الخالص.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ ويكفيهم في ذلك أن ثوابهم كان من عند الله تعالى، الذي إذا أعطى أكرم، وفتح ما لا يعلمه إلا هو من أبواب الملذات والنعم.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

الغرور: أن تظن شيئا حسنًا وهو بضده، أي: يكون في العاقبة مكروهًا.

يعني: يا محمد ﷺ: لا تغتر بحال قريش، ولا تظن أن إمهال الله لهم في الدنيا وإسباغه نعمه عليهم دليل على أنهم أَمِنوا عذاب الله، أو أن الله تعالى راضٍ عنهم، ولكن هذه النعم التي ظهرت فِي أَمْوَالِهِمْ وأولادهم وأنفسهم إنما هي من استدراج الله لهم، فَيُمَتِّعُهُمْ بِها قَلِيلًا، ثُمَّ يُهْلِكُهُمْ فَيَجْعَلُ مَصِيرَهُمْ إِلَى النَّارِ، وبئس المسكن والمأوى والفراش والدار.

وكذلك أنتم أيها المؤمنون: لا تغتروا بتقلب الَّذِينَ كَفَرُوا فِي بِلَادِ الله، بِالتِّجَارَاتِ وَالْأَرْبَاحِ، وَالْعَافِيَةِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ، ولا تظنوا أن الله غير مؤاخذهم على جدالهم في آياته وحرب أوليائه، ولا تستبطئوا نصر الله لكم.

ولكم أن تتأملوا أقوامًا من قبلهم أعطاهم الله من نعمه، وكان حليمًا عليهم وراحمًا لهم، مع إقامتهم على الكفر والصد عن سبيل الله، ثم إنه سبحانه أخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما هو حال قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون، فلا يغررك تقلبهم في البلاد. قَالَ الله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لُقْمَانَ: ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غَافِرٍ: ٤].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

الدنيا دار عمل، والله تعالى يعطي فيها ويرزق خلقه، ولا يمنع عطاءه عن أحد، والآخرة دار الحساب والجزاء، وفيها تنصب الموازين، وتطير الصحف، فأصحاب يمين وأصحاب شمال.

وجهت الآية السابقة أهل الإيمان بألا يغتروا بظاهر حال أهل الكفر والعناد، فإن مأواهم ومستقرهم جهنم، وبئس المحل محلهم.

وتأتي هنا لتخبرنا أن منازل الذين اتقوا ربهم ومحلَّهم ومستقرَّهم جنات، تجري بين أشجارها أنهار وأنهار، لا تنقطع ولا يحول بينهم وبينها شيء، ذلك بأنهم اتقوا المحارم والمآثم مع قربها منهم، وصَدَقوا في وجهتهم نحو الدار الآخرة.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ أطاعوا ربهم فشوَّقهم لما ينتظرهم، وما عند الله خير وأبقى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ [الانفطار: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾

الآية تذكر طائفة من اليهود والنصارى، ثبت لها أنَّ دين محمد ﷺ حقٌّ، وأن القرآن كتاب نزل من عند الله، وأنه لا طريق للفوز برضا الله سبحانه وتعالى والنجاة من النار إلا بالإيمان بالله وحده، والإيمان برسله وكتبه جميعًا.

أقول: هذه الطائفة آمنت ودخلت في الإسلام، خاشعة متذللة بين يدي الله تعالى.

والآية ذكرت أنهم آمنوا بالله، أي: أفردوه بالعبودية، وآمنوا بما أنزل إليكم، أي: القرآن والسنة، وكذلك بما أنزل إليهم، أي: التوراة والإنجيل.

ثم إنهم خاشعون لله، أي: عاشت قلوبهم وجوارحهم مع عقيدتهم وعباداتهم، فنالوا الثمرة العظيمة التي بها يسعد الإنسان وتحلو الحياة وتنزل الطمأنينة، وما أعظمها من نعمة.

﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ لَا يَكْتُمُونَ الحق وما عندهم من العلم من أجل الدنيا ومتعها التي لا تدوم، ولا يشترون بآيات الله منصبًا أو جاهًا أو مالًا كسائر اليهود والنصارى الذين سبق ذكرهم، بل يبينون الحق بصدق وتجرد تعظيمًا لربهم وحبًّا لدينه، كما حصل في قصة عبدالله بن سلام الذي كان يهوديًّا، وأصحمة النجاشي الذي كان نصرانيًّا.

أخرج النسائي في السنن الكبرى والبزار، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا جَاءَ نَعْيُ النَّجَاشِيِّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "صَلُّوا عَلَيْهِ" قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، نُصَلِّي عَلَى عَبْدٍ حَبَشِيٍّ؟ فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ الآية.

وأخرج البخاري ومسلم كذلك قصة صلاة النبي ﷺ على النجاشي لما مات، فعند البخاري عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: "مَاتَ اليَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ".

وقد أخرج أحمد في قصة هجرة عدد من الصحابة إلى الحبشة وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّجَاشِيَّ سأله: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ الله مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كهيعص. (أي: سورة مريم)، فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ (وهي الصحف والأوراق التي كُتب فيها كتابهم) حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ".

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يبشرهم ربنا بفضل كبير وجزاء عظيم على تجردهم واتباعهم للهدى، فإنَّ ترْك ما ألفوه بين أقوامهم أمرٌ ليس هيِّنًا، ولكن الله تعالى ربط على قلوبهم وشرحها لما يحب ويرضى، وأعد لهم ثوابًا سيُنْسيهم تعب الدنيا وما قاسوه في طريق عبوديتهم.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القَصَص:٥٢-٥٤].

وتقدم معنا ما ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أجرهم مَرَّتَيْنِ (وذكر منهم): رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ".

وقد جاء في الثناء على النصارى الذين آمنوا وصدقوا سياق قرآني خاص بهم، فإنهم أرق قلوبًا، وأقرب إلى الإيمان من اليهود الذين هم أشد الناس عداوةً لنا، ولم يسلم منهم إلا القليل. قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المَائِدَة: ٨٢-٨٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ يحاسب الجميع في وقت واحد كما يرزقهم في وقت واحد، وعظمته في إحصاء أعمال الناس جميعًا وعدِّها عليهم معلومة ومعهودة، وحساب من أقبل على الإسلام وآمن سيكون سريعًا لئلا يتأخر عن نعيمه ولا يتأخر نعيمه عنه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠ ﴾

ختام للسورة ينقش بماء الذهب، وكل القرآن كذلك.

هنا وصية جامعة للمؤمنين تبعث فيهم الأمل، وتعطيهم مفتاح سعادة الدارين، وترفع هممهم وتجعلهم أقدر على حمل أمانة هذا الدين وإيصاله للعالمين.

نداء من الله للمؤمنين بأن يصبروا، والصبر له مجالاته التي لا تكاد تنقضي، فالمسلم يصبر على دينه ودعوته وجهاده لأعداء الله في الأرض، والمبتلى يدعو الله تعالى ويستعين به ويشكره، وصاحب المعصية يجاهد نفسه للفكاك منها والابتعاد عنها، ومن أنعم الله عليه بنعمة صرفها في طاعة الله وصبر على ذلك.

وصابروا، أي: كونوا أشد في صبركم بلا ملل ولا كلل، وإن شعرتم أنه يكاد ينتهي، فالصبر مثلًا في جهاد الأعداء لا تكفيه معركة، لأن جهادهم ممتد ويحتاج إلى طول نفس، وإلا كانت العاقبة وَخِيمة وصعبة، وهكذا الحياة التي خُلِق الإنسان فيها في كبد، وكانت دارَ بلاء له، تحتاج إلى مصابرة وتصبُّر وثبات على الحمد والشكر، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر: ١٠].

وأخرج مالك في الموطأ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ؛ قَالَ: كَتَبَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، يَذْكُرُ لَهُ جُمُوعاً مِنَ الرُّومِ، وَمَا يَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ مَهْمَا يَنْزِلُ بِعَبْدٍ مُؤْمِنٍ مِنْ مُنْزَلِ شِدَّةٍ، يَجْعَلِ اللَّه لَهُ بَعْدَهُ فَرَجاً. وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ. وَأَنَّ الله يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

ورابطوا، أي: واظبوا على الأعمال الصالحة وداوموا عليها، حتى تلقوا ربكم وهو عنكم راضٍ.

ومن أعظم الرباط ملازمة ثغور بلاد المسلمين، حماية لهم وحراسة من عدوهم، ولمنع أهل الكفر من النيل من الإسلام وأهله.

ومن أعظم الرباط كذلك كل علم من علوم الدنيا مما لا نستغني عنه في نهضتنا وعزتنا، كعلم صناعة السلاح، وعلم الطب والهندسة وغيرهما، فكل من قام على هذه العلوم بأمانة وأدَّى حق الله فيها، ونفع أمته، كان من أهل الرباط الطيب المبارك بعون الله.

أخرج البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: "رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ الله، أَوِ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا".

وأخرج مسلم عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ".

وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن فُضالة بْنِ عُبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ، إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابطًا فِي سَبِيلِ الله، فَإِنَّهُ يَنْمى لَهُ عملُه إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ".

وأخرج الترمذي عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: "عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله".

ومن الرباط كذلك في الأعمال الصالحة، ما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: "ألا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ إسباغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ".

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ واجعلوا بينكم وبين الحرام سدًّا وحاجزًا، لعلكم تفوزون بالرضوان العظيم والنعيم المقيم، وتنجون من نار تلظى، نسأل الله تعالى العافية، ونسأله كما قال ابنُ كثير في ختام تفسيره لهذه السورة أن يميتنا على الكتاب والسنة.

ولا يحضرني هنا إلا قولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣]، فلله الحمدُ أولًا وآخرًا، وله الفضل والمِنَّةُ، وأسأله سبحانه أن يعينني وإياكم على حمل أمانة تبليغ الدين الذي تعلمناه، والذَّبِّ عن حياضه، وشكره على ما أنعم به وأكرم، والحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارِك على نبي الرحمة والهدى محمدٍ، وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن حمل رايتهم وسار على هداهم إلى يوم الدين.

التفسير الوعظي لسورة آل عمران

darfan.com